القرن الرابع عشر

1 – محمـــــــد إقبـــــــال
2 – الشيخ طنطاوي جوهري
3 – محمد مصطفى المراغـي
4 – مـصطفى عبـد الـرازق
5 – محمـــد كـــرد علـــي
6 – الملك عبد العزيز آل سعود
7 – محمـد فريـد وجـدي
8 – أحمـــــد أمـــــين
9 – عبـد الحميـد العبـادي
10 – محمـد عبـد الله دراز
11 – أبـــو الكـــلام آزاد
12 – عبـد الحلـيم محمـود
13 – محمـــود شـــلتوت
14 – عبـاس محمـود العقـاد
15 – أمـــين الخـــولي
16 – علـي عبـد الـرازق
17 – محـب الـدين الخطيـب
18 – طـــه حـــســـين
19 – مالـــك بـــن نـــبي
20 – عبـد الحميـد جـودة
21 – محمد أبو زهـرة

هـذا القـرن

يبدأ هذا القرن (الرابع عشر الهجري) سنة 1884 ، وينتهي عام 1979 في التقويم الميلادي ، ومعنى ذلك : أنه امتد في أربعة أخماس القرن العشرين الميلادي : قرن التحولات الكبرى والأعمال العظيمة ، والثورات التحررية .

ففي هذا القرن ، تفككت الكيانات الدولية الكبرى التي رأيناها في الصفحات السابقة ، تلك الكيانات التي كانت تجمع في الواحد منها مجموعة من الدول ، فلم يبق من هذه الكيانات سوى الدولة العثمانية التركية التي انسلخت عنها كل الدول التي استولت عليها . وفي هذا القرن ، بدأت الدول الأوروبية في استعمار دول العالم الإسلامي بصورة سافرة ، وتحت دعاوى عديدة غير مقنعة . كما امتد احتلال فرنسا لأقطار المغرب العربي : تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، إلى جانب احتلالها لبعض الدول في المشرق مثل : لبنان وسوريا وغيرها ، أو كما حدث من احتلال بريطانيا لبعض دول العالم الإسلامي ، ومنها مصر عقب الثورة العرابية وفلسطين وعدن ... وغيرها من الدول التي نالت استقلالها بعد عشرات السنين .

كذلك في هذا القرن ، حدثت الثورة البلشفية في أكتوبر عام 1917 التي أعقبها انتشار التيار الشيوعي أو الاشتراكية العلمية ، وتحولت روسيا القيصرية إلى الاتحاد السوفيتي الذي تبنى النظرية الماركسية ، وطبقها على الدول التي تدور في فلكه ،

وبظهور هذه النظرية انقسم العالم إلى ثلاث كتل: كتلة غربية، تلك التي تعمل بالنظام الرأسمالي وما فيه من اقتصاد حر ، وذلك في الدول الأوروبية وأمريكا . وكتلة شرقية ويتزعمها الاتحاد السوفيتي . وكتلة ثالثة وسط هي : (كتلة عدم الانحياز) أو الحياد الإيجابي ، مكونة من: مصر والهند ويوغسلافيا وأندونيسيا ، كذلك ظهرت الولايات المتحدة كقوة عظمى تناهض الاتحاد السوفيتي ودول الاتحاد الأوروبي والدول التي تدور في فلكه .

كذلك ، قامت في هذا القرن العديد من الحروب في مقدمتها الحربان العالميتان: الأولى والثانية ، إلى جانب الحروب التي تهمنا كعالم إسلامي ، وأهمها الحرب مع إسرائيل في ثلاث جولات في أعوام (1948 ، 1967 ، 1973) كذلك حرب البوسنة والهرسك ، وتقسيم يوغسلافيا إلى كتلتين ، كما تم التقسيم في شبه القارة الهندية إلى : الهند وباكستان وبنجلاديش إلى آخر هذه الأحداث التي تحتاج إلى عدد من الفصول لرصدها . ونحن هنا نحاول مجرد الإشارة خاصة في الأحداث التي لها دخل بالعالم الإسلامي .

هذه الحالة السياسية في العالم ككل ، والتي قسمته إلى معسكرين : رأسمالي واشتراكي ، واحتلال الدول العظمى كإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا التي احتلت أجزاء من العالم الإسلامي ، والتصرف في هذه الدول المحتلة كما لو كانت ممتلكات لهذه الدول الاستعمارية ، إلى آخر هذه الأوضاع السلبية التي كانت لها انعكاسات على الحالتين : العلمية والاجتماعية ، خاصة بداية هذا القرن . فنجد في الحالة العلمية التخلف واضحا في الجامعات الإسلامية وخاصة الأزهر ، ومحاولات الشيخ الإمام «محمد عبده» لإصلاحه ، ولكن وقف في طريقه بعض الرجعيين والتابعين للسراي الخديوية ؛ حيث كان الخديوي «عباس حلمي» متعاطفا مع هذا الإصلاح ، ولكنه

سرعان ما انقلب عليه ليكون ضده بفعل الدس والتآمر الذي تولى كبره بعض المناهضين للإصلاح . هذا إلى جانب الاستعمار الإنجليزي الذي كان يخشى من هذا الإصلاح .

وعلى الإجمال .. كانت الحالة العلمية في هذا القرن أفضل من مثيلتها في القرن الماضي ، إلا أنها مع ذلك لم تكن على المستوى المطلوب ، خاصة فيما يحدث حول هذا العالم الإسلامي من نهضة وتقدم بل وحضارة أوروبية ، وهو لا يزال في مكانه يحاول الإصلاح العلمي والاجتماعي فووجه بالتحديات والعراقيل . وكان للمتصوفة أكبر نصيب في تعويق حركة الإصلاح في هذا القرن ، فهؤلاء المتصوفة - خاصة في بداية هذا القرن - ينشرون بين الناس البدع والخرافات ، ويتاجرون بأصحاب القباب من الأموات ، فتأتيهم الأموال من الجماهير المخدوعة بهم . وقد أنكر الشيخ الإمام «محمد عبده» هذه التحركات الصوفية ، ولكن دون جدوى ، خاصة بعد اشتراكه في الثورة العرابية ، والحكم عليه بالنفي إلى بيروت ، ليعود إلى مصر تحت مراقبة مشددة من الإنجليز والسراي .

باختصار .. أقول إنه على الرغم من أن هناك بصيصا من التقدم ، ربما يجعل الحكم على هذا القرن الرابع عشر أفضل من الثالث عشر ، إلا أن هذا التقدم لم يكن كافيا ، خاصة في وجود الاحتلال الأجنبي ، والذين يساندونه من حكام المسلمين .

ومن مظاهر التخلف العلمي : سيطرة مدرسة «ابن تيمية» التي ظلت على جمودها في هذا القرن ، ولم تلن فيه للتجديد الذي دعا إليه بعض المجددين السابقين وأقربهم لهذا القرن السيد «جمال الدين الأفغاني» . خاصة وأن أتباع مدرسة ابن تيمية وفي مقدمتهم بعض الإخوان المسلمين كانوا ينظرون بعين

العداء إلى آثار الحضارة الأوروبية الحديثة ، من الدراجات إلى السيارات .. إلى غير ذلك من آثار هذه الحضارة التي يعادونها دون مبرر ، مع أن من مبادئ وقيم الدين الإسلامي الدعوة إلى العلم حتى ولو في الصين ، وأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها هو أحق الناس بها، ولم يدع هذا الدين الحنيف مطلقا إلى معاداة العلم وإنجازاته .

أقول : « لكن على الرغم من ذلك ، فإننا نجد في هذا القرن الرابع عشر أكبر عدد من المجددين في الإسلام ، عدد لم يسبق له مثيل في أي قرن آخر ، يتقدمهم بالطبع الشيخ أحمد حسن الباقوري وكتاباته وأحاديثه التي تذهب بعضها إلى التأكيد على أن الإسلام هو حقا وصدقا دين التيسير والمرونة ، وهذه خاصية ربما يتميز بها الإسلام عن غيره من الأديان السماوية . وفي المقابل من حكام المسلمين : عاهل المملكة السعودية الملك «عبد العزيز آل سعود» الذي وحد بلادها ونقلها من حياة البداوة إلى حياة المدنية ، واستطاع بذكائه الفطري أن يستفيد من العلاقات مع الأجانب دون أن يرتمي في أحضانهم ، كذلك نجد من المفكرين : السوري «كرد علي» صاحب كتاب : (الحضارة الإسلامية) الذي سلط الأضواء على قيمها ومبادئها أو « علي عبد الرازق» صاحب كتاب: (الإسلام وأصول الحكم) الذي كان كتابه ضد استغلال الدين لأغراض الحكام وأهدافهم الشخصية، والشيخان : «مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق » ، وكيف كان عمل الشيخ المراغي امتدادا حقيقيا لعمل أستاذه الشيخ «محمد عبده» وعمل الشيخ «عبد الرازق» الذي تمثل في بلورة الفلسفة الإسلامية كواحدة من الفلسفات العلمية ، والمفكر الجزائري «مالك بن نبي» الذي له اجتهادات فقهية على جانب كبير من الأهمية ، والعالم الجليل الشيخ «محمد أبو زهرة» أحد

مشرعي قوانين الإسلام داخل الجامعة المصرية وخارجها ، والدكتور «عبد الله دراز» صاحب الأعمال الفكرية المبكرة . هذا إلى جانب عدد من المجددين المسلمين في الهند يتقدمهم فيلسوف الإسلام : «محمد إقبال ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، وأبو الأعلى المودودي ووحيد الدين خان وأبو الحسن الندوي»... وغيرهم .

ولعلنا هنا ، نتوقف عند اثنين من المجددين في القرن الرابع عشر لهما إسهاماتهما التي لا تنكر ، أما الأول فهو الدكتور «طه حسين» صاحب مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بأسلوب يفهمه المسلم المعاصر ؛ حيث اتفق مع اثنين من زملائه في الجامعة : الأستاذ «عبد الحميد العبادي» الذي رأى أن يؤرخ للإسلام من الناحية السياسية والأستاذ «أحمد أمين» الذي رأى أن يؤرخ للإسلام من الناحية الفكرية والاجتماعية ، وأن يتولى صاحب هذا المشروع أي : الدكتور طه حسين الكتابة عن الحياة الأدبية في الإسلام .. كان هذا المشروع مناهضا لكل ما يريده كل من الاستعمار والاستشراق ، وأداة تنفيذهما التبشير ، وقد تبع ذلك عشرات الكتابات الحديثة من الأجيال التالية . وأما الثاني فهو الأستاذ «عباس محمود العقاد» الذي كتب أكثر من ثلاثين كتابا في الإسلام ، كلها دفاع عن هذا الدين ضد ما يقال عنه من أعدائه وتوضيح لمبادئه وقيمه ، ثم عشرات الكتب الأخرى التي تضمنتها بقية كتبه . باختصار .. كانت كتابات العقاد خير وسيلة للدفاع عن الإسلام ، وتقديمه على النحو الذي يتقبله القارئ المعاصر .

وغير هؤلاء ، نجد محمد فريد وجدي صاحب دائرة معارف القرن العشرين الميلادي ، وأمين الخولي شيخ ورائد جماعة الأمناء ، ومحب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية والعديد من المؤلفات الفكرية في مصر ، وطنطاوي جوهري أول

عربي طالب بأن تمنح أعماله جائزة نوبل حيث وفقت بين الدين والعلم ، وعبد الحميد جودة السحار صاحب مجلدات « محمد رسول الله والذين معه » التي تقدم الإسلام ونبيه ﷺ وصحابته الأجلاء .

وهكذا .. كان هذا القرن الرابع عشر الهجري غنيا بمجدديه ، على الرغم من التخلف في الجوانب السياسية والعلمية والاجتماعية والدينية ، وهو ما توضحه الصفحات التالية في حديثنا عن المجددين .

* * *

محمـــد إقبـــال

« كن يا بني برعما مزهرا في غصن الملة المحمدية ، وكن زهرة تحيا بنسيم يقبل من ربيع المصطفى ... » .

هكذا تفتحت كرامة الطفل البريئة عند شاعر الباكستان وفيلسوفها : محمد إقبال على مثل هذه الكلمات والمعاني ، من والده ذلك الرجل المتدين . إذا .. ليس صدفة أن ندرك بعد ذلك تمسك إقبال بالدين الإسلامي تمسكا ملك عليه تفكيره ، وجعله يسخر كل جهده لخدمة هذا الدين والوصول به إلى فلسفة للحياة وليس غربة عنها ، مما جعله جديرا بأن يحتل مقام الفيلسوف الإسلامي في الشرق في عالمنا المعاصر ، والفيلسوف الثاني بعد ابن رشد في تاريخ الفكر الإسلامي بوجه عام ، وأن يكون دوره بالنسبة لفكرنا كما يقول الدكتور طه حسين : « كان إقبال هو الذي دعانا لأن نعرف أنفسنا ، ولأن نناضل من أجل حقوقنا وقضايانا .. » .

وها هو إقبال يتأمل مكانة الدين ، فيرى أن الدين ليس تفكيرا جزئيا ، وليس تفكيرا مجردا، ولا شعورا ولا عملا ، بل هو تعبير الإنسان عن كل ما يشعر ويعرف ويدرك، وعلى هذا.. فإنه إذا ما بحثت العلوم الأخرى عن الدين فإن عليها أن تعترف بمركزه الرئيسي ، وحين يتأمل دور الإسلام في عالمنا المعاصر ، يرى أن الإسلام لم يستنفد بعد من إمكاناته ، وأنه لا يزال قادرا على خلق عالم جديد لا يتحكم فيه اللون أو الجنس أو رأس المال أو السلطان ، بل يتحدد بنوع الحياة التي يحياها هذا العالم . ولهذا اعتبر واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد في 1294هـ وتوفي عام 1357هـ .

ويجد إقبال من مبادئ الإسلام السعي الدائم إلى التوفيق بين الدين والدنيا ، بين مطالب البدن ومطالب الروح في وحدة جديدة تسمو على كل شيء ، وأن مجتمع هذا الدين - في رأيه - لا يقوم على المساواة المادية فحسب ، وإنما يقوم على أساس الصفاء الروحي والنفسي ، والملكية الخاصة في أحكام هذا الدين لا تعدو أن تكون أشبه بالأوقاف ، فلا تتهيأ فيه الفرصة لمضاعفة رأس المال على حساب الغير بحيث يصير أصحاب رأس المال المتحكمين في مصائر البشر .

وعن مكانة نبي الإسلام محمد - ﷺ - : يذهب إقبال بأن هذا النبي الكريم يعتبر حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث ، فمن العالم القديم جاءت رسالته ، وإلى العالم الحديث لا تزال روحه سائدة ملهمة ، وأن هناك حكمة وراء أن يكون محمد صلوات الله عليه خاتم النبيين حيث يقول إقبال في عبارة موجزة : « إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى النبوة نفسها ... » .

ويتأمل إقبال شريعة هذا الدين الحنيف ، ويقوده هذا التأمل إلى معان من الاستنباط والاستدلال والاستنتاج إلى أنه إذا ما فهمت هذه الشريعة الإسلامية حق الفهم ، وطبقت كما يجب أن تطبق ، فإن الحق في العيش يكفل لكل إنسان أن يعيش في إطارها إنسانا بكل ما تعني هذه الكلمة من معان .

ويتساءل إقبال : هل الدين الإسلامي بهذه الصورة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام أمرا ممكنا ؟ ويجيب : نستطيع القول بأن الحياة الدينية من الوجهة العامة تنقسم إلى ثلاثة أطوار : طور الإيمان ، وطور الفكر ، وطور الاستكشاف . ففي الطور الأول تبدو الحياة الدينية صورة من نظام يجب على الأمة بتمامها أن تخضع لأمره خضوعا مطلقا ، ومن غير تحكم العقل في تفهم مراميه البعيدة أو غايته القصوى ، وفي الطور الثاني «الفكر» يتخلى التسليم المطلق عن مكانه للعقل الذي

يأخذ في تفهم هذا النظام وتفهم المصدر البعيد لسنده ، وفي الطور الثالث «الاستكشاف» تزيد الحياة الدينية في طموح الإنسان إلى الاتصال المباشر بالحقيقة القصوى ، وهنا يصبح الدين مسألة تمثل شخصا للحياة والقدرة ، ويكتسب الفرد شخصية حرة لا بالتحلل من قيود الشريعة : ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره .

وهو بهذا الفهم المستنير للإسلام ، يطمح إلى مجتمع إسلامي أمثل ، يتحرك نحوه الإسلام حيث يقول : « صدقوني أن أوروبا اليوم هي أكبر عائق في طريق الرقي الأخلاقي للإنسان ، على حين أن المسلم مزود بالمبادئ الفكرية العليا التي أتى بها الوحي المنبعث نطقه من أعمق أعماق الحياة » .

ولعله يتساءل بعد ذلك في كتاباته بنفس الطريقة : هل الإسلام يمنح أتباعه الأمن والأمان ؟ ويجيب في نفس الوقت : « هناك درس واحد وعيته من تاريخ المسلمين ، ففي اللحظات الحرجة من تاريخهم كان الإسلام هو الذي أنجى المسلمين » . ولكن كيف ؟ لعله في إجابته يخاطبنا : « إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام ، واستلهمتم المبادئ الحية الدائمة فيه ، فأنتم لا تكونون قد فعلتم أكثر من إعادة تجميع قواكم واستعادة كيانكم المفقود ، الأمر الذي تنقذون به أنفسكم من خراب شامل » .

ونراه يحاور نفسه نثرا وشعرا في مؤلفاته الأحد عشر ، فينبه إلى خطر الغرب على الإسلام ، وينبه إلى خطر العناصر المدمرة داخل الإسلام نفسه ، ويدعو إلى التحرر من الأوهام التى عشناها منذ القرون الوسطى ، والانطلاق من سجن الأفكار والمشاعر التي نسجناها نحن أنفسنا حول أنفسنا بمرور الزمن .

وأخيرا .. يرجع إقبال التخلف الذي أصاب المسلمين إلى سببين : **أولهما** : الانحرافات الفكرية والسياسية والثقافية التي حدثت في الماضي ، **وثانيهما** : الإخلاد

إلى الكسل الذي أوهنت به بعض الصور الدخيلة على الإسلام نفوس المسلمين قد دفعت بهم إلى التعلق بكل أنواع الانحرافات . يضاف إلى هذين السببين **سبب ثالث** عرفناه حديثا وهو : الاستعمار وضرره .

يرفع إقبال الشكوى إلى الله الذي بدا له وكأنه قد تخلى عن المؤمنين .

تحية مباركة لإقبال : الرجل الذي ولد بعد الموت ، وأغمض عينيه لتتفتح ملايين العيون في هذا العالم .

* * *

الشيخ طنطاوي جوهري

الشيخ طنطاوي جوهري ، من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة، حيث ولد عام 1291هـ الموافق 1870م ، وتوفي عام 1361هـ الموافق 1940م أي: عاش سبعين عاما ، في هذه الفترة قدم الكثير من الإنتاج ، سواء في التدريس بالمدارس الثانوية ، وكليات الأزهر الشريف والجامعة المصرية القديمة ، أو في الكتابات ؛ حيث ترك آثارا فقهية وفكرية وأدبية ستتعرض لها هذه الصفحات .

ولقد بدأت حياته التعليمية في كتاب القرية التى ولد فيها ، وهى قرية «كفر عوض الله حجازي» بمحافظة الشرقية ، وكان في صباه - كما تذكر سيرة حياته - يعمل بالزراعة مع والده ، إلى جانب دراسته في الكتاب ، إلى أن سافر إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، ولم يكتف بدراسته في الأزهر ، فأضاف إلى ذلك الالتحاق بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج فيها عام 1893م ، ليعمل مدرسا للفلسفة بالمدارس الثانوية في مدينة دمنهور ، ثم في المدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم مدرسا في كلية دار العلوم ، ثم ينتدب بعد ذلك ، وبالتحديد عام 1912م لتدريس الفلسفة بالجامعة المصرية القديمة الأهلية . وفي هذه الفترة بالذات ، بدأت حياته التأليفية حيث قام بتأليف كتاب : (أين الإنسان) وذلك من مجموع المحاضرات التى كان يلقيها على طلابه بالجامعة ، وفي هذا الكتاب يتعرض لما يدركه العقل الإنساني من تحديات ومشكلات ؛ محاولا أن يبحث لها عن حلول مما يجعل المسافة تتسع بين الإنسان وغيره من المخلوقات ، مع الإشارة إلى تاريخ الفلسفة .

لكن هذه الخطوط العامة لا تكشف لنا بصورة كاملة عن شخصية هذا العالم الجليل ، وأهميته وقيمته في تاريخنا الثقافي . ولعل الأستاذ «رجاء النقاش» يكشف

عن جانب من ذلك فيما كتبه عن هذا العالم (بمجلة الشباب) بمؤسسة الأهرام فيقول : « كان الشيخ طنطاوي جوهري - بطبيعة دراسته في الأزهر ودار العلوم القديمة - لا يعرف لغة أجنبية ، ولكنه أدرك بفهمه العلمي السديد ، وتطلعه إلى المعرفة ضرورة الاهتمام بإحدى اللغات الأجنبية ، فاتجه إلى اللغة الإنجليزية ، ودرسها حتى أتقنها معتمدا في ذلك على جهده الذاتي وإرادته القوية، بعد أن استعان في بداية الأمر ببعض المدرسين ، وقد ساعده إتقانه لهذه اللغة على أن يقوم بترجمة بعض الأشعار والنصوص الأدبية ، مما يدل على أنه قد وصل في إتقانه لهذه اللغة إلى درجة جيدة ، وهذا الاهتمام باللغة الإنجليزية مفهوم عند مفكر يريد أن يتوسع في الدراسة والبحث والمعرفة ، هذا إلى جانب اتجاهه اتجاها آخر غريبا عن الدراسة التي درسها في الأزهر أو في دار العلوم ، فقد اهتم اهتماما واسعا بالرياضيات والعلوم الطبيعية ، واندفع إلى البحث في هذه المجالات العلمية اندفاعا نادرا ، حتى أصبح على معرفة عميقة بعلوم الرياضة والطبيعة ، وقد أثرت عليه هذه الدراسة تأثيرا بالغ الأهمية ... » .

ونضيف إلى ما قاله الأستاذ «رجاء النقاش» ما كتبه الأستاذ «أحمد عطية الله» الذي كان من تلاميذ الشيخ طنطاوي جوهري عن هذا الجانب في شخصيته ، فيقول: « كان للرياضيات والطبيعيات جاذبية غريبة عند الشيخ طنطاوي جوهري ، وقد وضح ذلك في تفسيره للقرآن الكريم ، والذي يقرر في ثناياه مثلا تعليم الكيمياء من الواجبات والفروض ، بل امتد شغفه بالدراسات الطبيعية إلى العلم التطبيقي، فنراه في عام 1930م يرفع مذكرة إلى الحكومة المصرية أثناء غارات الجراد التي اجتاحت البلاد ، فيقترح فيها جمع الجراد لاستخراج زيت منه ، يقول إنه أجود زيت يصلح للطائرات ، كذلك امتد شغفه من الرياضيات والطبيعيات إلى الموسيقى ، باعتبار أنها فرع من فروع الرياضيات ، فكان يقول : إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة ، أي : التي توجد في العقل عن طريق المعادلات الرياضية .

وأورد في تفسيره للقرآن الكريم كثيرا من الحوادث الشخصية التي كانت الموسيقى فيها حافزا له على ارتياد مواطن جديدة من النشاط الذهني ، بل إنه عزا توسعه في تفسير القرآن الكريم وهدفه من تضمين هذا التفسير كثيرا من حقائق العلوم الطبيعية إلى حادثة من الحوادث الفردية التي لعب فيها الفونوغراف دورا في تطوير أفكاره وشحذ عزيمته » .

ويستطرد الأستاذ «أحمد عطية الله» في بحثه عن هذا العالم الجليل قائلا : « كان الشيخ طنطاوي جوهري يتابع ما ينشر في الصحف والمجلات من اكتشافات علمية، ارتبطت في ذهنه بالتطور الحضاري . لذلك ، نراه يقرن بين الجمود والتخلف ، وبين عزوف المسلمين عن العلوم الحديثة . ومن هنا .. قاد دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي، قوامها : نشر هذه العلوم ، مؤيدا قوله بالأدلة والبراهين التى لا حصر لها ، مؤكدا أنه لا جفوة بين القرآن الكريم - وهو المصدر الأول للعقيدة - وهذه العلوم ، بل إنه أكد القول بأن القرآن يحث المسلم على طلب العلم بمعناه الشامل ، وطريق ذلك في نظره هو نشر المدارس ، وإنشاء الجامعات الحديثة . وعبر عن ذلك في قصيدة له يقول في بعض أبياتها :

وابنوا المدارس في القرى
والجامعات كما يرى
في كمبردج ولندنا
فزمانها قد حانا

هذه بعض الملامح الشخصية والفكرية للشيخ طنطاوي جوهري ، كما سجلها لنا تلميذه الأستاذ «أحمد عطية الله» .

وقد انعكست هذه الملامح بصورة رائعة في تفسير «الجواهر» الذي كتبه الشيخ طنطاوي جوهري للقرآن الكريم في ستة وعشرين جزءا ، وهو تفسير لا مثيل له بين

كل التفاسير المعروفة ، وقد كتبه بعد أن تجاوز الستين . ويحدثنا هذا العالم الجليل عن تفسيره قائلا : « وبعد أن قطعت زمان الشباب ، وحل بساحتي المشيب ، وأنا أزاول مهنة التعليم وتأليف الكتب ، وجاوزت الستين أخذت أكتب هذا التفسير ، وانكببت على العمل سنتين كاملتين أو يزيد ، فكنت أكتب في اليوم نحو أربعين أو خمسين صفحة ، وعندما أنتهي من ذلك كنت أقوم بالمشي في الحقول حول القاهرة ، حوالي ستة كيلومترات كل يوم » . وقد أتم تفسيره للقرآن حوالي عام 1932م حيث صدرت طبعته الأولى في (6500) صفحة .

هذا التفسير كان يقوم على استخدام الدراسات العلمية الواسعة ، وأيضا التفصيلية في الكيمياء والطبيعيات والرياضيات ، وذلك للكشف عن عظمة الكون الذي خلقه الله وأبدعه . والشيخ طنطاوي جوهري يستخرج ذلك كله من آيات القرآن الكريم ، وهو لا يكتفي بالشرح النظري بل يقرنه بالصور والخرائط التي تشرح الآراء الواردة في التفسير ، والتي تقدم الدليل الثابت على صحتها ، فهو ينشر مثلا عدة صور في تفسيره لسورة الفاتحة التي تثبت معنى الرحمة في هذه العبارة من القرآن الكريم «الرحمن الرحيم» .. فالرحمة خلقها الله في هذا العالم ، فامتدت حتى إلى الحيوانات . ومن الصور التي استعان بها لتفسير معنى الرحمة في قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» صورة للدب الأسمر ، حيث كتب تحت الصورة تعليقا يقول فيه : «ليس الدب الأسمر من الحيوانات المؤذية ، ولا هو يهاجم الإنسان إلا في حالتين : الأولى للدفاع عن نفسه ، والثانية للدفاع عن أطفاله . ونراه في الصورة يحمي اثنين من أطفاله ، وينظر حوله ؛ ليتقي ما هو محتمل من خطر قادم » ، ويقدم صورة أخرى لحيوان اسمه «الأوبسوم» ويكتب تعليقا عليها : «الأوبسوم : حيوان أمريكي بري، وهو شديد العطف على صغاره يحملها فوق ظهره أينما سار أو حل ، كما تدل على ذلك هذه الصورة » .

هذه نماذج من الصور التي يستخدمها الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره للقرآن الكريم ، والتي يقول عن اختياره لها : إنه اختارها من بعض المجلات العلمية لنتبين من مشاهدتها عجائب الرحمة الإلهية ، وكيف يتضح بالمشاهدة قول النبي ﷺ في الحديث : « **إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، ادخر منها تسعا وتسعين لعباده في الجنة ، وجعل رحمة واحدة في الأرض ، بها يعيش الإنسان والحيوان ، وتعطف الأمهات على ذريتها** »[1] والصور التي نشاهدها لها أثر في النفوس ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ** ﴾[3] .

كذلك نقرأ في تفسير «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري كلمات بالغة الجمال والتأثير ، منها قوله : « أرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل ، وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعلم .. والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العلم فهي أحق به » .

ويقول : «لن يعرف المسلمون محامد الله عز وجل حتى يقرأوا نظام الطبيعة ؛ لأنه من أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، فإذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة ، وليعقلوها وليفهموا دقائق الكون والتكوين ؛ فلا يتركون علما إلا درسوه ، ولا فنا إلا عرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حق حمده » .

وحين يتحدث عن نفسه ، يقول في مقدمة تفسيره للقرآن الكريم : « خلقت مغرما بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما في السماء والأرض من بهاء وكمال ، وآيات بينات ، وغرائب باهرات .. شمس تدور ، وبدر

(1) ابن ماجة .
(2) النمل : 93 .
(3) فصلت : 53 .

يسير ، ونجم يضيء ، وسحاب يذهب ويجيء ، وبريق يتألق ، وكهرباء تخترق ، ومعدن بهي ، ونبات شتى ، وطير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسري ، وحيوان يجري ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وكتاب من العجائب مستور ، فيه لوح الطبيعة المنشور ، وسقف مرفوع ... إن في ذلك لبهجة لذوي البصائر ، ونورا تبصرة لصادقي السرائر .. » .

ثم نراه يفسر اهتمامه بالعلوم من خلال تفسيره للقرآن الكريم بقوله : « إني لما تأملت الأمة الإسلامية ، وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ، وبعض أجلة العلماء ، عن تلك المعاني معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر في خلق هذه العوالم ، وما أودع الله فيها من الغرائب » .

ولعل هذا الموقف كان دافعا للشيخ طنطاوي جوهري حتى يعكف على تأليف تفسيره للقرآن الكريم ، بهذه الطريقة المتميزة عن غيرها ؛ فيقدم تطورات العلم المختلفة ، ويفسر من خلالها آيات الله الحكيمة ويؤكد : أن ذلك هو طريق النهوض للمسلمين والتوحيد الحقيقى بينهم ، ويعلن ذلك بوضوح حيث يقول : « إني أدعو جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1] ، وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي : أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات ، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان ، فإذا أبى المسلمون ما ذكرناه فإني أنذرهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الإفرنج .. وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا عليه .. » .

ثم يدعو علماء المسلمين إلى أن يقفوا بين الناس شارحين لهم : « جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب والمعادن ، وليكثروا من هذا .. » ، ثم

(1) التوبة : 33 .

يقول : أولا يرى علماء المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن هذه العلوم التى تتصل بالكون والحياة غذاء ، وأن علوم الشريعة وهى الأحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ، وهو إذا تناول الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم المطلوب ، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة .. » .

هذا ما يقوله الشيخ طنطاوي جوهري في مقدمة تفسيره للقرآن الكريم ، وهو : تفسير يحث على الاهتمام بالعلم والاكتشاف والمعرفة الواسعة بأسرار هذا الكون ، حتى يحقق المسلمون النهضة والتطور ، ويتخلصوا مما هم فيه من تخلف وفقر وسوء حال ، في وقت تثبت فيه الحضارة الغربية تقدما في كل يوم .

ويشير الأستاذ «رجاء النقاش» في مقاله الضافي إلى ملاحظة مهمة مؤداها أن الشيخ طنطاوي جوهري كان معروفا في البلاد الإسلامية الآسيوية ، وسبب ذلك أن السلطات الاستعمارية كانت تمنع دخول الكتب العربية إلى تلك البلاد باستثناء الكتب الدينية ؛ مما دفع الشيخ طنطاوي جوهري إلى أن يجعل من كتبه المختلفة ، ومن تفسيره للقرآن الكريم على وجه الخصوص موسوعة كاملة ، تضم العلوم العصرية من طبيعية ورياضية واجتماعية ، مع توضيح ذلك كله بالرسوم والخرائط والصور ؛ ولهذا انتشرت كتاباته في هذه البلاد الإسلامية الآسيوية ، وخاصة إندونيسيا . وكان له في هذه البلاد فضل كبير ؛ حيث ساعد على نهضتها ، وفتح أمام أبنائها فرصة التعرف على العلوم الحديثة التي كانوا محرومين منها ومن دراستها أو حتى معرفتها .

وقبل نشر هذا التفسير العظيم ، أصدر الشيخ طنطاوي جوهري مؤلفات عديدة، منها : (ميزان الجواهر في عجائب الكون الباهر) ، و(جواهر العلوم) ، و(نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا) ، و(أين الإنسان) ، و(النظام الإسلامي) ، و(جمال العالم) ، و(نهضة الأمة وحياتها) .

هذا الإنتاج للشيخ طنطاوي ، لو أتيح له من يعيد نشره والاهتمام به كفيل بأن يكون قوة كبيرة في مواجهة الظواهر التي نعاني منها اليوم في مصر ، وبعض أنحاء العالم الإسلامي ، ومنها : التعصب والتطرف والانحراف بالفهم الديني إلى أفكار وآراء لم يدع إليها الإسلام .

إن الشيخ طنطاوي جوهري يرد على ذلك كله في كتاباته ، ويبرهن على خطئه ، ويؤكد بالأدلة الثابتة أن الإسلام هو دين العلم والرحمة والحب والسلام ، وهو دين الدعوة والقوة إلى التفكير والتأمل في أسرار الكون ، والكشف عنها ، والاستفادة الواسعة منها في تحقيق السعادة للإنسان والمجتمع ، ونشر الحب والسلام على الأرض .

إن أي باحث أو دارس أو حتى قارئ، لا يستطيع إذا كان عادلا ومنصفا إلا أن يقول : إن الشيخ طنطاوي جوهري كان واحدا من أعظم العقول التي عرفها الفكر الإسلامي المعاصر ، بل لقد كان واحدا من أعظم العقول الإنسانية في زمانه ، بالإضافة إلى ما اتصفت به نفسه من نبل وصفاء ، وإخلاص وإيمان .. إلى جانب دعوة صادقة إلى التعرف على رسالة الإسلام الحقيقية ، في دعوته إلى مبادئ العدل والسلام .. العلم والمعرفة .. الحرية والديمقراطية .. ولهذا ولغيره من أسباب ، اعتبر الشيخ طنطاوي جوهري من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة .

* * *

الإمـام محمد مصطفى المراغي

عندما حصل الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغى عـلى شـهادة العالـمية عـام 1904 كان الأزهر الشريف يموج بهذه الروح الجديـدة التـى أثارهـا خـارج الأزهـر السيد «جمال الدين الأفغاني» ، والدعوة إلى الإصلاح داخـل الأزهـر ، والتـى حمـل لواءها الشيخ الإمام «محمد عبده» . ولهذا نبتت بذور الإيمان بالإصلاح عنـد الإمـام المراغى. حتى إذا ما ولى مشيخة الأزهر عام 1928 بدأ في وضع الأساس المتين بشكل مقنن. ولعل من أسباب استقالة إمامنا الشيخ المراغى في المـرة الأولى في أواخـر عـام 1929 هذه الرغبة النبيلة في الإصلاح ؛ حيث استقال بسبب تـأخر صـدور المرسـوم الملكي بقانون الأزهر الجديد .

وعندما أعيد اختياره شيخا للأزهر للمـرة الثانيـة عـام 1935 أصر عـلى تنفيـذ سياسته الإصلاحية التى بدت ملامحهـا في كلمـة اسـتقباله الأولى ؛ حيـث اسـتهلها بالقول : «للمسلمين في الأزهر آمال ، ومن الحق أن يتنبه أهله لهـا» ، وبهـذه العقليـة الواعية المتفتحة والفهم الواعى لرسالة رجل الدين ، كـان الـشيخ الإمـام المراغـى . وكانت فترة توليه من الفترات المزدهرة في تاريخ الأزهر والإسلام . فـانظر إلى رأيـه يوم اختلف الجمعان حول موقفنـا مـن الحـرب العالميـة الثانيـة ، فـالبعض يـرى أن نساعد الحلفاء إكراما لخاطر المستعمرة بريطانيا العظمى ، والـبعض الآخـر يـرى أن نساعد ألمانيا نكاية في بريطانيا نفسها ، وهنا يعلن الإمام المراغي من موقفه قائلا :

« هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل » . فكـان موقفـه بمثابـة الحـسم في هـذه القضية وإدراكا لخسارة فادحة تتكبدها مصر في أولادها ، دون أن يقابل ذلـك حـل لقضيتها الوطنية ، وهذا موقف لا يتخذه إلا رجل يجمع بين إيمان رجل الدين وثقافة رجل السياسة .

وموقف آخر للإمام المراغي تبدو فيه مسئوليته كرجل علم . ففي معرض تفسيره لآيات من سورة «الفرقان» في كتابه : (حديث رمضان) نراه يدعو المسلم إلى الاطلاع على العلم الحديث والتفكير في الكون وأسراره عن طريق العقل ، وليس عن طريق النقل ؛ حيث يقول : « لقد جنى بعض العلماء على المسلمين في الماضي جناية بعيدة الأثر في حياتهم ، جناية صرف الناس عن التفكير في الكون وأسراره ، مع أن هذا لا يتفق مع أغراض القرآن ، فضلا عن أن هذه الدراسات دفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ، ومكن لها في الأرض ؛ فاستولت على أمم تفوقها عددا وثروة، واستولت على عروش العز والسلطان ، وأن إهمال هذه الدراسات سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعزة بتاريخها ودينها وثروتها ، وإني أنصح قومي وأهلي بتوجيه الجهود إلى الدراسات العلمية » .

وفي التقريب بين القرآن والعلم الحديث الذي بدأ يغزو العقول والقلوب ، نجد للإمام المراغي موقفا إيجابيا جديرا بمكانته الدينية والعلمية في نفس الوقت . فنقرأ صفحات في مجال تفسير لآيات من سورة لقمان في كتابه : (حديث رمضان) منها هذه الفقرة التي يقول فيها : « قرر القرآن الكريم أن الأرض كانت جزءا من السماوات وانفصلت عنها » ، وقرر أيضا أن الله سبحانه وتعالى «استوى إلى السماء وهي دخان» ، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم الحديث . ولقد قال العلماء : إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سيارا .

ولا يقل موقفه في التيسير على المسلمين عن هذه المواقف الباهرة ، فقد لاحظ وهو رئيس المحكمة الشرعية العليا أن المحاكم الشرعية تلتزم في قضايا الزواج والطلاق بما جاء به القول الراجح من مذهب أبي حنيفة ، مع أن أحكاما أخرى تحقق التيسير بين المتنازعين ، وفي مقدمتها: الأقوال الراجحة «لابن تيمية» و«ابن القيم» .

ولعلنا نتوسع في الكتابة عن السيرة الذاتية للشيخ الإمام مصطفى المراغي خاصة وأن المكتبة العربية وملفات الصحف تخلو تماما من هذه المادة ، وفي ذلك نقرأ كتابا عنه يضم مقالات لعدد من المفكرين قدمه ابنه فضيلة الشيخ « أبو الوفا المراغي»، كما نقرأ لهذا الابن البار بعض ما كتبه عن والده وعلاقته بالأزهر الشريف، وفي ذلك نتبين أوجه الإصلاح التي قام بها المراغي الذي ولد في قرية [المراغة] من مديرية [سوهاج] بمركز جرجا في شهر ربيع الآخر سنة 1298هـ الموافق مارس سنة 1881م . ولما شب وترعرع ، بدأ حياته في التعليم بحفظ القرآن الكريم على النظام السائد في الريف في القرن الماضي ، ولما أكمل استظهاره أخذ يختلف إلى أحد العلماء في مدينة طهطا التي تجاور المراغة ، ولم يلبث طويلا حتى اتجهت نفسه إلى أن يأتي مصر ليدرس في الأزهر ، وكانت طريقة الدرس فيه إذ ذاك هى الطريقة التى ألفها الناس في جميع مدارس الشرق ومساجده ، فليس هناك نظام يقيد الشخص ويحد من حريته في اختيار الأستاذ وتخير الكتاب الذي يناسبه ، وكان بالأزهر بل في مصر عامة آنئذ حركة فكرية عامة ، رفع منارها المرحوم السيد «جمال الدين الأفغاني» وتلميذه المرحوم الشيخ الإمام «محمد عبده» الذي وجه الأفكار إلى طريق جديد للدرس والبحث وحرية التفكير ، ونبه الأذهان إلى أن تصرف عنها ما يحول دون وصولها للحق ، وأن تعمل على البحث للحقيقة ، وللحقيقة فقط غير متأثرة بشيء وراءها ، ونبه الجامدين الجاهلين إلى مواطن الضعف في نفوسهم ، وإلى أن الإسلام الذي يدينون به يعترف للعقل بالسلطان الكامل ويغذيه وينميه .

كان لهذا الجو الذي عايشه المراغي في بداية حياته الدراسية أكبر الأثر في تكوين عقليته الإسلامية الدينية الحرة التى لا تعرف إلا السعي وراء الحقيقة مهما لاقى في سبيلها من عنت ، وصادفه من صعاب . وقد كان في مستهل شبابه يبدي من الرأي ما كان يثير إعجاب زملائه وهم أكبر منه سنا ، وأقدم منه عهدا بمعايشة حياة الأزهر .

وكان كثيرا في الأزهر إذ ذاك : أن يقدم طالب على دراسة فنون الحكمة وفروع الفلسفة ، ولكن المراغي - كما أسلفنا - كان شغوفا بنشدان الحقيقة وتذوق العلوم التي تغذي العقل وتمد من سلطانه على نواحي الحياة ، وإدراك ما بها ، فلم يبال بالخروج على ما ألف الأزهريون من علوم تداولوها خلفا عن سلف طوال العشرة قرون الماضية ، واتفق هو وبعض أصدقائه على أن يتلقوا عن أحد الشيوخ في منزله علوم الحكمة والفلسفة .

وكان أكبر همه إذ ذاك أن يعتمد على نفسه في تحصيل الدرس وتفهم المسائل ، فكان يبدأ الكتاب على أحد أشياخه ثم يتمه مذاكرة مع أحد زملائه .

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده يقرأ في الأزهر دروس البلاغة والتفسير وكان له طابعه الخاص الذي عرف عنه ، والذي تظهر آثاره في أغلب تلاميذه كما تظهر في مؤلفاته التي يصدر فيها عن تفكير حر خالص، وهنا لازم المراغي الأستاذ في دروسه.

وعلى الرغم من هذه المدة القصيرة التى قضاها المراغى في الأزهر على خلاف ما عهد الناس في طلاب الأزهر إذ ذاك ، تقدم في مستهل عام سنة 1904 لشهادة العالمية وكان موضع إعجاب الأساتذة في لجنة الامتحان وتقديرهم .

بهذه الروح القوية التى كان للعوامل التى أسلفناها أكبر الآثار في تكوينها ، بدأ المراغى حياته قاضيا في مدينة [دنقلة] في نوفمبر 1904 والسودان إذ ذاك بلد يخافه ويخشاه كثير من الناس ، ولكن همة العظيم كانت تنير له من الطريق ما يظلم على غيره ، وتلهمه تذليل ما يعسر تذليله ، وتتلقى من الفيض ما يعده لتزعم الجماهير والجماعات في الناحية التى تهيأ لها ، وكان مع هذه السن الناشئة موضع إجلال الوسط الذي عاش فيه ، وتقدير الأهلين .

وظل في هذا المنصب حتى ديسمبر سنة 1906 ؛ حيث عين قاضيا لمديرية الخرطوم وهو أكبر مركز قضائى في السودان بعد وظيفة قاضى القضاة ، وكان مثال القاضي النزيه الحر التفكير ، حتى استحق ثناء رجال القضاء والمتقاضين معا .

وفي سبتمبر سنة 1907 عين المراغي مفتشا بوزارة الأوقاف بمصر ، ولم يلبث طويلا حتى عين في أغسطس سنة 1908 قاضيا لقضاة السودان ، وفي هذا المنصب بدأت مواهب الأستاذ وكفاءته تظهران في جميع النواحي التي كان له يد فيها .

فقد كان له في الناحية القضائية أكبر الفضل في تنظيم القضاء الشرعي من الناحية القانونية والنظامية ، على وجه يسر على الناس كثيرا مما كانوا يلاقونه من عنت ومشاق أمام جمود بعض النصوص ، وتعقيد طرق التقاضي .

وفي الناحية الاجتماعية ، كان المثل الأعلى لكرامة رجل الدين ، والمحافظة عليها بكل جهده ، وكان له في ذلك مواقف يذكرها ، فيشكرها كل من أدرك عصر الأستاذ في السودان ، واستطاع بفضله ، ورقة محضره ، وحسن تصريفه للأمور أن يكون بحق مطمح أنظار المسلمين عامة في الخرطوم ، وأن يكون لهم الأب البار العطوف الذي يحدب على أبنائه ، ويرعى صالحهم وأن يجعل بيئة الموظفين هناك تفيض غبطة وتطفح بشرا .

واستطاع المراغي أن يبرز شخصية الحاكم الشرعي وقاضي القضاة بإزاء شخصية القابضين على زمام الأمر هناك ، وأن يلائم بين رغبات السلطات في أناة ورقة .

وقد طال المقام به في السودان ، ورأى أنه غير قادر على تحمل الأجواء والأهواء هناك ، وغالبه الحنين إلى بلد احتضنه صغيرا ، فمن الخير أن يرعى وده كبيرا ، فنقل إلى مصر في سبتمبر سنة 1919 بوظيفة رئيس للتفتيش الشرعي ، وبالرغم من قصر المدة التي قضاها في هذه الوظيفة ، فقد استطاع أن يعطي عن طريق البحث الهادئ نماذج من الفكر الرصين ، وكان هذا المنصب باعثا على التفكير في إصلاح القضاء الشرعي في شتى نواحيه ، والعمل على وضع الأسس التي يستطاع بها إدراك هذا الغرض الذي وفق إلى شيء منه أثناء توليته رئاسة المحكمة العليا .

وفي يونيو سنة 1920 عين رئيسا لمحكمة مصر الشرعية ، وظل بها حتى يناير سنة 1921 ، ثم عين عضوا بالمحكمة العليا الشرعية ، وبقي بها حتى ديسمبر سنة 1923 ثم عين رئيسا لمحكمة مصر الشرعية العليا ، فرأى أن الوقت قد حان بعد تلك المناصب التي تولاها عقب رجوعه من السودان ، لأن يقوم بالخطوة الواسعة التي يقتضيها إصلاح القضاء الشرعي على ضوء ما رأى في السودان وفي مصر في تلك الفترة القصيرة ، فكان فاتحة العمل البحث في إصلاح الأحوال الشخصية ، بعد ما ضج الناس وبرموا بالحال الذي كان عليها قانون الأحوال الشخصية ، وجمود القضاة الأمر الذي أفسد من ذمم ، وبدل من علاقات ، فاستطاع أن يأخذ من التشريع الإسلامي من غير تقيد بمذهب معين ما رآه يسد الحاجة ، ويفي بالغرض ، وكان بحكم منصبه عضوا في المجلس الأعلى للأوقاف والمجلس الحسبي العالي ، فاستطاع أن ينفخ من روحه في المجلسين ما رأى من فكر ناضج وتقدير للمصلحة في جو من البحث الحر والرأي الهادئ ، ولا يزال رجال القضاء والمحامون يذكرون للأستاذ تلك المبادئ السامية التي كان يقضي بها ، ولا تزال دستورا لمن خلف من بعده في المحكمة كما يذكرون للأستاذ ما كانوا يلقونه من تبسيط لقواعد العمل وتسهيل لحاجات الخصوم ، وقد تقدم وهو في رئاسة المحكمة العليا للحصول على كرسي في هيئة كبار العلماء برسالة موضوعها: «الأولياء والمحجورون» ، فكان لها في الدوائر العلمية الأزهرية والقضائية أجل موضع وأسمى تقدير ؛ لما اشتملت عليه من بحوث لها أكبر القيمة وأجل الخطر .

وفي مايو 1928 عين شيخا للجامع الأزهر ، فكانت توليته مشيخة الأزهر وهو في تجاربه وسنه أكبر أمارة على إذن الله ببدء عهد الإصلاح لهذا المعهد الذي لعبت به أيدي الهوى عهدا طويلا ، وبعد ما خيمت عليه غواشي الجمود حتى ظن الناس أن لا خلاص منها .

بدأ عمله في الأزهر بالبحث عن العلل التي يشكو منها أهل الأزهر ، وعن العوامل التي يمكن أن يؤدي الأزهر بها رسالته، وهو تلك الجامعة التي تشرئب لها الأبصار في جميع أقطار الأرض ليقتبسوا منها نور الثقافة الإسلامية ، فهداه البحث إلى وضع قانون كفيل بحاجة الأزهريين ، وبالقيام بما يسد حاجاتهم ويضمن بالعمل به تأدية الأزهر رسالته على الأوجه الأوفى ، ولكن تلك الشعلة التي أضاءت ما حولها غشى بها كثير ممن لا يستطيعون أن يسايروا روح الإصلاح وجدت عوامل لم تكن في الحسبان ، فآثر الشيخ أن يدع العمل ويترك لمن يتولى الأزهر القيام بما يمكن نحو إصلاح هذا المعهد ، وبقي قرابة ست سنوات بعيدا عن معهد كان يرجو في قربه كل أمل وينشد كل خير .

ولكن روح الإصلاح التي بعثها الشيخ ، وجذوة الأمل التي أوقدها لم تكن لتخبو رغم ما عمل على إطفائها ، فظل الأزهريون يرنون بأبصارهم نحو ذلك المصلح الكبير ، حتى إذا اختمرت العزيمة قاموا بعنف يطلبون رسول الإصلاح لينقذهم وليدفعهم نحو الطريق السوي في الحياة .

عين الشيخ مرة أخرى عميدا لهذه الجامعة التاريخية في أبريل سنة 1935 فتلقاه الأزهر بما يتلقى به صاحب الأمل الذي يمهد له هذا الأمل الحلو ، ونادوا به رمزا للأزهر لا شيخا للأزهر ، واستطاع في مستهل عمله أن يضع قانونا جامعا لما احتواه قانونه السابق وما رآه بعد تجاربه في تلك السنوات الست جامعا لما احتواه قانونه السابق وما رآه بعد تجاربه في تلك السنوات الست ، واستطاع أن يصدره ليجد منه سندا لما ينشده من إصلاح حرص عليه منذ توليه الأزهر في المرة الأولى .

ورأى أن يساهم الأزهريون بنصيب في البعوث التي ترسل إلى الجامعات الغربية ؛ ليستطيع الأزهر بواسطتها أن يلائم بين هذه الثقافة التي ورثها وبين ما جد في الحياة من ثقافات ليؤدي رسالته على الوجه الأكمل ، كجامعة تعد من أقدم منابع العلم في العالم .

وقد رأى الشيخ أن يتصل بأبنائه الطلبة عن طريق الدرس والتأليف ، فبدأ يدرس أكبر كتاب في أصول الفقه ، ووضع كتابا في اللغة ونموها وطرائق رقيها وعوامل انتشارها ، وناقش بعض الآراء التى ورثها الناس كقضايا مقطوع بصحتها، فكان له في هذا الباب فضل التجديد في الإسلام ، وتحديد الآراء فيما شجر بين العلماء من خلاف ، ويعد هذا الكتاب بحق نموذجا للتفكير الحر والإنصاف في أمور تلقاها الناس بالتقديس والإجلال .

وإذا كانت هذه سطور من سيرة هذا الإمام الجليل ، تلك التى كتبها ابنه الشيخ «أبو الوفا المراغى» . فإن الأمر ينبغى أن يستكمل بمادة تدور حول الشيخ المراغى ودوره في الأزهر الشريف ، وهو دور واسع المدى عميق الأثر جاء ليكمل رسالة أستاذه الإمام محمد عبده ، وفي هذا نرجع إلى ما كتبه ابنه الشيخ أبو الوفا المراغى ؛ لنستخلص منه ملامح هذا الدور متضمنا الإشارة إلى هذا الإصلاح الذي قام به والده الإمام المراغى ؛ حيث ولي مشيخة الأزهر مرتين : الأولى قصيرة ومدتها أربعة عشر شهرا ، والثانية طويلة تبلغ نحو عشر سنين، وكانت الفترة الأولى فترة الغراس، والثانية فترة الازدهار والإيراق والإثمار ، أو كانت الفترة الأولى فترة التخطيط ووضع المشروعات ، والثانية فترة التنفيذ .

ولي الشيخ المراغى الأزهر سنة 1928 ، وكان الأزهر قد وصل إلى حالة خطيرة من الضعف ، وخاصة فيما يتعلق بمستقبل خريجيه ، فقد سلبت منهم الوظائف التى كان لهم أن يشغلوها في الدولة ، وسلبت منهم وظائف التدريس في المدارس بعد إنشاء مدرسة دار العلوم ، ثم وظائف القضاء الشرعى بإنشاء مدرسة القضاء . وأخيرا كادت تسلب منهم وظائف الوعظ ، فقد عزمت وزارة الأوقاف على إنشاء مدرسة خاصة به ، كل ذلك جعل الأزهر وخريجيه يبعدون عن أعمال الدولة ، وينطوون على أنفسهم ويحسون إحساسا مريرا بضآلة حظهم بين إخوانهم خريجى المعاهد الأخرى ، وبحرمانهم من المزايا التي يتمتع بها هؤلاء ، واتسعت الهوة بينهم وبين جماهير الأمة نتيجة لذلك حتى أنكرهم بعض الناس، وكان ذلك سببا في انصراف

الناس عن الأزهر ؛ فلم يعد كثير من المواطنين - وقد أخذ عيونهم بريق المستقبل الخلاب بالمدارس - يفكر في أن يسلك أبناءه في الأزهر ، وحاله على ما وصفناه.

وقد وصف الشيخ المراغي هذه الحالة ردا على سؤال لمحرري مجلة (الهلال) في يونية سنة 1929 : ما هو انتقادكم للأزهر بحالته الراهنة ؟ فقال : «كان الأزهر قديما يسد حاجة البلاد ، لأنه لم يكن يعرف في مصر معهد للتعليم يفضله ، وكان علماؤه إلى زمن محمد على مجموعة المتعلمين في القطر ، ولم يكن الناس يقرون بالحركة العلمية في الخارج ، ولا يعتقدون أنه في الإمكان أبدع مما في الأزهر ، ولكن انتشار المدارس النظامية وانتشار المطابع والمجلات وحركة الرقي العام في الأمة ، كل هذه كان من شأنها أن تجعل الناس ينظرون إلى علماء الأزهر نظرهم إلى الشخص الذي لا يكفي حاجة الناس ، وأرادت الحكومة أيام «علي باشا مبارك» أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم فلم تجد كفايتها ؛ لأن طريقة التعليم القديمة لم تكن تلائم حالة النشء؛ ولهذا السبب اضطرت الحكومة إلى إنشاء دار العلوم ، وجاءت بالطلبة من الأزهريين أنفسهم ، ومن هذه المدرسة تخرج معلمو اللغة العربية في المدارس الأميرية ، وأرادت الحكومة أيضا أن تصلح القضاء الشرعي فلم تستطع أن تعول على علماء الأزهر ، فاضطرت إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى ، فهذا الأزهر الذي يختص بدرس الدين واللغة لم تجد الحكومة فيه حاجتها من علماء الدين واللغة ، واحتاجت إلى إنشاء مدرستين خاصتين لهما ، بل لقد أرادت وزارة الأوقاف في العام الماضى إنشاء مدرسة للوعظ والإرشاد ؛ لأنها ظنت أن علماء الأزهر غير قادرين على تأدية هذه المهمة ، وكان لهذه المدرسة مخصصات في ميزانية سنة 1928 فتدخلت أنا ومنعت إنشاءها اعتمادا على أننا نستطيع بإصلاح الأزهر أن نستغني عنها» . ويقول في مذكرته الإصلاحية المشهورة : « ولكن العلماء أخيرا استكانوا إلى الراحة ، وظنوا أنه لا طمع لهم في الاجتهاد ، فأغلقوا أبوابه ، ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد بها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ؛ فجهلوا الحياة وجهلهم الناس

وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما وجد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم فنقموا على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له فأصبح الإسلام بلا حملة » .. وهكذا كانت حالة الأزهر إذ ذاك ، وكان الشيخ المراغي يألم لها ويود إصلاحها لو أمكنته الظروف ، وكان يتصل بالأزهر بأكثر من سبب فهو أحد خريجيه أولا ، يغار تمام الغيرة على معهده ، وأحد رجال الدين ثانيا ، والأزهر حامل لواء الرسالة الإسلامية، ويهم رجل الدين المستنير أن يكون الأزهر نبعا صافيا ومعهدا قادرا على أداء رسالته، ثم هو بعد ذلك متتبع لحركات الأزهر وثوراته في سبيل الإصلاح، عالم بعيوبه . فما ولي الأزهر حتى كتب مذكرته الإصلاحية المشهورة التي تعتبر بحق دستور الإصلاح في الأزهر الحديث ، ووضع قانونا أودعه آراءه وأفكاره وخلاصة تجاربه ، وأهم ما جاء فيه تقسيم القسم العالي بالأزهر إلى كليات ثلاث : كلية أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية . وإنشاء قسم للدراسات العليا يسمى : تخصص المادة ، ثم بعض المواد في كيفية إدارة الأزهر والإشراف عليه ، وهي التي كانت سببا في استقالته سريعا من الأزهر .

كان عهد المراغى الأول في الأزهر قصيرا ، ولكنه كان خطيرا بآثاره ونتائجه ، خطيرا في تاريخ الشيخ في الأزهر ، وخطيرا في تاريخ الأزهر ، وفي نفوس الأزهريين فقد كان لآرائه في المذكرة وفي نفس القانون موقعها من نفوس طلاب الأزهر وقلة من علمائه ، وتحققوا في صاحبه ما كانوا يسمعونه عنه ، فاجتمعت قلوبهم عليه والتفوا حوله حتى إذا قضت الظروف باستقالته تبعته نفوسهم وظلت تهفو إليه قلوبهم ، وظل أملهم المرجى ، وإمامهم المنتظر ، وما تركوا فرصة للتعبير عن تعلقهم به حتى انتهزوها حسبما تسمح الظروف به إذ ذاك ، وكانت ظروفا قاسية في أكثر الأحوال ، ولاقوا عنتا كثيرا وما آذنت تلك الحال بالتحول حتى قام الأزهريون على بكرة أبيهم وفي مظاهر من العنف والشدة ومن ورائهم الأمة جمعاء ، يطالبون

بعودة الشيخ إلى الأزهر ليواصل ما بدأ وينفذ ما صمم ، ولم يجد المسئولون إزاء الإجماع الرائع والتعلق الشديد بدا من النزول على حكمه . فعاد الشيخ إلى الأزهر عودة القائد المظفر والرائد المنتظر ، فاستقرت قلوب الأزهريين واطمأنت نفوسهم وأرادوا التعبير عن ولائهم له والسرور بعودته، فأقاموا لذلك حفلا لتكريمه بأرض المعرض الزراعى بالجزيرة احتشد فيها نحو 15 ألف رجل من جميع الطبقات وسائر الطوائف، وحضره بعض الأمراء ورجال الفكر والسياسة في العالم ، وألقيت فيه خطب ، كما ألقى خطبة من خطبه التاريخية شكر فيها المحتفلين ، وشرح حال المسلمين وما هم في حاجة إليه من وجوه الإصلاح ، وقد صدرت الصحف صباح الحفل تشيد بنظامه وبما ألقى فيه من خطب وقصائد ، وتهنئ الشيخ وتغبطه على مقامه في الأزهر وفي الأمة ، حتى لقد قال بعض رجال الصحافة : لم يشهد العالم لا في أوروبا ولا في مصر حفلا اجتمع له من أسباب الروعة والنجاح ما اجتمع لذلك الحفل .

عاد الشيخ إلى الأزهر مرة ثانية ، وفي تلك المرة يبدأ تاريخ الشيخ في الأزهر كما يبدأ حقبة جديدة في تاريخ الأزهر ، فما من نظام من نظم الإصلاح في الأزهر الآن إلا وهو من عمل الشيخ المراغي ، سواء فيما يتعلق بمستقبل خريجيه أو بعلاقته بالدولة أو الأمة .

ويحسن هنا قبل أن ندخل في تفاصيل العهد الثاني للشيخ ، أن نذكر أن خلفه في المرة الأولى المرحوم الشيخ «الأحمدي الظواهري» اغتنم استقالة الشيخ وما لابسها من ظروف ، فأصدر القانون الذي وضعه الشيخ المراغى بعد أن حذف منه ما كان سببا في استقالة الشيخ المراغى وهى بعض المواد الخاصة بإدارته ونسبه إلى نفسه ، وافتتح كليات الأزهر التى وضع الشيخ المراغى في القانون مشروعها ، وقد نسبها صاحب كتاب : (السياسة والأزهر) إليه خطأ ، ولكن الواقع أن القانون الذي أصدره الشيخ الأحمدي بحذافيره ودعى بقانون سنة 1930 هو قانون الشيخ المراغى الذي وضعه سنة 1928 ، واستقال بسببه من المشيخة للخلاف بينه وبين الملك فؤاد على بعض المواد الخاصة بالإشراف عليه .

بدأ الشيخ المراغي عهده الثاني بإعادة النظر في قانون سنة 1930 وعدل فيه ما أثبتت التجارب وجوب تعديله ثم أخذ في تنفيذه . وكانت الأسباب قد تهيأت لذلك ، وزال من طريقه كثير من العقبات ، وكان للأخطاء التي وقع فيها الشيخ الأحمدي أثر كبير في تحسين العلاقات بين الشيخ وبعض علمائه وخاصة كبار السن منهم الذين كانوا ينظرون إلى الشيخ في عهده الأول نظرة خوف وحذر ، فقد قسا الشيخ الأحمدي في معاملة الأزهريين قسوة شديدة أسخطتهم عليه ، وصرفت عنه من كان يحسن الظن به ، وكان من تصرفاته أنه أصدر قرارا واحدا استغنى به عن اثنين وسبعين مدرسا من مدرسي الأزهر ، وقد دبرت مؤامرات لاغتياله وما أن قارب عهده على الانتهاء حتى كانت قلوب الأزهريين جميعا نارا تلظى بكراهته والسخط عليه، ويتمنون زوال عهده .

وكان الإصلاح في نظر الشيخ المراغي يقوم على ركنين . **الأول** : تخريج العالم الكفء الذي يصلح لتأدية رسالة الأزهر وهي : نشر الدين في مصر وغيرها ، **والثاني**: كفالة المستقبل لخريجي الأزهر ليحتفظوا بكرامتهم ويؤدوا رسالتهم ، وحول هذين الركنين يدور كل ما وضع من إصلاح في قوانينه وميزانيته ، ولتحقيق الركن الأول : فكر في إنشاء الكليات وخصص لكل كلية رسالتها ، ووضع لها منهجها الذي يعد خريجيها إعدادا كاملا لأداء رسالتهم ، فأضاف إلى العلوم التي كانت تدرس في الأزهر علوما رآها ضرورية لإعدادهم ، مما لم يكن يدرس في الأزهر من قبل ، كما أضاف إليها بعض اللغات الأجنبية ، ولتحقيق الركن الثاني بين في القانون حقوق المتخرجين في كل كلية من وظائف الدولة . وكان أخطر ما عمل وأشده دلالة على بعد نظر الشيخ في هذا الصدد أنه وضع في القانون فقرة صغيرة لم يتنبه إلى خطرها أكثر الناس ولم تستبن قيمتها في مستقبل خريجي كليتي : اللغة والشريعة إلا عند تطبيق تلك الفقرة هي «أن خريج كليتي: اللغة والشريعة بالأزهر صالح للتدريس بمدارس الحكومة ، فلما خرجت الكليات خريجيها طالبت بتعيين

بعضهم في مدارس الحكومة ، فثارت ثائرة مدرسة دار العلوم وأنكروا عليه ذلك فقال لهم وللمسئولين : إنني أطلب تنفيذ القانون . فقالوا له : وأين ذلك القانون الذي يعطي الأزهريين ذلك الحق ؟ فأحالهم على تلك الفقرة . وتوترت العلاقة بينه وبين الحكومة إذ ذاك ، وهم بالاستقالة لولا أن تدخلت جهات في الأمر ، وأجيب الشيخ إلى ما طلب ، وعين اثنان من خريجي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فكان ذلك إيذانا بانفراج أزمة الأزهريين في الوظائف وانفتاح باب الخير لمستقبلهم ومشاركتهم إخوانهم خريجي المعاهد الحكومية في وظائف الدولة ، وما زال الأزهريون يذكرون للشيخ ذلك الموقف الخطير في تاريخ إصلاح الأزهر .

ولما اطمأن الشيخ إلى تنفيذ القانون ، وانتظمت الدراسات في الكليات ، أخذ يتابع خطواته الإصلاحية التي وضع أساسها في مذكرته وقانونه . وكان من أولى الخطوات : تفكيره في إرسال بعثات أزهرية إلى أوروبا ، وقد لقيت هذه الفكرة من بعض شيوخ الأزهر معارضة نفسية عنيفة ، ولكنها صامتة . فلقد كان الشيخ إذ ذاك أقوى من أن يقف في طريقه معارض ، خصوصا والأزهريون لم ينسوا بعد كيف عاد الشيخ إلى الأزهر مرة ثانية ؟!

ولقد كان الشيخ يخشى نتائج هذه التجربة على سمعة الأزهر ومستقبله . كان يخشى أن يجرف تيار المدنية الأوروبية مبعوثي الأزهر فيسيروا معها ويتأثروا بها في أفكارهم وأخلاقهم . لذلك ، حرص كل الحرص وتروى ما شاء له التروي في اختيار أعضاء تلك البعثة ، وظل يتشاور مع كبار المسئولين في الأزهر في ترشيحهم ، وظل هو يفحص المرشحين متوخيا في ذلك تقدم السن وحسن الخلق ، ليكون ذلك أبعد عن التأثير عليهم ، وبعد مدة تمت الإجراءات لسفرهم ، وودعهم بنفسه على المحطة بخطبة ألمح فيها إلى الغاية منها وإلى ما يساوره من الحيطة والحذر من نتائجها، وتوزع أعضاء البعثة إلى لندن وباريس وألمانيا ، وعاد بعضهم في حياة الشيخ وولي

بعض الأعمال، ولكن لم يحققوا كل آماله فيهم، وكان يعلن ذلك إلى خاصته في أسف، لذلك لم يهتم بأن يرسل بعثات أخرى كما وعد في خطبته في توديع البعثة الأولى .

ثم أخذ الشيخ يتابع خطواته في إصلاح الأزهر ، فأنشأ «قسم الوعظ والإرشاد» ووضع مشروع مباني المدينة الأزهرية التي تجمع كلياته ومعاهده ومكتبته العامة ومساكن الطلبة ، وقد قام بعضها في حياته وأنشأ «لجنة الفتوى بالأزهر» فأصبحت مثابة للمسلمين من سائر أنحاء العالم الإسلامي في شئونهم الدينية .

ولما استقر به المقام في المرة الثانية وتخفف مما كان يشغله من الشئون الإدارية ، أخذ يقرأ كتاب : (التحرير في الأصول) لطلبة كلية الشريعة بطريقة غير مألوفة في تدريسه فلفت أنظار العلماء إليه ، وأقبل بعضهم على دروسه في تقدير وإعجاب . وقد أحيا في عهد مشيخته الثانية سنة علمية قديمة ، وهي : أن يلقى كبار العلماء دروسا للملوك والأمراء ، فأخذ يلقى على الملك فاروق وكبار رجال الدولة وجمهرة من الشعب دروسا في تفسير القرآن الكريم ، في عصور وأمسيات كل جمعة من رمضان مدة عشر سنوات بأسلوب مبتكر في التفسير أثار إعجاب العالم الإسلامى عامة والعلماء منهم خاصة . وقد طبعت تلك الدروس مسلسلة في مجلة الأزهر سنة 1355 وما بعدها ومستقلة في كتب خاصة . وقد حرص الشيخ على لفت رجال الأزهر إلى الجانب الأخلاقي لرجل الدين . وكان بأفعاله وأقواله قدوة لهم في هذا الشأن ، وله في الاحتفاظ بكرامته مواقف يتناقلها المعاصرون في إعجاب وتقدير . وقد شعر الأزهريون بهذه الروح وتحركت في نفوسهم بواعث العزة والكرامة ، وأحسوا بما كان للشيخ من أثر في مكانتهم الأدبية والاجتماعية .

وهنا حقيقة تاريخية مهمة جديرة بالتنبيه والتنويه ، وهي أن تعيين الشيخ المراغى أولا وثانيا في مشيخة الأزهر ، كان بدافع المصلحة العامة والرغبة من المسئولين في إنهاض الأزهر وإصلاح شئونه ، واستجابة لرغبات الأزهريين في تعيينه

ولم يكن تعيينه لسبب سياسي وبتدخل عناصر أجنبية كانت على صلة بالشيخ وببعض أصدقائه السياسيين ، كما صوره خطأ بعض المؤرخين لغرض شخصي دنيء. ومن طرائف ما عمله الشيخ في عهده الأول أنه استبدل بجرايات الأزهريين - وهي مقادير من الخبز يأخذها العلماء والطلاب - نقودا يأخذونها احتفاظا بكراماتهم وصونا لهم عن هذا الوضع الذليل ، وقد لاقى هذا العمل من أكثر الأزهريين ترحيبا وتأييدا ، فطالما تبرموا من هذا الوضع وودوا لو ينقذهم منه مصلح حتى كان الشيخ المراغي ، ويتصل بهذه الناحية ما عمله من إخراج الخزائن الخشبية من داخل الأزهر، وكانت تلك الخزائن بمثابة مخازن للطلاب يختزنون فيها كتبهم وبعض أمتعتهم الخفيفة من أكل وغيره وكانت مأوى لكثير من الحشرات كما كان منظرها وخصوصا البالية منها يؤذي نظر الأجانب ويعطيهم عن الأزهر فكرة غير لائقة . وقد آلم ذلك بعض الأزهريين ، حتى لقد قال بعضهم على سبيل الفكاهات ، لقد خرجت البركة من الأزهر بخروج هذه الخزائن !

وبعد الإشارة إلى دور الشيخ مصطفى المراغي في إصلاح الأزهر ، ربما يكون من المستحسن أن نسجل بيان هذا الإصلاح كما كتبه هذا الإمام الجليل كوثيقة ؛ نظرا لأهميتها حيث جاءت في صورة خطبة قال فيها :

« أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلهم ، في شعرهم ونثرهم ، ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم ، ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذي تجلونه جميعا ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الإسلامية في مصر وغيرها من البلاد . ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة والتبعية على معان أسمى من غرض التكريم ، دل

على أن الأزهر خرج عن عزلته التى طال أمدها ، ونهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملابساتها ، وعزم على الاتصال بها ، ليفيد ويستفيد ، وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكري الذي نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن في الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها . ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ، ومنذ أربعين سنة ، قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة في داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة . والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات وتعلم لغات أجنبية : شرقية وغربية . ومن الحق أيها السادة علينا أن لا ننسى في هذه المناسبة – والحديث حديث الأزهر والأزهريين – ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ، ومكارم الأخلاق . ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده ، قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملا ، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل، فهو: مشرق النور ، وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التى نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوي إلى ظلها إذا قوي لفح الهجير – والأزهر كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التى يدرس فيها الدين الإسلامى الذي أوجد أممًا من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان له هذا الأثر الضخم في الأرض ، فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية

يعدون مقصرين آثمين ، أمام الله وأمام الناس ، إذا هم تهاونوا في أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته وفهموا روح الاجتماع واستعانوا بمعارف الماضين ، وبمعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين : أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية في البلاد التى لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه ، وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقائمين على التعليم ، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طى مراحل السير في هدوء ونظام ، وجد وصدق نية ، وكمال توجه إلى الله ، وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله ، وللمسلمين في الأزهر آمال ، من الحق أن يتنبه أهله لها.

أولا : تعليم الأمة الإسلامية المتأخرة في المعارف ، وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام ورجاله ، وقد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر في هذه الأيام ، وزاد قاصدوه منها أفرادا وجماعات ، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين ، وهي بيانه ونشره .

ثانيا : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهي مجموعة مرتبط بعضها ببعض ، وتاريخها متصل الحلقات ، وقد حاول العلماء كشفها ، فنقلوا عنها وبذلوا جهودا مضنية ، وعرضوا نتائج بعضها الصحيح ، وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر كما هو الحال في دراسة الأزهر ، فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق في دراسة هذه المجموعة دراسة وافية قديمة وحديثة ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث ، وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضي ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار

الأقدمين ، وأعتقد أن التعليم الأزهري على النحو الذي أشرت إليه هو الذي يرجى لتحقيق هذا الأمل ، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثا : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله وخال مما أدخل وزيد فيه ، ومن الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا : العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ، ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، فنشطت أهلها وخلفت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا في الأصول والفروع . ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ونتج عنه سخف ، مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح : إن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمائم ، وطول اللحى حتى إن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين والسعي لإنشاء مساجد خاصة .

من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير بما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوم الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشا للحق مستعدا لقبوله ، عطوفا على إخوانه في الإنسانية كارها للبغضاء والشحناء بين

المسلمين . قد أتهم بأني تخيلت فخلت ولا أبالي بهذه التهمة في سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر إليها ، وفضل الله واسع ، وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز .

الآن ، وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين في الأزهر ، ترون أيها السادة أن العبء على عاتق الأزهر ليس هين الحمل ؛ فإنه في حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون ، إما بالمال أو بالعقل أو بالمعارف والتجارب ، وكل شيء يبذل في طريق تحقيق هذه الآمال إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة .

أيها السادة : أكرر لكم شكري ، وأبعث من هذا المكان ، وفي هذا الجمع المبارك تحية الأزهر إلى العالم الإسلامي ، وإلى دور العلم ومعاهده .. والسلام عليكم ورحمة الله » .

ولقد اعتبر الشيخ المراغي من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث توفي رحمه الله في 14 رمضان سنة 1364هـ الموافق 22 أغسطس سنة 1945م . ودفن في مقبرة خاصة به بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها .

* * *

الشيخ مصطفى عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق ، كان من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1303هـ وتوفي عام 1367هـ . بدأ تعليمه [بالمنيا] ثم سافر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر وحصل على العالمية عام 1908م، وكما يذكر الدكتور «عثمان أمين» في مقاله عنه بأنه أراد أن يسبر غور ثقافته الإسلامية ، لتواجه الثقافة الغربية محتذيا في ذلك حذو أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده ، فدرس اللغة الفرنسية ، وسافر إلى فرنسا ، والتحق في بادئ الأمر (بالسربون) حيث تابع الاستماع إلى المحاضرات المشهورة التى كان يلقيها عالم الاجتماع الفرنسى «إميل دوركايم» Durkheim حينئذ في علم الاجتماع . ثم عين محاضرا للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة ليون، تلبية لدعوة الأستاذ «لامبير» أستاذ القانون بتلك الجامعة ، ودعى أيضا ليحاضر في الأدب العربي بكلية الآداب بجامعة ليون خلفا للأستاذ «جاستون فييت» .

واستطاع مصطفى عبد الرازق ، إلى جانب عمله بهاتين الكليتين بجامعة ليون ، أن يعد رسالة للدكتوراه في الفلسفة .

وعاد إلى مصر سنة 1915م ، بعد أن نال حظا موفورا من الثقافة الغربية ، فاختير سكرتيرا عاما للأزهر، ثم مفتشا للمحاكم الشرعية، وكان يعمل في الوقت نفسه بمعاونة عدد من المصريين والأجانب ، على إنشاء جامعة الشعب التى كانت تلقى فيها - إبان الحرب العالمية الأولى - محاضرات عامة في الآداب والعلوم والفنون . وفي تلك الجامعة ألقى مصطفى عبد الرازق سلسلة محاضرات عن الأستاذ الإمام محمد عبده.

وحينما أنشئت الجامعة المصرية رسميا سنة 1925م دعته كلية الآداب بها لإلقاء محاضرات في الفلسفة الإسلامية . وكان من حسن حظ الدكتور «عثمان أمين» كما

أشار إلى ذلك قائلا : « أن أستمع إلى هذه المحاضرات القيمة ، وأن أتتلمذ على ذلك الأستاذ الملهم ، وأن أقدر مع عمق تعليمه لنا وتقديري لنبل أخلاقه . واستطاع الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يلفت أنظار الطلاب في تلك الكلية لدراسة الفلسفة الإسلامية التى كانت قد أهملت زمنا طويلا ، وكان أخص ما يميز محاضراته في كلية الآداب تلك الروح العالية التى ألهمتها : روح الروية والتحرر والنزاهة العقلية ، وهى صفات قد اقترنت بالسمات البارزة التي امتازت بها شخصية أستاذنا الأخلاقية ».

كان مصطفى عبد الرازق أول أستاذ للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة ، ففى محاضراته بكلية الآداب ، تلك المحاضرات التى نشرها بعض تلاميذه بعنوان : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» رسم الخطوط الأساسية للفلسفة الإسلامية .

وكان وهو يلقى الضوء على جوانب المشكلات الكبرى، يرد - بهدوئه المألوف - على الذين أنكروا على الفكر الإسلامى أصالته . ولقد أدرك الشيخ مصطفى عبد الرازق ببصيرته النافذة أنه ، وإن يكن المسلمون قد تقبلوا في تصورهم عن العالم عناصر مستمدة من الفكر الإغريقي ، إلا أنهم مع ذلك كان لهم منهج «خاص وثقافة مميزة ذات أصالة» ، وأن الفكر الإسلامي الحقيقي لا يلتمس في علم الكلام وفي أصول الفقه الإسلامى . وإلى جانب تقلده لكرسى الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة كان عضوا في هيئة كبار العلماء ، وعضوا في المجمع المصري ، وعضوا في مجمع اللغة العربية .

وقد تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق وزارة الأوقاف أكثر من مرة ، وكان رئيسا للجنة الأوقاف والمعاهد الدينية بمجلس النواب ، وفي سنة 1945 انتخب رئيسا فخريا للجمعية الفلسفية المصرية .

وكان تعيينه شيخا للأزهر خلفا للشيخ المراغي تتويجا لحياته العلمية الحافلة.

ولعلنا نذكر هذه القصة عندما عين شيخا للأزهر : أن هذا المنصب ومن قبله منصب وزارة الأوقاف تحتمان أن يكون صاحبهما حاصلا على الباشوية ، وبالفعل منح رتبة الباشوية . وهنا كتب رسالة للملك مفادها أنه يعتذر حين يرد هذا اللقب لأن لقب شيخ الأزهر الذي ناله لا يعادله أي لقب آخر ، وبهذا كان أول مصري يعتذر عن قبول الباشوية .

وفي هذا المنصب الرفيع، وهو منصب شيخ الإسلام، كان مصطفى عبد الرازق مجددا واسع الأفق ، عمل بجد وحصانة ، طوال الفترة التى تقلد فيها هذا المنصب رغم قصرها ، فبدأ بإدخال اللغات الأجنبية في الأزهر ، وشجع البعثات العلمية إلى الخارج، فأرسل بعثات أزهرية إلى إنجلترا وفرنسا لدراسة اللغة الإنجليزية والفرنسية، بقصد تدريس هاتين اللغتين في الجامعة الإسلامية ، وأرسل مبشرين مسلمين إلى أوغندا كما أرسل أخيرا بعثة من المدرسين إلى الأقطار الحجازية لدراسة العقيدة الإسلامية هناك .

وهكذا ، أراد مصطفى عبد الرازق - الذي كان من خاصة تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده - أن يحقق مبادئ أستاذه تحقيقا علميا بالتوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، ولقد كافح الشيخ مصطفى كفاحا موصولا لتجديد الجامعة الإسلامية العتيدة التى كانت تضم أكثر من ثلاثين ألف طالب وفدوا إليها من مختلف أقطار الأرض .

لقد كان مصطفى عبد الرازق من خاصة تلاميذ الإمام محمد عبده ، وأقربهم إليه بروحه وعقليته : فقد جمع بين القديم والحديث ، والإسلامي وغير الإسلامي ، والشرقي والغربي ، ثم تمثل كل أولئك في قلبه الكبير وعقله الراجح ، وخرج به إلى الناس في صورة لا عهد لهم بها من قبل : صورة هي من صنع مصطفى عبد الرازق نفسه ، وظل الرجل وفيا لروح أستاذه ، حريصا على تطبيق مبادئه وتعاليمه ، فلم تفته فرصة إلا انتهزها للكتابة في الصحف عن سيرة الإمام وآرائه ووجهته في

الإصلاح ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فألقى عنه سلسلة من المحاضرات في جامعة الشعب ، كما ترجم إلى الفرنسية (رسالة التوحيد) وفوق هذا كله جاهد مصطفى عبد الرازق بقلمه ولسانه وحياته العملية ، لخدمة الدعوة الإصلاحية ، ونشر الحرية الفكرية التي نهض بها الأستاذ الإمام .

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يعتقد أن هنالك شيئا هو فوق العلم وفوق الفن ، وهذا الشيء هو ما يطلق عليه اسم الأخلاق ، وقد كان الفلاسفة الرواقيون يسمونه «فن الحياة» ، وهو أعلى الفنون ؛ لأن موضوعه هو الجمال بمعناه الصحيح ، أي : جمال الروح .

وكان الأستاذ يرى أن الأخلاق ينبغي أن تكون فنا للحياة ، أي أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه وبإزاء الله والناس ، بمعنى أن يكون للإنسان في حياته موقف مقرر وخطة مرسومة ، حتى لا تتجاذبه الأهواء والانفعالات ، فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة كان حكيما . وآية الحكمة هي ما يلازم سلوك الإنسان من ثبات واستقرار، ولكن هذا الثبات- فيما يرى الشيخ مصطفى عبد الرازق- يجب أن يكون في فعل الخير، وليس الخير هو ما يطلبه الجمهور عادة من اللذات أو المال أو الصيت، إنما الخير الذي هو عنده جمال الروح ، هو الحب والسماحة والجود .

ويقول إن هنالك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الإنساني ، وثبتت على أحداث التاريخ ، وهي فلسفة كرام النفوس ، أولئك الذين عاشوا للعالم كله لا لأنفسهم ، وظلوا على وفاق مع قانون المحبة والسخاء . وكان أول من مارسها أنبياء الشرق ، ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء، من سقراط إلى أفلاطون وأرسطو ، ومن أرسطو إلى الرواقيين وأفلوطين ، ومن أفلوطين إلى الفارابي وديكارت، ومن ديكارت إلى كانط وغاندي . وكأن أولئك جميعا كانوا سلالة عظيمة واحدة أنجبت أقطاب الفلسفة الروحية على مدى العصور ، وجميعهم قد

استطاعوا أن يستشفوا جوهر الدين ، وأوغل بعضهم فيه ، فهداهم نظرهم إلى فلسفة عاشوا عليها ، وهذه الفلسفة تتلخص كلها في حالة نفسية يصح أن نطلق عليها الاسم الجميل الذي اختاره ديكارت ، اسم «الأريحية» ، وتلك حال النفوس التي تعطي ولا تأخذ وتسعى إلى إسعاد الغير مهما كابدت من عناء .

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول أيضا : إننا جزء من كل ، وإن واجب الجزء أن يعمل من أجل الكل ، والكل الذي ننتمى إليه هو الإنسانية ، فكان الأستاذ يود أن يتجه نظام التربية إلى تقوية هذا الشعور ، شعور المحبة والتعاطف والتعاون بين أفراد الإنسانية ، وكان يرى أن علاج أمراضنا الاجتماعية يقوم على إصلاح أخلاقي يبث بين الطبقات انسجاما ، ويوجه النفوس إلى الخير المركوز فيها ، وإلى تقوية أواصر الرحمة ، وتزكية عواطف الأريحية ، وتخليص القلوب من أدران الحقد ومن رق الأنانية ، وكان يقول : يجب أن يقوم بناء المجتمع على السماحة والسلام ، أي على الشعور بأننا جميعا أسرة واحدة متآزرة ، أصلها واحد ومصيرها واحد .

فمذهب الأستاذ في الحياة الفاضلة مذهب لا يرمى إلى التشدد والتضييق والحرمان ، بل يدعو إلى السماحة والأريحية والإيثار ، وتلك أخلاق الإسلام ، وفيها أقوى تعبير عن روح البطولة التى تقوم على مجاهدة النفس وصونها من الانحدار في تيار الشر والأنانية . ومصدر هذه الأخلاق مصدر «جواني» ، هو الوحى الأول ، وحى القلب وذلك هو منبع النور الذي يضيء للنفوس الكبار على الخصوص ، ويضيء لكل إنسان يجيء إلى هذه الدنيا . فكان الأستاذ يرى أن المهمة الكبرى للفلسفة هي إزالة كل ما يحاول أن يطفئ هذا النور أو يحجب ضياءه وسناه .

وإذا .. فتجديد الشيخ مصطفى عبد الرازق هو في جوهره تجديد أخلاقي ، يرعى الفن الذي هو أرفع الفنون ، الفن الذي يصور الروح . ولقد لخصه هو نفسه في كلمة أستاذه محمد عبده : « إن الحب في عالم الإنسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فهو الذي يمسك المجتمع ويصونه من البوار » .

فإذا استلهمت النفس البشرية هذه الفلسفة الأخلاقية عرفت أنها لم تولد لتفنى بعد حياة قصيرة على هذه الأرض ، ولكنها «هبطت إلينا من المحل الأرفع» كما عبر ابن سينا ، وجاءت إلى اللامتناهي ، فهي لا تقنع بما دونه مثوى ومآبا ، إنها قبس من نور الله ، فإلى الله مرجعها في دار الخلود .

إن نغمة هذه الفلسفة نغمة عميقة هادئة ، رقيقة ، إنها نغمة قد تخطت حدود المكان والزمان ، واتسقت مع النغمة الكونية الكبرى التي هي نغمة سخاء وصفاء، وهل هناك أسخى من أن يمارس شيخنا الجليل فلسفته تلك وأن يعيش عليها ؟! وهل هناك أصفى من أن يعلم الناس بسيرته ، ومثاله أن المحرك الطبيعي للإنسان إنما هو الأريحية والإحسان ؟!

بعد أن عرفنا شيئا عن فلسفة مصطفى عبد الرازق، قد نتساءل : إلى أي مدى كان الشيخ مصطفى عبد الرازق قادرا في حياته على أن يترسم هذا المثل الأعلى النبيل؟ كانت سريرته جديرة بفلسفته ، فضلا عن أن نظراته الجمالية ، وإنسانيته وتواضعه قد ساهم في تكوين صورة لرجل أفعم قلبه رحمة ونورا .

يتفق المفكرون المنصفون سواء الشرقيون منهم أو الغربيون على أن مصطفى عبد الرازق كان فيلسوفا على الحقيقة ، أو بالأحرى «حكيما» ، فإن حياته كلها كانت مفعمة بنوازع الخير ونبالة العواطف وبالتسامح والتواضع وضبط النفس .

وقد توسم الشيخ الإمام محمد عبده هذه الصفات الجميلة في مصطفى عبد الرازق الشاب ، فكتب له رسالة يسأل الله فيها أن يديم إخلاصه في القصد وحبه للحق ، وأن يشد من أزره لدعوة قومه إلى سبيل الخير والعمل النافع . وقد وضع الشيخ مصطفى عبد الرازق قلمه وصوته وحياته العاملة في خدمة القيم الروحية ومناصرة الحرية الفكرية في العالم الإسلامي ، متمما بذلك الحركة التي تولى قيادتها الإمام محمد عبده . ومن دلائل وفاء مصطفى عبد الرازق لأستاذه : أنه أيقظ فينا – في تلاميذه في

الجامعة المصرية - الرغبة في التعرف على مذهب الأستاذ الإمام ، وبعث فيهم الشعلة التي تسلمها هو نفسه من أستاذه .

وقد كانت رحمة الأستاذ وسماحته صفتين واضحتين في موقفه من أعدائه - وما كانوا في الحقيقة إلا حاسدين - فلم يكن يفكر قط في إيذائهم وإن دسوا له أو تقولوا عليه ؛ ذلك لأن ما انطوت عليه نفسه من مشاعر نبيلة وأفكار سامية لم تدع لناظريه أن يقعا إلا على ما هو حق وخير وجميل ، فحقق بذلك القول المأثور : الجمال في أعين الناظرين .

ومن الإنصاف أن نشير إلى جانب من حياة مصطفى عبد الرازق غير مألوف عند شيوخ المسلمين بصفة عامة ، والشيوخ الأزهريين بصفة خاصة : ذلك هو الجانب الجمالي في نظرته إلى العالم . وليس عجيبا أن يهمل كتاب السير هذا الجانب من جوانب حياة الشيخ ، لأن آخر مناصبه الدينية العالية كان منصب شيخ الجامع الأزهر ، وقد جرت أحكام العوام على أن تضع حواجز بين الدين والحياة ، وسولت لها الأوهام أن تتخيل تعارضا بين الفن والإسلام . وقد أوضح الشيخ الإمام خطأ هذا الزعم ، مبينا أنه ناشئ عن انحراف في فهم طبيعة كل من الفن والدين .

وقد كان للشيخ مصطفى عبد الرازق روح «جمالية بينة» ، فهو بالرغم من تحفظه وحيطته الطبيعية كان دائما شغوفا بتوسيع خبرته في الحياة ، عاملا على تنمية تفسيره الجمالي لها . وكان تفسيره ، خلافا للكثيرين ممن كانت لهم مثل تجاربه، بعيدا عن نوازع الاستهتار ، لأن ما في طبعه من رقة ولطافة ، وفهم وتعاطف ، قد جعله يرى الجمال الذي لا تكشفه عيون المستهترين . وقد عبر مصطفى عبد الرازق عن تجاربه تعبيرا شائقا ، ففي بعض رسائله الأولى غير المنشورة وصف باريس وصفا تحدث فيه عن الرسم والموسيقى والنحت والرقص والحدائق الغناء التي تمتزج فيها الابتسامات بالدموع ، وهذه الرسائل وحدها كافية لتخليد المفكر الأديب الفنان أكثر مما خلدته محاضراته الجامعية عن الفلسفة والفقه وعلم الكلام .

وتظهرنا لنا سيرة الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه كان متحررا من الزهو والبهرج الكاذب ، فحين عاد من أوروبا بادر إلى ارتداء زيه الأزهري ، ولم يشأ ، حتى حين عين وزيرا للأوقاف ، أن يتخلى عن زيه التقليدي ، فكان في الحقيقة أول وزير معمم عرفته مصر في القرن العشرين !

آثر الشيخ أن يحافظ على طريقة معيشته الإسلامية ، وأبى أن يحتفل مع المحتفلين بمظاهر المدنية الأوروبية والثقافة الغربية ، وليس معنى هذا : أنه أراد أن ينبذ كل ما جاء عن الغرب : فالواقع أن الشيخ قد تمثل أفضل ما في ثقافة الغرب وعاداته خيرا مما تمثلها المتفرنجون الذين يتظاهرون بعلمهم للغرب . وهذا يكشف لنا عن حكمته العميقة وإيمانه بأن المكاسب الحقيقية للروح لا تحتاج إلى أن تدق لها الطبول ، ولأنها مكاسب جوانية ، فقيمتها تنبع من ذاتها .

وقد تجلت حكمته وروحه نفسها في صلواته أيضا ، إذ كان يؤثر أن يقيمها سرا، كما كان شأن أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده ، حتى تكون خالصة لله لا يداخلها رياء أو تظاهر بالتقوى .

وقد كان مصطفى عبد الرازق « صاحب نظرية فلسفية » ، هي نظرية التوفيق بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب ، وقد أعد لها إعدادا قبل أن يعد مثله رجل آخر ، واستطاع أن يحسن أداءها بحكمته وذوقه وتسامحه .

ولقد ذكر «الفارابي» في بعض كتبه : أن الذي يشرع في النظر الفلسفي «ينبغي أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية ، وهي أن يكون جيد الفهم والتصور ، ثم أن يكون محبا بالطبع للصدق وأهله والعدل وأهله ، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه ، وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب ، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وما جانس ذلك ، وأن يكون كبير النفس عما يشين عند الناس ،

وأن يكون ورعا ، سهل الانقياد للخير والعدل ، عسر الانقياد للشر والجور ، وأن يكون قوي العزيمة على الصواب ، وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التي نشأ عليها ، متمسكا بالأفعال الفاضلة التي في ملته ، غير مخل بكلها أو بمعظمها » .

وما نظننا مسرفين حين نلاحظ أن هذه الصفات النادرة التي جعلها «المعلم الثاني» صفات للفيلسوف الكامل ، قد تحققت في أجلى صورها عند الشيخ مصطفى عبد الرازق . وإذا كان محمد عبده قد استحق أن يكرمه تلاميذه ومريدوه فوصفوه بصفة «الشيخ الإمام» فقد استحق مصطفى عبد الرازق من جميع من عرفوه أن يلقبوه باللقب الذي ارتضاه الفارابي وهو «الفيلسوف الكامل» .

وكما يقول الدكتور «عثمان أمين» : ستترك فلسفة مصطفى عبد الرازق آثارا مختلفة جدا ، وذلك شأن كل فلسفة تتجه إلى العقل كما تخاطب الشعور ، وتناصر العلم كما تقدس الدين . وقد تبدو صورة هذه الفلسفة غير واضحة المعالم أحيانا ، ولكنها فلسفة قد صيغت من عبير الحياة ونسماتها ، وهذه النسمات تأتي من فوق ، واتجاهاتها بين صريح يحسه أصحاب القلوب » .

صحيح أن هذه الفلسفة قد تلقت بعض نفحاتها من التصوف الإسلامى ومن خطرات الأفغاني ومحمد عبده على الخصوص ، ولكن يبدو مع ذلك أن الروح المبثوثة فيها روح جديدة ، ومن يدري ؟ فلعل المستقبل يقول إن المثل الأعلى الذي كان ينشده الشيخ مصطفى عبد الرازق في حياته قد سبق المثل الواهنة بأشواط بعيدة .

ولهذا ولغيره .. يعتبر الشيخ مصطفى عبد الرازق من المجددين في القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

محمد كرد علي

عالمنا الجليل محمد كرد علي ، سوري شامي بحكم المولد عام 1293هـ والوفاة عام 1372هـ ، ولكنه عربي عالمي بحكم الفكر والأثر التاريخي ، فقد تجاوزت كتاباته - سواء في العقيدة والدين ، أو الأحرى في العلوم والآداب - حدود مسقط رأسه في سوريا .. إلى غيرها من البلاد العربية الشقيقة والإسلامية بوجه عام ، وإليه ينتسب إنشاء أول جريدة ظهرت في دمشق في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . واستمر يوالي الكتابة فيها حتى هاجر إلى مصر عام 1901م .. ليصدر (مجلة المقتبس) عام 1906م في دمشق ، ويضيف إلى مجلة المقتبس ، صحيفة يومية باسمها تغطي أخبار الشام .

لكن لا يطيب العيش طويلا لهذا العالم الجليل في سوريا ، فيهاجر مرة ثانية إلى مصر هربا من اضطهاد الأتراك ، هؤلاء الذين كانت سوريا خاضعة لهم ، ولا يعود إلى بلاده إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهزيمة تركيا وتقلص نفوذها على البلاد العربية ومن بينها سوريا ، فيلقى من موطنه قبولا حسنا .. حيث يتولى وزارة المعارف مرتين وينتخب مدى حياته رئيسا للمجمع العلمي العربي هناك، وعندما ينشأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة يصبح من بين أعضائه المؤسسين ؛ تقديرا لجهوده في مجالات الفكر والعلم وقبلهما العقيدة والدين .

ولمفكرنا العالم الجليل محمد كرد علي الذي يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري - الكثير من الكتابات في العقيدة والدين.. لكن أكثر هذه الكتابات خلودا ما تركه في مجلدين كبيرين تحت عنوان : (الإسلام والحضارة العربية) فيهما استطاع أن يفند هذه الأباطيل التي وجهت إلى الإسلام حيث يقول في تقدمته لهذا العمل

المبكر الكبير : « إن فئة تمثلت أساليب هذا العصر في البحث والتحليل ، ولم تتحرر إلى اليوم من سلطان العوامل الشعوبية والدينية والسياسية لمؤاخذة كل المؤاخذة بأحكامها الجائرة على الإسلام والمسلمين ، ولا يحول الإعجاب بأساليب أولئك الباحثين دون مناقشتهم في آراء لهم غير سديدة ، قال بها من قالوا ذهابا مع أهواء النفس الكثيرة ... » .

وعلى امتداد صفحات المجلدين ، يدير مناقشة بارعة .. مع هؤلاء الشعوبيين المتعصبين حول بعض القضايا ، مثلا ها هو يناقشهم في مسألة « صدق رسول الله في دعوته » فلا يكتفي بما لديه من أدلة وبراهين إسلامية ، وإنما يجيء لهم بحجج وبراهين مفكرين وفي مقدمتهم : «توماس كارليل» و«تولستوي» و«وليم موير» و«منتييه» و«فاليري» وغيرهم ممن دللوا على عظمة الرسول الكريم وصدق دعوته عن طريق العقل والمنطق .

وفي دفاعه المجيد عن القرآن الكريم ، نراه يعجب لاشتداد نغمة التعصب والشعوبية ضد هذا الكتاب ، فيقولون وهم الأعاجم الذين يصعب عليهم فهم آياته . وما لا يقوله إلا مجنون أو مخبول . ورغم هذا نرى هذا المفكر يرد عليهم بكل ما أوتي من علم وحلم ، مستشهدا بأقوال من أبناء جنسياتهم حتى يقتنعوا .

وإذا ما انتقلنا بين صفحات «الإسلام والحضارة العربية» تطالعنا قضية طال حولها الجدل وهي قضية : « القضاء والقدر كعقيدة إسلامية » فيستخدم معهم نفس المنهج ، بل ويرى أن الاعتقاد بالقضاء والقدر في الأصل مذهب من مذاهب الغربيين ، وهو أشد ظهورا في كتبهم منه في كتب الإسلام ، ويصحب ذلك بعشرات الأدلة .

وبنفس هذا المنهج الدقيق والفهم الواعي ، والثقافة الواسعة يناقش مسائل أخرى تتعلق بتعدد الزوجات ، والطلاق ، والحجاب ، والاسترقاق ، والمسكرات ،

وغيرها . فيدحض عن الإسلام الكثير من الأباطيل ، كما يرد على الكثير من الأفكار المسمومة التي روج لها هؤلاء المتعصبون ووجدت من الاستعمار خير سند لها ، لضرب الإسلام في معقله ، وهي الأمة العربية .

يرى في كتابه هذا الذي صدر في نهاية الربع الأول من هذا القرن : أن السبيل إلى الرد هو التصحيح بمعنى تصحيح هفوات من أساءوا ، وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ، مذكرا إياهم بما قدمته الحضارة الإسلامية للغرب في العصور الوسطى ، وهو ما قامت عليه حضارة الغرب الحديثة .

ما أحوج الدين الإسلامي اليوم إلى أمثال هذا المفكر المجدد : محمد كرد على كي يرد على افتراءات الغرب التي تتهم أبناء الإسلام بشتى التهم ، وتعتبر البعض منهم إرهابيين بعد أحداث 11 سبتمبر عام 2001 تلك التى قد لا يكون للمسلمين أي علاقة بها . خاصة إذا صدقت الأقوال التي ترى أن هذا العمل الإجرامي ضد الأبرياء قد قام به اليهود الذين يحرضون الولايات المتحدة مدعين أن أبناء الدين الإسلامي هم الذين قاموا بتفجير برجى التجارة العالمى؛ حتى لا تتعاطف الولايات المتحدة مع هؤلاء المسلمين ، ومنهم العرب أصحاب النزاع المستمر مع إسرائيل : الطفل المدلل للولايات المتحدة الأمريكية .

ما أحوج هذه الفترة التي أعقبت أحداث سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية إلى مجدد في طول قامة محمد كرد علي .

* * *

عبد العـزيز آل ســعود

عاهل المملكة العربية السعودية : الراحل وموحدها ومؤسسها عبد العزيـز آل سعود ، يعتبره المؤرخون والعلماء ضمن مجددي القرن الرابع عشر الهجـري ، حيـث ولد عام 1297هـ (1880م) وتوفي عام 1373هـ (1953م) عـن عمـر ينـاهز الثلاثـة والسبعين عاما قضاها في عمل وجهاد مستمر حتى تتحول السعودية من مجرد قبائل بدوية منتشرة في الصحراء إلى دولة عصرية موحدة، على النحو الذي نراه عليه اليوم، وطبيعي أن تكون لذلك خطوات بدأت مع ميلاد وصـبا وشـباب وشـيخوخة هـذا العاهل الراحل .

لقد عاش «عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود» فترة صباه في [الرياض] تحت رعاية والده «الإمام عبد الرحمن» الذي تعهده بالتربية والتعليم والتدريب عـلى أعمال الفروسية وغيرها من المهارات التي استفادها مـن مخالطـة أهـل البادية ، وفي هذه الفترة- الصبا- عاصر الأحداث التي أدت إلى استيلاء ابن رشيد على [الرياض] مما اضطر والده إلى الخروج مع أهلـه وأولاده إلى الكويـت والإمـارات المجـاورة في الخليج، منتظرا الفرصة التي تجعله يعيد ملك آبائه وأجداده الذي بدأ من عام 1179هـ (1726م) على يد الإمام «محمد بن سعود» بموجب اتفاق تم بينه وبين الشيخ «محمـد ابن عبد الوهاب» ولذلك عاش فتانا عبد العزيز في هجرتـه عـن وطنـه مـع أسرتـه بموارد مادية قليلة ، عودته على حياة التقشف ، مما عمل على صقل شخصيته مبكرا ، فنشأ شابا جلدا قويا على مواجهة الصعوبات والتحديات عـلى الـشدائد والخطـوب مهما قست وتعاظمت . حتى إذا بلغ الثانية والعشرين من عمره أي في عام 1319هـ (1902م) خرج على رأس حملة بلغ عددها أربعين رجلا من أقاربه وأعوانه ، لينـضم

إليهم من المؤيدين عشرون رجلا آخرون عازما على استعادة الرياض معتمدا على الله، ثم على التأييد الذي يكنه الشعب لوالده الإمام عبد الرحمن.

وطبيعي أن يخطط لهذا الأمر ويعد له العدة ، ويحسب له ألف حساب نظرا لقلة أعوانه ، ولعل هذا العمل من عبد العزيز آل سعود يحسب له في ميزان حسناته وإنجازاته المبكرة ، وكان ضمن هذه الخطط والحيل التى مؤداها أن يقوم بإعداد كمين «لعجلان» حاكم الرياض وقتئذ من قبل ابن رشيد، قريبا من باب الحصن الذي كان يستقر فيه ، وبمجرد دخول عجلان هذا الحصن قام عبد العزيز ومن معه بقتله ، فاستسلم الحصن ومن فيه ، وليستولي عبد العزيز ومن معه على الحصن وما يتبعه من مبان وقصور ، ونادى المنادي معلنا مقتل الحاكم عجلان ، واستلام عبد العزيز مقاليد الحكم بدلا منه . معلنا في الوقت نفسه الأمن والأمان لأنصار ابن رشيد إذا التزموا الهدوء - وتلك من أخلاق الإسلام التى اتبعها عبد العزيز : «العفو عند المقدرة» وعم الخير في أنحاء الرياض بعد أن عادت إلى آل سعود ، وأخذ سكانها يتبادلون التهاني ، ويباركون عهد محررها عبد العزيز آل سعود .

ولم يكد عبد العزيز يحصن الرياض حتى مد سلطانه إلى مدينة [الخرج] ، ثم توغل إلى [وادي الدواسر] ووطد سلطانه عليه حتى وصل [الربع الخالي] ، وهنا تنازل له والده الإمام عبد الرحمن عن الإمارة في حضور العلماء وشيوخ القبائل ليصبح أميرا على هذه الأجزاء التى حررها ، أعقب ذلك ضم منطقة الإحساء إلى حكمه . ولم ينقض عام 1925م حتى كان عبد العزيز قد ضم إليه الحجاز ، ليشمل نفوذه غالبية الجزيرة العربية ، وتتوحد البلاد تحت اسم «المملكة العربية السعودية» عام 1932م ويكون ملكها عبد العزيز آل سعود وذلك بعد أن استتب الأمن ، وانتشر العدل ، في ظل نظام موحد على أساس مبادئ إسلامية شاملة .

وهكذا ، يبدأ الملك عبد العزيز في تنفيذ برامجه الإصلاحية للنهوض بالدولة الفتية تحت راية الإسلام ومبادئه وقيمه ، فوضع برنامج عمل اجتماعي واقتصادي

أطلق عليه نظام «الهجر» يهدف إلى تحويل مجتمع البادية إلى مجتمع مستقر ينعم بالأمن والأمان ، وقد اختار لكل هجرة موقعا مجاورا للمياه ، ودفع رجال القبائل إلى استبدال خيامهم المصنوعة من وبر الإبل وجلد الدواب ، إلى بيوت من الطين ، لتقيهم حرارة الصيف اللافح ، وبرودة الشتاء القارص ، وهذه واحدة من بدايات إصلاحاته ، يعقبها تعليم هؤلاء البدو على أساليب الزراعة موفرا لهم المياه والبذور وهذه ثانية ، كما عين لكل جماعة من البدو رجلا ملما بأصول الدين والشريعة الإسلامية لضمان الحفاظ على صفاء العقيدة الإسلامية والالتزام بما تفرضه ، ويعتبر ذلك من أهم إصلاحاته الجوهرية : أن يقرن الالتزام بالعمل بالتمسك بمبادئ الإسلام، حتى ينشأ المواطن قويا في عمله وعقيدته . هذا وغيره من الأعمال العديدة التي يذكرها التاريخ لهذا العاهل السعودي الراحل ، تلك التي أعطت البلاد دفعة قوية للسير إلى الأمام في دروب الحضارة والتقدم ، حيث أسس نواة المدارس الحديثة في كل واحدة من «الهجر» التي أنشأها وأحل السيارة محل الجمل ، واستحدث شبكة للاتصالات ، ونقب عن المياه في قلب الصحراء وخزن المزيد منها ليدفعه إلى بقية المناطق المتعطشة، والأهم: أن الملك عبد العزيز هو الذي عقد اتفاق منح الامتيازات للتنقيب عن البترول الذي كان منطلقا لكافة الإنجازات الاقتصادية التي حققتها المملكة العربية السعودية في العصر الحديث . ولا يمكن الاستهانة بهذا الإنجاز الذي تعيش من خيره اليوم السعودية ، لا يمكن التقليل من الجهد الذي بذله هذا العاهل حتى يضمن لبلاده الخير والرخاء في ظل عالم حديث، دوله العظمى لا تفكر إلا في الاستيلاء على موارد الشعوب العربية والإسلامية ، أقول : لا يمكن الاستهانة بهذا الجهد الذي بذله الملك عبد العزيز في التعاون بينه والدول الأجنبية : أمريكية كانت أو أوروبية لاستخراج هذه الثروة الهائلة من باطن الأرض مع الحفاظ عليها وحمايتها من أطماع هؤلاء الأجانب ، كما لا يمكن الاستهانة بكيفية إقناع أبناء المملكة العربية السعودية من البدو بالتعاون مع هؤلاء الأجانب المرفوضين مسبقا

من المواطن السعودي المحافظ على أمر دينه الإسلامي بما يفرض من تعاليم ربما تحدد نوع التعامل مع الأجانب خاصة في المناطق المقدسة ، إلا أن الملك عبد العزيز استطاع بحكمته وذكائه الفطري أن يقضي على هذا الأمر مجانبا كلا من [مكة والمدينة المنورة] ، مؤكدا أن العلاقة بين السعودية وبين الأجانب هي في مصلحة الوطن ، وهذه واحدة من مآثر هذا الرجل المتفتح التفكير الذي لو أغلق عقله تماما وسار على عادات وتقاليد أهل البدو ، ما كان قد حقق شيئا ، ولما أصبحت السعودية من أغنى بلاد العالم .

إن الذي يرى السعودية اليوم كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عن الملك عبد العزيز وعنوانه : (مع عاهل الجزيرة العربية) ، وما وصلت إليه من تقدم وتطور شمل كل مرافقها لابد أن يتذكر مؤسسها عبد العزيز آل سعود ، حيث لم تظهر هذه الدولة الحديثة إلا في أوائل القرن العشرين الميلادي ، حينما أراد هذا الرجل الذي واجه العديد من التحديات والثورات والتي منها ثورتا بدو مطير ، وبني عتيبة وهما من الإخوان المسلمين التابعين للوهابيين الذين اعتمد عليهم في توطيد أركان مملكته إلا أنهم تمردوا عليه وفكروا في الغدر به .. ومن هنا - كما يذكر العقاد - يحق لذلك العاهل الذكر حين تذكر السعودية وما وصلت إليه من تقدم...» .

والعقاد بموضوعيته حين يترجم لهذا العاهل بصفحات تغطي كتابا بأكمله ، فإنه يرى فيه جوانب امتاز بها عن غيره من الحكام ، وهي التي يرجع إليها نجاحه في تأسيس دولة ، وولادة حضارة ، وسط الصحراء . صنع هذا حيث لم تكن تعوزه الحنكة السياسية التي لا تقل عن الخبرة القتالية ، فكما استطاع أن يجمع شتات هذه المملكة بالسيف ، استطاع أيضا أن يقنع العالم من حوله بالقول الحكيم ، فهو في الوقت الذي كان ينتقل من معركة إلى معركة ، ويضرب على أيدي الخارجين على القانون ويقمع نهب قوافل الحج، في ذلك الوقت كان يسعى إلى منح إحدى الشركات الأمريكية

امتيازا للتنقيب عن البترول واستخراجه ، ومع احتفاظه بالحياد في الحرب العالمية الثانية ، كانت ميوله إلى جانب دول الحلفاء ، وتلك ولا شك نظرة منه بعيدة وحكمة ، إلى آخر ما سجله الأستاذ العقاد من مآثر ومناقب لهذا العاهل في كتاب بأكمله .

ويذكر الأستاذ « عبد المتعال الصعيدي » تعليقا على إنجازاته : أن الملك عبد العزيز جرى حكمه في كل ذلك على أصول الشورى التى أتى بها الإسلام وإن لم يكن له مجلس نيابي مؤلف على النظام الحديث ، وله حكم قاطع دون كل حكم شخصى ، ولعل ما أخذ به نفسه من سيرة في الإصلاح بالتؤدة والتأني ، ومن مراعاة استعداد الشعب لما يريد من الإصلاح ، هو الذي منعه من التعجيل بتأليف مثل ذلك المجلس ، ولكنه استعاض عنه بأخذ الشورى من أهل الشورى والعدل في الحكم ، وإيثاره المصالح العامة على المصالح الخاصة ، لأنه لم يراع فيه مصلحة لنفسه ولا لقرابته أو حاشيته ، بل كان يميل إلى استرضاء الشعب واكتساب مودته بالعمل على مصالحه ، وكان كل ما يتعلق بشخصه لا يهتم به ، حتى إن علماء الرياض لما اعترضوا على قراره بإقامة احتفال سنوي بعيد جلوسه على عرش المملكة العربية السعودية ، مثلما يفعل غيره من الملوك والرؤساء ، ذكر له هؤلاء العلماء أن هذا مخالف للسنة ، هنا خضع لرأيهم ؛ حيث يتعلق هذا الرأي بشخصه لا بالمصلحة العامة ، ولكن كل هذا - كما يرى الأستاذ الصعيدي - لا يغني عن المجلس النيابي ، وقد تم إنشاء هذا المجلس على أيدي خلفائه من أولاده .

وقد يقال : إن الوضع في المملكة العربية السعودية لا يجري على التملق للحاكم والخضوع له ، والشعور بانحطاط المنزلة عنه ، كما يجري في غيرها من الأمم والشعوب . لأن الفريق الأكبر فيها ولا سيما البدو لا يعرفون الألقاب الشائعة عند غيرهم ، فهم شعبيون تلقائيون بفطرتهم ، يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم المجردة ويخاطبون ملوكهم وأمراءهم بأسمائهم ، إن أصغر البدو كان يخاطب الملك عبد العزيز بقوله : يا عبد العزيز ، أو يا أبا تركي ، أو يا طويل العمر ، ولم يكن الملك

عبد العزيز يهتم أو يعبأ بلقب الملك أو غيره من الألقاب الملكية ، بل يعتز بهذه الطريقة من أبناء وطنه .

وقد يقال : إن الناس جميعا في هذه المملكة سواء فيما عدا التفاضل في الأنساب والإمارة ، فهم يكادون يتساوون في جميع ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، لأنهم جميعا سواء في نظر الشريعة الإسلامية التى يجري الحكم على نصوصها فلا تفضل هناك لشريف أو لسيد أو لحاكم على غيره، بل كلهم سواء في أحكام الشريعة، وإذا تعدى أمير على رجل من الرعية ، أنصفه الحاكم الشرعي منه ، ورد إليه حقه الذي تعدى عليه .

وقد يقال : إنه إذا كان الملك عبد العزيز لم يؤلف مجلسا نيابيا ، فإنه يكفيه عنه أنه عاش بين قوم هذا شأنهم ، إذ كان كل واحد منهم له أن يبدي رأيه في حكومته ، وأن يفرض عليه رأيه فيها بالحق ، وقد عودهم على هذا مدة حكمه الطويل ، فلا حاجة بعد إلى مجلس نيابي لاكتمال الحياة السياسية !

قد يقال هذا كله ، ولكنه لا يغنى عن تأليف مجلس نيابي على النظام الحديث ، يقضى على فوضى الجاهلية وعادات نظام القبيلة فيها ، تلك قد لا تستقيم مع النظم السياسية الحديثة ، وقد تم ذلك كما قلنا منذ قليل .

والحق .. أن الملك عبد العزيز لم تند عن ذاكرته كل هذه الأمور ، إلا أنه كان لا يقوم بكل الإنجازات دفعة واحدة . ولهذا ، فإن كان هذا المجلس النيابي لم يتحقق في عهده ، فقد تحقق على أيدي أولاده بعد ذلك .

ولهذا ولغيره من مبررات ، يعتبر الملك عبد العزيز آل سعود واحدا من المجددين في الإسلام ؛ نظرا لأعماله وإنجازاته وإصلاحاته التى حولت صحراء وقبائل الجزيرة العربية إلى مملكة موحدة متماسكة وفق النظم السياسية الحديثة ، يتحقق في ظلها التقدم والتطور ، الأمن والأمان .

* * *

محمد فريد وجدي

محمد فريد وجدي الذي عاش في الفترة من 1294م إلى 1374م ، يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ، وقد اقترن اسمه بعملين جليلين هما : العمل الأول هو : « دائرة معارف القرن العشرين » التي تقع في عشرين مجلدا ، انتفع بها إلى اليوم عديد من الأجيال في كل الأقطار العربية والإسلامية، حيث تم نشرها في العديد من الطبعات المتتالية . وأما العمل الثاني فهو : « تفسير القرآن الكريم » الذي استفاد منه القارئ المعاصر حيث كان في متناول يده وبأسلوب راق مبسط ، هذا إلى جانب العديد من الأعمال ذات القيمة العلمية والثقافية منها : « الوجديات الشهرية » ، وصحيفة الدستور اليومية ، ومجلة «نور الإسلام» التي كان يصدرها الأزهر والتي سميت فيما بعد بمجلة الأزهر وغيرها من الأعمال التي تعلن عن ثقافة صاحبها الموسوعية ، واتجاهاته العلمية والإعلامية ، وكتاباته الضافية التي كان يرد بها على مفكري الغرب وفلاسفته المنكرين لدور الإسلام الحضاري .

هذا المجدد كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية ، ولم يكن في ذلك كغيره من طلاب الجاه والسلطان والمال من وراء إيمانه بهذه الجامعة ودعوته إليها ، بل كان يخسر في سبيل ذلك الكثير وهو في أحرج أوقات الحاجة، ومن ذلك على سبيل المثال: رفضه الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار الدستور لسان حال هذا الحزب في سياسته الرامية إلى تعزيز الدولة العثمانية ، في مقابل : كفالة هذا الحزب بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها . وسبب رفضه كان؛ لأن هذا الحزب التركى كان يشترط أن ترفع من صدر الصحيفة عبارة «لسان حال الجامعة الإسلامية» التى كانت تقاومها تركيا في ذلك الوقت ، ولم تمض شهور حتى كان هذا المجدد يبيع كتبه بثمن لا يضارع

إلا ثمن وزنها من الورق حتى يفي برواتب الموظفين والعمال بالصحيفة ، ومفضلا التشبث بدعوته إلى الجامعة الإسلامية عن هذه المساعدة التركية المشروطة.

وفي مجلة (نور الإسلام) التي تحول عنوانها إلى مجلة الأزهر نشر مئات المقالات التي لو جمعت لكونت العديد من المجلدات التي تتناول أدق وأخطر المشكلات الدينية والاجتماعية ، وترد على أعتى التيارات الإلحادية الإقليمية والعالمية ، وتحلل العديد من المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامي مستعينا في ذلك بالعلم الحديث؛ ليثبت أن الدين فطري ، وأن الشرك نكسة طارئة ، كان زوالها محتما لدى الذين يقدرون الكرامة الإنسانية .

وقد نقل عن أئمة العلم الحديث خاصة الاجتماعي في أوروبا ، ما يدل على أن البشرية كانت موحدة في نشأتها الأولى ، إذ إنها عبدت الله وحده مهتدية بفطرتها الخالصة إلى الصواب حتى طرأ الزلل الذي أدى إلى الشرك ، كما تابع آثار الانحطاط الإنساني لدى الهمجيين من الوثنيين في بلاد مختلفة ، سواء في الغرب أو في الشرق .

والآن ، هل نحن في حاجة إلى تبيان للمنهج الفكري لهذا المجدد ؟ هذا المنهج الذي توسل به في مواجهة التغريب ، والذي يتفرع إلى عدة نقاط منها على سبيل المثال لا الحصر :

* إن مهمة الإسلام الكبرى في الأرض هي : أن يضع للناس كافة دستورا دينيا قوامه العقل ، وركنه العلم ، يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم ، بحيث لا يصدمون في تمشيهم - نحو الحقيقة - بعقبة تقف بهم دون مواصلة السير إلى الغاية القصوى ، فلا يجد العلم في مدرجهم إليها من الإسلام مانعا يعمل على دكه كما دك كل الموانع التي حالت دونها من الأديان السابقة .

* إن الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة عن الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية . فجاء الإسلام بدستور لا يدع هذه النزعة الجبارة من العلم

ولا الهمة الثائرة من ممثليه أن تنال من قدسيته مثالا ، راميا بذلك إلى غاية نص عليها في كتابه غير مرة ، وهي أن يكون دين البشرية في عهدها الأخير . وهو بطبيعته قد شرع ليكون دينا يسع جميع التطورات البشرية الممكنة ، فهو لذلك قد أتى بدستور ديني جمع هذه الأمور حتى لا يصطدم به في دور من أدوارها .

* إنه لا يوجد دين من الأديان ولا نظام اجتماعى من النظم المعروفة قديما أو حديثا يبلغ شأن الإسلام في رفع شأن العلم والتنويه بقيمته والدعوة إليه والتعويل عليه. والإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح يتعلق بعقائدها تحتاج كذلك إلى علم تستصلح به معيشتها وتبني عليه اجتماعها .

* إن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية (الإنسانية) فانية انحلت في نظره جميع الروابط الأخلاقية والقيود المعنوية ، ونال الوازع له من الإسفاف في المطالب الدينية ، فتحلل من جميع الالتزامات المادية ، فانتشار المذهب المادي يؤدي إلى توقف الترقي المادي والروحي .

* لقد دل الإسلام على مناعة صلبة في جميع أدوار حياته ، فاحتك بالأديان التى سبقته وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل في البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال بعد أن خرج فائزا ومنتصرا على جميع ما صادفه من الخصومات .. تلك التى ستكلل بانتصار جديد على المذهب المادي الذي حاول أتباعه اليوم في بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوي إليها .

* لما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير ، فإن الضرورات تدفع العقل البشري لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع في مجال النظر ، وبين الأصول الثابتة التي يدين بها باعتبار أنها منزلة .

كل ما في صميم الإنسانية من قوى وما يحيط بها من عوامل خارجة وما هو مدفوع إليها من الغايات البعيدة يدل على أن الإنسان خلق ليكون متدينا ذا عقيدة ؛

لينعم بها حيال الكوارث التى تصيبه في حياته الدنيوية القصيرة الآن . لذلك ، لا يوجد الإنسان حيث يكون إلا متدينا ، ولا يزال في عصر الشكوك متدينون .

* إن الإسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ، ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف ، بل ترك السلطة كلها للأمة تهبها للرجل الذي تراه صالحا لحكومتها وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها وأن تعطي لحكومتها الشكل الذي تجده أصلح لجمع كلمتها ، وهذا الوضع هو أرقى ما وصل إليه البشر في أمر السلطة الاجتماعية ، شأن الإسلام في كل الشئون الإنسانية . وعليه .. فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين : الروحية والدنيوية ، وقد أوتوا أصولا مراعى فيها المزج بين هاتين السلطتين تفاديا من تنازعهما بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى . وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ولا يخشى عليهم أن ينتحلوا شيئا من ذلك .

* إن المدنية الإسلامية هي الشكل الوحيد من الكمال البشري الذي يتقرب منه البشر يوما بعد يوم .

* إن الذي ضمن للإسلام الخلود أمران : « الفطرة الإنسانية ، وسلطان العقل الكامل » .

* إن الإسلام وهو دين الله العام لا يضيق عن مرمى ولا يخرج دون حال ، وأولى بنا أن نجمع إلينا إخواننا الذين صبغتهم الروح الأوروبية بصبغتها من أن ندعهم تطوح بهم اللوائح المدنية إلى حيث ينقلبون عليها ، إن الإسلام دين الله العام جاء لكل عصر بما يناسبه ، وفيه لكل عقل مسرح ولكل فؤاد مرتع .

* الانحراف عن سنة النظر والتأمل في الكون ، إلى سنة الفلسفة والكلام والاعتماد على العلوم الجدلية هو في الحقيقة انحراف عن الإسلام الخالص إلى غيره ، وما فرق الملل إلا اعتمادها على عقولها وإيثارها لأفكارها .

* إن الإنسان في ضوء النظر العقلي والعلمي سيسقط آثار الوراثات القديمة والتعصب المذموم ، ومن ثم تتاح الفرصة للنظر الصريح ومن هنا تستطيع العقيدة الإسلامية أن تجد مجالها إلى دعوة الإنسانية كلها .

* إن الإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة ، ولكن هناك فارق كبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد ، قابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها .

إلى آخر هذه النقاط التي من مجموعها يتكون ما يعرف بمنهج هذا المجدد في الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه ومهاجميه .

* * *

أحـــمد أمـــين

المفكر الراحل أحمد أمين ، من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1374هـ، وبرزت قيمته العلمية كمفكر بين أفراد جيله من الرواد الأفذاذ الذين تصدوا لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي في أنه أوتي قدرة كبيرة على أن يحلل بعقله العقلية الإسلامية في نشوئها وتطورها وارتقائها ، بشكل يجعلنا أمام صرح شامخ من الأفكار .

فالقارئ الذي يطالع أحمد أمين في كتاباته الإسلامية المختلفة ، يتراءى له أسلوب «مفكر» بكل ما تعني هذه الكلمة من معان ودلالات ، فهو إذا عنت له فكرة، نلمح بين سطوره كيف يكون مقدار رسم هذه الفكرة في ذهنه ، وكيف يمكن تحويلها إلى خطة محكمة ، ثم كيف يعد حساباته . وإذا انتهى من هذه الفكرة ، فإنه يمد حواسه إلى فكرة جديدة تكملها ، فنراه وقد حشد خاطره . واستعان بكل ما يعرف من علم وفكر . وهكذا يصنع أحمد أمين في بناء مجموع أفكاره ، حتى نراه في النهاية وقد أحاط موضوعه بكل ما يكفل له البقاء والرسوخ ، فإذا نحن أمام بنيان شامخ من الأفكار يعلو ويرتفع ليكون حصنا للقرائح والعقول .

ولابد أن يكون أحمد أمين قد استعان من قبل بقواعد استخدام العقل في الحكم والنظر إلى الأشياء ، أو بمعنى آخر أسلوب العقل حين يتصدى لدراسة موضوع من الموضوعات ، فنراه يستخدم قواعد الحساب المنطقي من تحليل واستدلال ، حتى يستخلص ما يريد أن يستخلص من النتائج ، وهو ما نعرفه بالمنهج العلمي في تناول الأشياء .

ولعلنا نلمح ظلالا أو تأكيدا لما نقوله وندركه ، حول تناول أحمد أمين لمادة «الحياة العقلية في القرون الأولى للإسلام» من عبارة وردت في تقدمته للأجزاء الثلاثة من كتابه : (ضحى الإسلام) .. نجده يقول بالحرف الواحد : «لعل أصعب ما يواجه الباحث في تاريخ أمة ، هو تاريخ عقلها في نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلي .

أما الفكرة ، فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل في إيجادها ، وما العناصر التي غذتها ، وما الطوارئ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، لأعياك ذلك ، وبلغ منك في استخراجه الجهد ، لأن الفكرة أول أمرها لا مظهر لها تستدل به عليها ، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال ، وتعمل في تغييرها وتعديلها عوامل في منتهى الغموض . والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ما ظهر من تعاليمها ، قد يكون هذا الباعث سياسيا ، وهي في مظهرها الخارجي مجردة من كل سياسة ، وقد يكون الباعث لها إفساد الدين فتتشكل بشكل المتحمس للدين ، وقد يكون المذهب صالحا كل الصلاح ، ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهونه ويلغون فيه فيفسدونه ، فيقف الباحث حائرا ضالا يتطلب بصيصا أو أثرا في الطريق يسلكه من قبله فيحتذيه » .

ويستطرد أحمد أمين في إحصاء هذه الصعوبات التي يقابلها العقل عند دراسة الجوانب العقلية لأمة من الأمم ، فيضيف إلى ما سبق : و«فوق هذا ، فالأفكار متنوعة ، والآراء متعددة ، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها ، ويراها الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط ، ولم تتصل به أية صلة ، فيعمل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب ، وما قد يصل بينهما من سبب » .

وهو ما أكده الدكتور طه حسين في تقديمه للطبعة الأولى لكتاب (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين ، حيث قال : « أخذ زميلنا الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلا ليس بأقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء في معمله . نعم أخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع إلى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف إلى أي حد امتزجت هذه العناصر كالعنصر الجاهلى ؟ وما مقدار العنصر الفارسى ؟ وما مقدار العنصر اليهودي ؟ وما مقدار العنصر اليوناني؟ وما طبيعة هذه العناصر المختلفة التى كونت كل واحد منها؟ ثم بعد هذا كله : ما المزاج العربي الذي خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر في الآداب العربية كما نراه في شعر الشعراء، وخطب الخطباء، وعلوم العلماء، وأمثال الناس في أحاديثهم العامة والخاصة ؟ » .

وهذا التحليل الذي نشير إليه ، وينبه إليه من قبل مؤرخ الحياة العقلية في الإسلام الأستاذ أحمد أمين ، ومقدمة الدكتور طه حسين .. اقتضى من الأستاذ أحمد أمين الرجوع إلى العوامل المستمدة من الإسلام ، والعناصر الدخيلة على المسلمين ، من الحضارات المجاورة كالفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة واحدة هي الحضارة الإسلامية .

أساس الفكرة إذا عند أحمد أمين هى أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيرا قويا في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته ، ذلك هو الإسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند إلى أقصى الغرب في الأندلس ، فإذا شئنا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية لتبين لنا الأسس التي قامت عليها ، والعوامل التي أدت إلى قيامها .

وأحمد أمين حيث تتيسر لديه المادة الإسلامية ، فإنه يلتزم في بحثها بثلاثة أبواب كان يفصلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية ، وهذه الأبواب هي : الناحية الاجتماعية ، ثم الناحية العلمية ، وأخيرا الناحية الدينية .

والقارئ لكل كتابات أحمد أمين الإسلامية لا يضنيه البحث في التعرف على هذه الجوانب الثلاثة ، فهي بادية واضحة في كل جزء من أجزاء كتبه الإسلامية . فإذا شئنا أن نعرف العقلية الإسلامية - على طريقة أحمد أمين - فلابد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي نمت فيها وترعرعت .

وبمعنى آخر فإن العقلية الإسلامية في نظر أحمد أمين أشبه ما تكون بالنهر الجاري المتدفق : الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته ، ونجد تطبيق هذا المنهج بوضوح في (فجر الإسلام) ، ومفصلة في (ضحى الإسلام) ، وأكثر تفصيلا في (ظهر الإسلام) .

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين جوانب الحياة العقلية في الإسلام من جميع أنحائها ، ويفتح للباحث أبوابها على مصراعيها كي يغدو ويروح إلى كنوزها ، التي كانت تتوارى عن الأنظار ، والتي كانت تمتنع عليها امتناعا .

وبالطبع ، كل ذلك بفضل ملكات أحمد أمين العقلية التي ائتلفت منها شخصيته العلمية بخصالها الفذة ، وأولى هذه الخصال : تعمقه وفهمه للثقافة القديمة والحديثة ، تعمقا وفهما أتاح له كلما درس فكرة أتقنها فهما وفقها ونقدا دقيقا، وكأنه لا يريد أن يترك فيها بقية.

وخصلة ثانية هي : خصلة التعميم والتنظيم ، فقد كانت للأستاذ أحمد أمين قدرة غريبة على استخلاص الأفكار الكلية التي تجمع الجزء إلى الجزء ، وتضم العناصر عنصرا إلى آخر ، فإذا الكل يستوي قائما ، وإذا الفكرة تتمثل واضحة ، وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات إلى الكليات ، ولا يزال يلائم بين ما يصل إليه من الكليات في الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل ، ولا يزال يلائم بين الفصول حتى يتكون لها باب ، ولا يزال يلائم بين الأبواب حتى يتكون له كتاب . ومن ثم

يبدو التناسق واضحا فيما يؤلفه، إذ يحسن تصنيف الأفكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيبا دقيقا بحيث يعمها الاستواء والتناسق ، فلا نشاز ولا اضطراب ولا طغيان لفصل على فصل ولا لفكرة على فكرة مع الوضوح التام ، ومع ضرب من المنطق الحاد الذي يشفع بالقدرة على التعليل ، وهي قدرة بدأها أحمد أمين حيث كان ضمن هيئة القضاء الشرعي ، ونماها في الجامعة على ضوء ثقافته الحديثة .

وخصلة ثالثة هي : خصلة الحرية العقلية ، فالأستاذ أحمد أمين يجهر بالحق في صراحة ، وبدون مواربة، وبدون أي تكلف يجهر به في كل ما يمس الحياة دينا ودنيا . ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة، فقد كان ينصرهم دائما ويشيد بهم، ولكن ذلك لم يستر عنه معايبهم ، فمضى يشرحها شرحا واسعا ، شرح العالم المستبصر ، بل شرح العالم الحر الفكر ، الذي لا يحفل إلا بالحق وحده فهو يعيش له ويعيش به ، ويعلنه إعلانا صريحا لا غموض فيه ولا خفاء . وكذلك كان شأنه مع الشيعة ، فقد أجهد نفسه في تصوير عقيدتهم بكتابه (فجر الإسلام) وراحوا يعلنون عليه حربا شعواء . ولكن هذه الحرب لم تصرفه عن آرائه القديمة ، حيث أصدر كتابه الجديد «ضحى الإسلام» ، بل لقد مضى يثبتها ويكتب معها نقدا جريئا، إذ اعتقد أنه حينما يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم .

وثمة خصلة رابعة تتصل بهذه الخصلة ، هي : عدالته في الحكم على الأشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة ، وهي عدالة اكتسبها نظريا في مدرسة القضاء الشرعي وفي أثناء درسه للأخلاق ، وعمليا حين اشتغل قاضيا ، وتولى الحكم في القضايا الشخصية ، ونحن لا نقرؤه في (ضحى الإسلام) وفي غيره من مصنفاته ، حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يمينا ولا شمالا بتأثير هوى أو عصبية ، وهي موازين شديدة الحساسية ، تزن كل رأي مهما دق وكل فكرة مهما صغرت ، وهي لذلك أيضا تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد ، فأحكامه ونقده

جميعا لا يشوبها ضعف أو عوج أو ص ، بل هو دائم التحري والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال إلى أقصى حدود الاعتدال .

وخصلة خامسة في الأستاذ أحمد أمين ، يمكن أن تضم إلى الخصال السابقة ، هي : الطموح إلى تحقيق المثال الأعلى في البحث والدراسة ، وهي خصلة دفعته دفعا إلى كفاح علمي عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقه وبمناهج القدماء والمحدثين جميعا ، ثم مضى ينفق أيامه في دراسة الحياة العقلية الإسلامية ، باذلا كل ما يملك من قوة وجهد ، متذرعا بكل ما يستطيع من صبر وجلد ، محتملا من ضروب المشقات ما تنوء به العصبة أولو القوة ، إذ كان الطريق العلمي إلى تلك الحياة مليئا بالعقبات والصعاب ، فما زال يقهر كل صعوبة حتى استقام له الطريق ممهدا واضح المعالم .

والحق ، أن الكثيرين من نقاد أحمد أمين ومؤرخي فكره يرون في كتاباته الإسلامية أسلوبا جديدا في التاريخ الإسلامي ، تعلم عليه واستفاد منه أكثر الباحثين والدارسين ، فقد أمدنا بفيض غزير ومنهج دقيق وعلم وفير . وتعد كتبه : (فجر الإسلام) ، و(ضحى الإسلام) ، و(ظهر الإسلام) ، من أعظم المؤلفات العلمية المنهجية في تناول الحياة العقلية وعرضها وبسطها في أسلوب علمي دقيق سهل ، ولا نعدو الحقيقة إذا أعددناها في مقدمة المراجع الحديثة التي يحتاج إليها الباحثون في هذا الميدان الواسع العريض ، ويكفي أن نعود إلى ما كتبه الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق، والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور برجشتراسر ، والدكتور جفري عن (فجر الإسلام) عقب ظهوره . فندرك قيمة ما التزم به أحمد أمين في دراسته ومنهجه، ومقدار ما اضطلع به من جهد جهيد، وما قدمه للدارس العربي ، من مصادر للبحث ومراجع عربية وغير عربية بما يتفق مع ما حققته الأمة

العـربية من تطورات في مجتمعهـا وثقافتهـا ، وما كان يتطلع إليه جمهـور المثقفـين في الجامعة المصرية التي قادت هذه النهضة وفتحت لها أوسع طـريق .

وبهذه الروح العلمية التي أشاد بها الكثيرون ، كتب أحمد أمين كتبه في الإسلام، وهي : (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) في ثلاثـة أجـزاء ، و(ظهـر الإسـلام) في أربعة أجزاء و(يوم الإسلام)، و(الفتوة والصعلكة في الإسلام). و(هارون الرشيد)؛ لتصبح المصادر الأساسية التي لا يستطيع أي باحث الاستغناء عنها .

* * *

عبد الحميد العبادي

رائد التاريخ الإسلامي ، خاصة في جانبه السياسي والاجتماعي : عبد الحميد العبادي يعتبر واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري فقد ولد عام 1310هـ وتوفي عام 1375هـ ، ذلك لأنه يعتبر من بين الأصوات الصادقة التي ارتفعت عبر تاريخنا معلنة عبقرية التاريخ الإسلامي ، مؤكدا في كل ما قاله أو كتبه أن هناك حضارة حقيقية للإسلام ، لها مقوماتها ودعائمها ، من حقنا كورثة لهذه الحضارة أن نعرف عنها الكثير . والسؤال الآن : لكن كيف كون العبادي مدرسة تاريخية قويمة التقاليد عنيت بالتاريخ الإسلامي ؟ أو بمعنى آخر ما هو المنهج الذي اتبعه في تناول المادة الإسلامية ؟

إن ملامح هذا المنهج الخاص بالعبادي تبدو من رأي تلميذه الدكتور «جمال الدين الشيال» ، حيث يقول : « لقد كان التاريخ الإسلامى قبله (أي قبل العبادي) رواية تروى أو قصيدة تحكى ، أو نكتة تقال ، أو بيتا من الشعر ينشد ، وكان العبادي أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم ، فجعله فكرا يمحص ، كما جعله تحليلا ، ونقدا ، ومقارنة ، ودراسة دقيقة على أسس ومذاهب علمية ثابتة . فإذا كان في مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامى حق فهمه ، ومن يجيد بحثه ودراسته ، فإن الفضل الأكبر في هذا إنما يرجع إلى العبادي وطريقته وجهوده » .

وهذا التاريخ الإسلامي الذي أسس له العبادي مدرسة ينبغي أن تتصل دراسته بالأدب والشريعة ، وبموجات الحياة العربية والإسلامية ، وبواعث هذه الموجات من عقيدة ورأي وأدب ، وهذه الإمكانات جميعها متوافرة لدى العبادي - كما رأينا منذ قليل من غرامه للكتب وللشعر واللغة ، ومن استكمال ثقافته بدراسة

القانون وحصوله على ليسانس الحقوق ، مما يجعل من اليسير أن يكون لهذا الرجل الموهوب - كما وصفه تلميذه الدكتور « محمد عبد الهادي شعيرة » بأنه « أستاذ موهوب جمع بين الأدب والتاريخ في آن واحد - أسلوب متميز ، وله من الأدب جمال الصورة وروعة الأسلوب ، وله من التاريخ منهجه العلمي الدقيق ، يسنده دائما ويدعمه فيما يرسم من صور التاريخ أساسا تاريخيا عتيدا ، مبنيا على قراءات واسعة مستفيضة وافرة الحظ من الإجادة والإتقان ، أعانه عليها ذوقه الأدبي الممتاز ، فهو يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويتمثله حيا ، ويزيد عباراته جمالا ، لكنه لا يتركه يثقل من سرده التاريخي القوي البناء ، ثم هو حريص على تجنب التفاصيل التي قد تشوه الصور التاريخية أحيانا وتذهب برونقها ووضوحها » .

ولهذا المنهج أو الأسلوب الذي استحدثه العبادي يتفق عليه تلاميذه ، وأغلبهم من أساتذة التاريخ وعلمائه ، على أنه صاحب مدرسة جديدة في التاريخ الإسلامى خرجت به عن طريقته القديمة في الرد والجمع ، كما تجاوزت به ذلك التقدم البراق الذي عرض له في القرن التاسع عشر على يد الكتاب الغربيين وبعض المؤرخين الشرقيين ، والذي لم يكد يغير إلا من مظهره فحسب ، بما أدخل عليه من تنظيم الوقائع ، وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض في أسلوب أخاذ ، وإن كان عاطلا في كثير من الأحيان عن التعمق وفهم النصوص .

فللأستاذ العبادي طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته القوية ، في أنه يجمع إلى قوة النقد وطرافة الاستنباط ، فطرة سليمة تجعله يسعى إلى فهم كل شيء ، وقدرة ممتازة على فهم النصوص ، وإدراك أساليب اللغة وفهم دقيق لمعانيها .

وبالجملة ، فقد اكتملت للعبادي - كما يتفق تلاميذه - العدة والوسيلة ؛ فعالج التاريخ الإسلامى على نحو خرج به عن نطاق السطحية والسرد ، والأساليب الخطابية الجوفاء ، إلى مدرسة منهجية ، والتعمق في سبر غور الحوادث والوصول إلى أصولها ، واستنباط نتائجها مع تصوير يعين على فهمها وتمثلها .

وبهذا المنهج القائم على الدقة والتثبت ، والتعمق والاستنباط ، قدم عبد الحميد العبادي إنتاجا فكريا محترما ، هذا الإنتاج - كما عرفنا - إما مباشر ملموس وهو ما نجده في كتبه ، وهذه الكتب إما مؤلفة ، أو مترجمة ، أو محققة ، وفي مقدمتها : كتب (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) الذي ظهر في جزأين ، الأول (الجمل والمجمل في تاريخ الأندلس) ، وهو في الأصل محاضرات كان يلقيها بجامعة عين شمس ، حيث قام عدد من تلاميذه بجمعها وإعدادها للنشر وراجعها ابن شقيقة الدكتور مختار العبادي ، والثاني : (الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها) ، وهو كتاب يشترك في تأليفه مع اثنين من تلاميذه ، هما : الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور إبراهيم أحمد العدوي . وقد وضح الدكتور زيادة في مقدمة الكتاب أستاذية العبادي لجيله ، وكتاب (علم التاريخ) لهرنشو ، الذي ترجمه وأضاف إليه فصلا عن التاريخ عند العرب ، وكتاب (الأندلس وتاريخها) تأليف «ليفي بروفنسال» ، ترجمة تلميذه الدكتور «محمد عبد الهادي شعيرة» ومراجعته ، وكتاب (الحضارة الإسلامية) «لجروبناوم» ، وترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد ومراجعته ، وكتاب (العنصرية في الإسلام) الذي ألفه في أعوام حياته الأخيرة ، كما حقق (أنساب العرب) للبلاذري ، و(نقد النثر) لابن قدامة .. وغيرها من الكتب والدراسات والأبحاث .

لكن إنتاجه الفكري الأكبر هو ذلك الإنتاج غير المباشر ، والذي تركه في نفوس تلاميذه ومدرسته التاريخية من بعده . فمثلا .. حين نتتبع فكرته الإسلامية في كتاب : (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) يستوقفنا فصل عن علاقة مصر بالعالم ، نجده يقول : « لم تكن مصر في نظر العرب - عندما أقدموا على فتحها سنة 18 هجرية مع غيرها - من الأقطار التى فتحوها في نهضتهم العظمى ، بل كان لها في أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام. ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر - في مواضع عدة - ذكرا كريما .. تارة بالتصريح

وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك : قول القرآن الكريم مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾[1] ، وقوله مخبرا عن يوسف (عليه السلام) : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[5] .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وتراثها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة، ومن ذلك ما يروى من أن النبي - ﷺ - قال : « **إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما** »[6] ، وفسروا [رحما] بأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وأنها ولدت لإبراهيم ولده إسماعيل الذي هو من أصل عرب الحجاز، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها إبراهيم الخليل ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى (عليه السلام) ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) .

(1) الزخرف : 51 .
(2) يوسف : 99 .
(3) يونس : 93 .
(4) الدخان : 25 - 28 .
(5) يونس : 88 .
(6) أخرجه الحاكم .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجرا لهم تحمل إليهم منها فيما يحمل من الثياب المعروفة بالقباطي : جمع قبطية ، وقد ورد ذكرها في الشعر القديم .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التى ذكرنا كانت تجول بخاطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر ، فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعاينوا نيلها العجيب وتربتها الخصبة وخيراتها الوافرة وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافي الفريد ، ووداعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ، كل ذلك جعلهم يرون أنه قد صدق الخبر ، فانطلقت ألسنتهم تشيد بمصر وخيرات مصر ونيل مصر وعجائب مصر وجعلوها (جنة الدنيا وكنانة الله في أرضه) ، وقالوا : « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تحفز زروعها وتنور ثمارها » .

ويجلو العبادي الحوادث التى شاركت مصر فيها الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر الأول ، ويركزها في ثلاثة ميادين كبيرة : «ميدان الفتوح الحربية» ، و«ميدان الأحداث السياسية» ، و«ميدان الحركة الفكرية» .

وحين يحدثنا العبادي عن إسهام مصر في الفتوح الحربية يقول : « كان العداء مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور . وكان الروم يحاولون إرجاع ما فقدوا من أملاكهم في آسيا وإفريقيا ، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان ، ولقد وقع عبء قتال الروم في ذلك العهد على الشام ومصر ، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعا رائعا ، كما كان لها أثر في مد نطاق الدولة العربية غربا وجنوبا وشمالا بمحض جهودها ومواردها . إن مصر كانت في نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة إليه ، يعولون عليها في فتحه وبسط سلطانهم عليه ، لذلك نجد عمرو بن العاص غداة توليه أمر مصر يكر على [برقة] فيستولي عليها سنة 22 هـ ، ويتبع ذلك بالاستيلاء

على [طرابلس] سنة 23هـ ، ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في غزو إفريقيا فلا يأذن له على عادته من المكث والتريث إزاء المشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان ابن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقيا ، ثم يأتي «عقبة بن نافع» فيؤسس مدينة [القيروان] ويكتسح شمال إفريقيا ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر، نعم.. إن فاتحي المغرب من بعد عقبة وخاصة «حسان بن النعمان وموسى بن نصير» ، قد مكنوا للدولة العربية في المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية . ولكن مصر كانت دائما ردءا لهم تساعدهم بأسطولها ورجالها . وحتى الأندلس النائية فقد اشترك جند مصر في تهدئة أحوالها ضمن حملة «كلثوم بن عياض القشيري» ، ونزل هذا الجند المصري (كورة تدمير) التي سميت «بمصر» إشارة إلى أن الجند الذي نزلها أصله من مصر .

هذا في الغرب ، أما في الجنوب فقد غزا «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» بلاد الأساود سنة 31 هـ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبسل فيها العرب والسودان ، فجنح ابن أبي سرح إلى السلم، لما رأى من شجاعة السودانيين وبراعتهم في الرماية في الواقعة المعروفة بيوم دمقلة ، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة.

أما في الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية ، وكان معاوية بن أبي سفيان حريصا على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية في سواحل الشام ، والاستعانة بالأسطول المصري والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية ، وافتتح معاوية برنامجه سنة 28هـ بالاستيلاء على قبرص ، ثم كانت الوقعة المعروفة [بذات الصواري] سنة 34هـ في أواخر عهد عثمان سنة 34 هـ . وقالوا : إن الإمبراطور قسطنطين سار في أسطول ضخم يريد به إرجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ، فسارع الأسطولان : الشامي والمصري إلى لقاء ، وكانت الوقعة بين الفريقين على إسهام مصر في الحركة الفكرية ، فيقول : « ولكن ينبغي ألا تغمط مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن

الفسطاط غدت بيئة علمية تذكرنا بالبصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة يدرس بها علما الحديث والفقه ، كما تدرس الآداب العربية ... » .

وعن علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول غير الإسلامية يكتب العبادي فصلا ممتعا عن هذه العلاقات بين «هارون الرشيد وشارلمان» مؤكدا تواجد هذه العلاقات ، فيقول : « ليس من شك في أن «هارون الرشيد وشارل الكبير» هما رجلا العالم في أخريات القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع ، فالرشيد يمثل الشرق بمدينته المزدهرة أيامئذ وعظمته التي بلغت أوجها. وشارل الكبير أو شارلمان- كما درج المؤرخون على تسميته - يمثل الغرب ، الآخذ في الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها في أوروبا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والأخذ بتلك الأسباب التي جعلت فيه في النهاية باعث دول أوروبا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة .

وليس من شك في أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير، فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجارة والوافدين إليها من مختلف الأقطار، وكان لا يخلو الأمر من أن يجري على لسان هؤلاء الوافدين ذكر العاهل الفرنجي الكبير ، وكانت مدينة [آخن] هي كذلك مقصد السياح والتجارة واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ، فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء - وهم بعاصمة الدولة الفرنجية - عن الحروب الناشئة بين بيزنطة والعباسيين ، وعن أخبار الأمويين المتغلغلين على الجزيرة الإسبانية ، وعن التغير المؤثر الذي أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة، ولكن ترى هل كان الأمر مقصورا على مجرد السماع ، أم هل يتعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما ، كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزع بينهما أمر المشرق والمغرب لعهدهما ؟

أما المصادر العربية ، فتسكت عن ذكر علاقة بين هارون الرشيد وشارلمان سكوتا مطلقا ، في حين أن المصادر الإفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما ، وتبدي القول في ذلك وتعيده ، فتاريخ المملكة الفرنجية وسيرة الإمبراطور شرلمان والمنظومة المعروفة «بيويتا ساكسو» كلها تروي نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد . وكان شرلمان هو البادئ في كل منها بالاستفسار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها » .

وفي نفس كتاب (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) نجد اهتماما بالحوادث التاريخية التي ساعدته على نمو اللغة وانتشارها ، ونفس هذا الفصل نجده منشورا بعد اختصار وإضافة لمحاضرة للعبادي بمجلة مجمع اللغة العربية ، كان قد ألقاها في الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر المجمع في الدورة التاسعة عشرة ، وفي هذه المحاضرة يقول : « ولقد نظرت في حوادث التاريخ الإسلامي ، فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى في نحو اللغة العربية وانتشارها العظيم . أول هذه الحوادث : تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» (65 – 86 هـ) ، والثاني : أمر الخليفة «المأمون العباسي» (198 – 218 هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية » .

ويستطرد العبادي في الحديث عن كل واحدة من هذه الأحاديث الثلاثة ، مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره في اللغة العربية وانتشارها ، ليختم حديثه بمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل ، بالإضافة إلى نهضة اللغة العربية في العلم الحديث .. كل ذلك في دراسة شائقة وممتعة .

وعن أهمية دراسة تاريخ المغرب العربي والأندلس ، ينبه عبد الحميد العبادي في كتابه (المجمل في تاريخ الأندلس) قائلا : لا يستطيع مؤرخ أن يهمل تاريخ المغرب

والأندلس ؛ فإن لهذا التاريخ اعتبارا من ناحيتين : من ناحية التاريخ الإسلامي الخاص ، ومن ناحية التاريخ العام .

فمن ناحية التاريخ الإسلامي ، كان المغرب والأندلس مسرحا لدول إسلامية اشتركت في تكييف الحضارة الإسلامية الخاصة ، وقامت دول وخلافات في المغرب وفي الأندلس مثلت شقا من العالم الإسلامي ، الذي نستطيع أن نعده - وخصوصا بعد قيام الدولة الفاطمية بمصر - يتكون من شقين متميزين ، هما : المشرق الذي كانت تسيطر عليه الخلافة الفاطمية وشمال إفريقيا سيطرة روحية وسياسية ، ينضاف إليه الأندلس الذي كانت تسيطر عليه الدولة الأموية .

ثم إن الأندلس تميزت بتاريخ وظروف خاصة لا يستطيع مؤرخ يدرس التاريخ الإسلامي أن يهملها ، فدارس التاريخ الإسلامي يتعين عليه أن يلم بشقي العالم الإسلامي حتى يستطيع أن يزاوج بين الحضارة الإسلامية في ركني هذا العالم الفسيح .

هذا من ناحية ، أما من ناحية التاريخ العام ، فإن المغرب الإفريقي والأندلس كانت مراكز اتصال بين العالم الشرقي وما فيه من حضارة ونظم ، والعالم الغربي وما يسوده من عقائد ونظم . والعرب حين فتحوا المغرب الإفريقي وتطرقوا منه إلى الأندلس ، وثبوا على أجزاء من العالم الأوروبي ، فاحتلوا إسبانيا ، ثم احتلوا صقلية، ونزلوا في الجنوب ، وعبرت جيوشهم جبال البرانس ونزلت أرض غاليا (فرنسا) ودارت بينهم وبين الفرنجة معارك حامية ، كل هذه كانت نقط اتصال احتك بها العرب بالعالم الأوروبي ، ولابد أن شيئا كثيرا من الحضارة العربية والنظم الشرقية وصلت إلى أوروبا عن هذا الطريق .

ثم إن المغرب الإفريقي والأندلس اشتركا في الصراع الذي كان دائرا بين المسلمين من ناحية ، والبيزنطيين من ناحية أخرى ، حتى لنجد الفاطميين يتحركون

إلى المشرق مدفوعين في غزوهم لمصر بعامل إنقاذ دار الإسلام من خطر الروم البيزنطيين ، إلى جانب الأسباب الأخرى التي كانت قائمة في نفوسهم .

فاتصال تاريخ المغرب والأندلس بالتاريخ العام اتصال قوي ، من ناحية الحضارة وتفاعلها ، ومن ناحية الصراع العام بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، فمن هنا نرى أن تاريخ هذا الجزء من العالم تاريخ يهم المؤرخ أن يدرسه ، وليس له عذر في أن يتجاهله أو يغفله » .

وعن انتشار الإسلام في العالم : يرى الأستاذ «عبد الحميد العبادي» متفقا في ذلك مع الدكتور «محمد مصطفى زيادة والدكتور إبراهيم أحمد العدوي» - في أن للتبادل التجاري والطرق الصوفية أثرا في دخول الإسلام إلى السودان .

وهناك ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال إفريقيا إلى السودان منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة .

فالطريق الأول : ممتد من [تلمسان] بمراكش إلى [تمبكو] على نهر النيجر في السودان الغربي ، والطريق الثاني ، يبدأ من تونس ويتجه إلى [كانو] بالسودان الأوسط. أما الطريق الثالث : فإنه ممتد من مصر إلى السودان الشرقي ، ولم يكن نهر النيل صالحا للملاحة في جميع شهور السنة أو في كل أجزائه بسبب الجنادل التي تعترض مجراه .

وعن انتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، تطالعنا صفحات تذكر أن التجارة كانت عاملا في ذلك ، حيث مهدت لانتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، إذ امتدت تجارة المسلمين إلى شواطئ من الهند والهند الصينية والصين ، وتوغلت الدولة الإسلامية في جوف آسيا ، واشتملت على أجزاء من بلاد الهند ، والمناطق الآسيوية المتاخمة لأطراف الصين ، وهيمنت على الطرق التجارية الرئيسية في آسيا ووصل

التجار المسلمون منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) إلى الصين وجزء من الهند الشرقية وغيرهما من بلاد الشرق الأقصى ، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود ، والصندل ... وغيرها .

وبعد، فهذه أمثلة لدور المؤرخ عبد الحميد العبادي في كتابة التاريخ الإسلامي، هذا الدور يجعل منه واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

محمد عبد الله دراز

يعد الدكتور محمد عبد الله دراز من المفكرين الإسلاميين ، الذين لم تنل كتاباتهم الإسلامية أي نصيب من الاهتمام ، رغم شموخها وعظمتها وخلودها ، فعلى الرغم من أن الفترة التي أعقبت عودته من البعثة التي قضى فيها أحد عشر عاما في فرنسا . لم تزد عن العشر سنوات إلا أنه قدم للمكتبة الإسلامية جانبا مميزا ومتفردا من الفكر الإسلامي . يعد أكثر تقدما من أفكار كثيرين جاءوا بعده بثلاثين عاما ، وفي مقدمة مؤلفات هذا المفكر كتابان باللغة الفرنسية هما : (الفلسفة الأخلاقية في القرآن) و(المدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليلي مقارن) وكتاب ثالث عنوانه : (الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) وغيرها من الكتب والمخطوطات التى تعد كنزا لم يكتشف بعد لهذا العالم الأزهري المستنير ، والتى تجعله واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري . حيث ولد عام 1312هـ ، وتوفي عام 1378هـ .

ولعل هذه الكتب الثلاثة ، تتيح لنا الاقتراب من فكره الشامخ ، فالكتاب الأول من عنوانه : (الفلسفة الأخلاقية في القرآن) يتضح مضمونه حيث يقوم بعملية الرصد لما في القرآن الكريم من جوانب للفلسفة الأخلاقية ، فيبحث وراء هذه الآيات البينات ويمحص ويحلل ؛ ليصل إلى ما تهدف إليه من قيم ومبادئ تنير للإنسان دنياه وتهديه إلى سواء السبيل ، وعلى صفحات الكتاب نلمح توصل المؤلف إلى فلسفة القرآن الأخلاقية كانت سابقة لما قبلها من فلسفات أخلاقية أتى بها العصر الحديث أو العصور الوسطى .

وفي الكتاب الثاني : (مدخل إلى القرآن الكريم) الذي ترجمه عن الفرنسية الأستاذ «محمد عبد العظيم علي» ، وراجعه الدكتور السيد «محمد بدوي» ، يطالعنا المؤلف بثلاثة أقسام رئيسية . في **أولها** نراه : مؤرخا **والثاني** نراه : محللا وفي القسم **الثالث** نراه ناقدا . وفي هذا الكتاب يفند الدكتور دراز الخطأ الشائع الذي يزعم أن الإسلام يبيح نشر الدعوة بالقوة ؛ حيث استطاع ، أن يثبت ما يخالف ذلك ، مؤكدا أن حرية العقيدة والدين هي من المبادئ الأساسية التي أرساها القرآن الكريم وعززها ، فالإسلام لا يكره الضمائر، وإنما يتصدى لكل من يحاول قهرها وإجبارها، فالحرب الشرعية المقدسة في نظر القرآن الكريم هي الحرب الدفاعية ، وإذا كانت هناك استثناءات لهذه القاعدة قد وقعت عبر التاريخ ، فإنها لا تستند إلى حرفية النص القرآني ، ولا إلى روحه . فضلا عن أنها لم تكن السبب الرئيسي لانتشار الإسلام .

وفي الكتاب الثالث : (الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) يحدد لنا الدكتور دراز موقف الإسلام من الأديان الأخرى ، فيذكر أنه إذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالا للسؤال عن هذه العلاقة ، فالإسلام في لغة القرآن الكريم ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وانتسب إليه كل أتباعهم. فهكذا نرى نوحا عليه السلام يقول لقومه : ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾[1] ويعقوب عليه السلام يوصي بنيه : ﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[2] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿ **نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾[3] . وموسى عليه السلام يقول لقومه : ﴿ **يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ**

(1) النمل : آية 91 .
(2) البقرة : آية 132 .
(3) البقرة : آية 133 .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[1] ، والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

وبالجملة.. يرى الدكتور دراز أن اسم الإسلام - شعارا عاما - يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية ، ثم يرى أن القرآن أجمل كل القضايا الخاصة بهذا الموضوع في قضية واحدة موجهة إلى قوم محمد - ﷺ - حيث يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ ﴾[3] . ويذهب الدكتور دراز بعد ذلك إلى القول بأن الإسلام بمعناه القرآني لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة نبيه وبين سائر الأديان الأخرى ، ولا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه . فهنا وحدة لا انقسام .

وهكذا ، نجد في أفكار الدكتور «محمد عبد الله دراز» ما يخدم الحياة ، وقبل ذلك لا يتعارض مع الإسلام ، بل نراه يعتمد على تعاليمه ، سواء كان ذلك من كتاب الله الكريم أو من أحاديث نبيه - ﷺ - على الرغم من أن صاحب هذه الأفكار لم يعش طويلا ؛ حتى يضيف الكثير في مجال التجديد في الفكر الإسلامي .

* * *

(1) يونس : آية 84 .

(2) آل عمران : آية 52 .

(3) الشورى : آية 13 .

مـولانا أبو الكـلام آزاد

لأمر ما ، فرض علينا عدم معرفة الكتابات الإسلامية لمولانـا أبـو الكـلام آزاد بشكل ميسور . مع أن هذا المفكـر في شـبه القـارة الهنديـة يعتـبر مـن ناحيـة الفكـر الإسلامي إماما للمفكرين هناك ، كما يعتبر إماما في الكفاح السياسي ، دوره لا يقـل عن دور المهاتما غاندي . ولهذا ، كان يلقب في الهند بصاحب الإمـامتين معـا : إمامـة التفكير الإسلامي ، وإمامة التفكير السياسي .

لكن المكتبة العربية تفتقر لأخبار هذا المفكر، فإذا سألت عنه فربما لا تجد سـوى صفحة ونصف – تأبين له – في كتاب (يوميات) للأستاذ «العقاد» . أو تقديم له كتبه الأستاذ «الباقوري» لكتاب هذا المفكر عن ذي القرنين ، ولولا هـذا الجهـد العلمـي المشكور الذي أظهره منذ سنوات قليلة بشكل مشكور الدكتور «عبد المـنعم النمـر» والذي خرج في صورة جزأين عن هذا المفكر ، لاستمر مولانا أبـو الكـلام موضـعا لدهشة واستغراب الخاصة قبل العامة ! .. ولأصبحت مؤلفاته الإنجليزية لغـزا مـن الألغاز التي يصعب فهمها !

مع أن هذا الرجل في بلده كان عظيما ، ففي مجال السياسة يقول عنه زعيم الهنـد «نهرو» : « لقد كان آزاد مجموعة من عظمة الماضي وعظمة الحاضر ، لن يجود الزمـان بمثلها » وفي مجال الدين يقول عنه أحد زعماء الفكر الإسلامي «شلبي النعمان» : «إن عقل آزاد وذهنه أعجوبة من أعاجيب الدهر» .

وفي غير بلده كان عظـيما أيـضا حيـث يـشهد بعلمـه وفـضله الكثـيرون ، وفي مقدمتهم الأستاذ «العقاد» حيث يقول : « كـان لأبي الكـلام آزاد فـضله في إنـصاف

الثقافة الشرقية من الهند والصين إلى بابل ومصر » ويقول عنه الأستاذ «الباقوري» : «إن مكانة أبي الكلام عند المسلمين في الهند تساوي مكانة المهاتما غاندي عند غير المسلمين ، وأن دوره في الكفاح السياسي لا يقل عن دور غاندي . ويقول عنه الدكتور «النمر» : « كان حظ أبي الكلام في دعوته الدينية والسياسية أوفر من حظ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده معا ؛ إذ استطاع أن يقود بلاده إلى تحقيق غايتها في التحرر من الاستعمار ، ويجني ثمرة جهاده حين تولى باسم الهند التفاوض مع الزعماء الإنجليز لتحقيق الاستقلال لبلاده .. » هذا عن الرجل ، وأما عن أفكاره فهي غزيرة كثيرة ، يكفي الإشارة إليها من بعيد وليس من قريب في جانب واحد ، حيث نجد فضله في مؤلفاته التي عنيت بتحقيق الشخصيات الدينية الكبرى ، أو حتى الشخصيات التي وردت كأخبار في الكتب الدينية . ومنها شخصية «ذي القرنين وقارون وقورش والنمرود » ... وغيرها من الأسماء التي كانت كالأشباح التي تلوذ بغياهب الماضي المجهول ، فأخرجها هذا المفكر إلى دائرة الضوء فأصبحت على مداها البعيد مقربة .

وعن الإسلام والاستبداد يقول : « إني مسلم ، ولأني مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وقبحه وأشهر بمساوئه وليعلم الغير أن الإسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية ، ولا بحكومة عصبة من الموظفين يتقاضون رواتبهم » .

ويشير إلى حقوق الإنسان قائلا : « إلا أن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل فرنسا بأحد عشر قرنا وليس مجرد إعلان بل وضع نظاما » .

وفي إعلان الحق يقول : « لعمري أن المطالبة من مسلم أن يسكت عن الحق . ولا يسمى الظلم ظلما ، بمثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية ، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يدافع عن دينه فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم أنه ظلم ؛ لأن معنى كلتا المطالبتين واحد .. » .

وحين يحدثنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يرى أن ذلك كان أساسا لعظمة المسلمين وفخرهم القومي .

ويرى أن التوحيد بالله ، يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم ، أما غيره فلا يخاف منه .

كذلك يعتقد مولانا أبو الكلام آزاد : أن الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى التضحية والبسالة والجرأة والإقدام ، وهو ما جعله فخرا لدينه الإسلامي ولأمته الهندية في القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

هل نحن في حاجة إلى مزيد ؟ إننا حين نقرأ بعض المراجع ، نكتشف الكثير من الفضائل التي اتسم بها مولانا أبو الكلام آزاد[1] ، وذلك فيما كتبه بمذكراته ، أو ما كتبه عنه معاصروه من السياسيين ، وفي مقدمتهم: زعيم الهند «نهرو» ، أو ما كتبه عنه بعض علماء الإسلام . لقد كتب مذكرات حياته بقلمه أيضا ، وترجمت للإنجليزية بعنوان : India Wins Freedom أي «الهند تظفر بحريتها» ، وهي مذكرات تدور حول الهند التحررية وما قام به هو وغيره من جهود في سبيل استقلال الهند ، فهي مذكرات تاريخية سياسية حوت الكثير من آرائه ومواقفه السياسية ، ومواقف الآخرين من الزعماء أو من آراء المستعمرين الإنجليز وتصرفاتهم ، وقد تولى نشرها ومراجعتها مع آزاد تلميذاه وصديقاه : الدكتور «همايون كبير» والأستاذ «أجمل خان» ، وكما كان آزاد طرازا فريدا في حركة التجديد الدينية وزعامته السياسية وأسلوبه الأدبي كان طرازا خاصا في شخصيته وأخلاقه . ولعل أصدق ما يصور لنا

(1) كلمة «أبو الكلام» التي تضاف عادة إلى اسم مولانا آزاد أطلقها عليه الداعية الإسلامي «محمد رشيد رضا» في مجلة (المنار) . حيث كان مولانا آزاد إذا تكلم لا يتوقف حتى ولو ظل على ذلك ساعات ، وقد قيل إنه ظل يتحدث في خطاب له لأكثر من ست ساعات دون توقف . وكانت أحاديثه ساحرة وشائقة.

هذه الشخصية هو العالم الهندي المعاصر الأستاذ الكبير «أبو الحسن علي عبد الحي الندوي» حيث يقول[1] : « مما لا شك فيه ، أنه كان من نوابغ الرجال ونوادر العصر فطنة وذكاء ، وحدة ذهن ، وتوقد فكر ، وثقة بالنفس واعتدادا بها ، واعتزازا بكرامته ، وتمسكا برأيه وعقيدته ، وثباتا على مبدئه ، وإباء عن الضيم ، وترفعا عن خسائس الأمور وسفاسفها ، وكان جميلا وسيما أبيض اللون مشربا بالحمرة ، فارع القامة ، قليل شعرات اللحية ، حسن الملبس والشارة ، لطيف العشرة مليح الكلام ، فصيحا في كتابته وخطبه وحديثه ، ينتقي اللفظ الصحيح والفصيح ، قوي الذاكرة ، كثير المحفوظ حسن الاختيار للأبيات ، حسن الاقتباس من القرآن والاستشهاد بالآيات خطيبا مصقعا ، كاتبا بليغا وصحافيا بارعا ، وسياسيا ثاقب الفكرة ، سليم الذهن مطلعا على كتب التاريخ والأدب، وأخبار الشعوب والبلاد ، حسن التصرف فيما وعته ذاكرته ، وحواه صدره ، إذا تحدث في موضوع ظن السامع أنه صاحب اختصاص فيه ، سلفي العقيدة ، فقد رفض التقليد وخالف أباه - الذي كان شيخ طريقة - في الرسوم والبدع ، وآثر مذهب شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلميذه «ابن القيم» ومع ذلك كان يأخذ البيعة من بعض الناس ويرشدهم في الطريق ، وكان ذكيا جيد الفهم لكثير من الآيات القرآنية يفسرها بأسلوبه الأدبي القوي فيعجب بها الشباب المتعلم ، ذكاؤه يسبق علمه ، وقوة بيانه تغلب على تعمقه في العلم .. » .

تلك هي الصورة التي رسمها العالم الهندي المسلم الغيور «أبو الحسن الندوي» الذي عرفته الهند والعالم الإسلامي داعية للإسلام من طراز ممتاز ، رسمها لمولانا آزاد كما عرفه عن قرب ، بعد أن انتقل آزاد إلى رحمة الله ، مما يزيدنا ثقة في صدق كل

(1) وذلك فيما كتبه من تكملة لترجمة حياة آزاد التى بدأها والده المرحوم : مولانا عبد الحى . وتوفى قبل أن يتمها حيث كتب عن خمس وعشرين سنة فقط من حياة آزاد فأكملها نجله أبو الحسن ، ووردت فى كتاب (نزهة الخواطر) الجزء الثامن الذي طبع حديثا في الهند ، وقد ضم هذا الكتاب بأجزائه الثمانية ترجمات لأعيان الهند وشخصياتها العلمية والسياسية منذ القرن الأول الهجري حتى توفي المؤلف سنة 1341 هـ 1922 م .

كلمة كتبت عنه ، فوق ما نعرفه من صدق في «أبي الحسن» وعدم مجاملته في الحق للأحياء ، حتى ولو كانوا أصحاب جاه وسلطان ، وكان آزاد مع ذلك كله حريصا كل الحرص على الحق والإنصاف ، لا يبالي في سبيل ذلك بأي اعتبار من الاعتبارات التي تميل بكثير من الناس عنه .

ويذكر الدكتور «همايون كبير» - وكان من ألصق الناس بمولانا آزاد في علمه وفي حياته - يذكر لنا واقعة تعتبر مفتاحا لكل من يريد التعرف على شخصية آزاد في هذه الناحية ، وهي واقعة كان فيها شاهد عيان ، وهي تجلو لنا الكثير عن مولانا الإنسان الحريص على احترام حق الغير وإنصافه حتى ولو من نفسه مهما يكن مركز هذا الغير صغيرا ، وهي تجلو لنا كذلك ما قاله أبو الحسن من أن آزاد كان من نوادر العصر ترفعا عن خسائس الأمور وسفاسفها - يقول «همايون كبير» : « جاءني يوما رجل من كبار الرسميين ، وكان في حالة شديدة من الضيق والحزن ، وأخبرني بأن مولانا آزاد غضب عليه ، وسجل ذلك في الملف الذي كان يقدمه إليه ، فطلبت الملف وقرأته ، فوجدت أن هذا الرجل لم يذكر في الورقة المقدمة لمولانا بعض الحقائق التي لابد من ذكرها ، فقلت له : ما الذي دعاك إلى ترك هذه الحقائق والمعلومات ؟ فأجاب بأنه ذكرها فعلا حين قدم الملف أول مرة ، ولكنه نسي أن يذكرها لما قدم الملف في المرة الثانية ، فقلت له أنه لا يتوقع من الوزير أن يطالع أوراق الملف بأجمعها كلما تقدم إليه ، فكان عليك أن تسجل ملاحظتك في العرض الأخير للملف وتدون هذه المعلومات اللازمة ، حتى يستغني الوزير عن مراجعة الملف بأجمعه، ولكني مع ذلك قلت لمولانا آزاد : أن فلانا قد أتى بالتفاصيل اللازمة، والحقائق المطلوبة ، حينما رفع إليك الملف في المرة الأولى ، واعتمد على ذلك في المرة الأخيرة ، وكان من الممكن لمولانا آزاد أن يقول : كان لابد لهذا الموظف أن يلخص هذه الحقائق ، أو يشير إليها في العرض الأخير للملف كما قلت أنا للرجل ، ولكنه - لنفسه الطيبة السمحة المحبة للخير - لم يقل هذا ، بل التمس العذر للموظف ، وعفا

عنه ، ولم يكتف بهذا بل تناول الملف الذي سجل فيه ملاحظته عليه وكتب عليه بخط يده : « إنه لم يكن على حق في ملاحظته في شأن الرجل ، وهو آسف لما حدث منه » ..

وسمع الرجل بهذا فدهش وقال : كان يكفي أن يكتب : أنه عفا عني ، وما كنت أطمع أبدا في أكثر من هذا ، وعرف مولانا آزاد هذا فقال له : « إنني سجلت أولا ملاحظتي بخطي على الملف ، وطالعه أعضاء المكتب جميعهم ، فكان لابد لي من أن أسجل أسفي أيضا لما حدث مني ، ليعلموا أنك لم تكن مخطئا » .

وأصحاب النفوس الكبيرة لا يحجمون أبدا عن الاعتراف بخطئهم ، لأنهم يدركون أن الاعتراف بالخطأ هو من سمات هذه النفوس ، وهو يزيد من سموهم ، ولا يغض من شأنهم ، وقديما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ملأ من الناس وهو على المنبر : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » .

حادثة أخرى يمكن أن تكون عندنا مفتاحا لأخلاق هذا الرجل ونظرته للأمور، ولسنا بعدها في حاجة إلى المزيد .

ولقد كان مما يحرص عليه آزاد : ألا تمتد أصابع السياسة إلى الدين لتفرق بين جماعة المسلمين أو تثير الأحقاد فيما بينهم ، ولا سيما في أمور العبادات . يفقد هذه الصفات الإنسانية التي كنا نرى مولانا آزاد نموذجا لها ، وكان مع ذلك ملتقى لثقافات الشرق والغرب قل نظيره في هذا الزمان .

ومع أن مولانا آزاد كان جم النشاط ، كثير التنقل بين أرجاء الهند الواسعة لنشر دعوته الدينية والسياسية إلا أن هذه الجهود الضخمة التي بذلها وهو في أوج قوته ، بالإضافة إلى ما ساد الهند من خلافات وفتن ومذابح ، وما لحقه بسبب ذلك كله من متاعب جسمية ونفسية ، ذلك كله أثر عليه تأثيرا كبيرا بعد أن ظفرت البلاد باستقلالها فوجدناه يميل إلى العزلة والهروب من الضوضاء ، مؤثرا العيش مع الكتب التي يحبها ، ومع الصفوة من أصدقاء حياته وتلامذته ..

ولعله وجد مع ذلك أن فترة ما بعد الاستقلال تحتاج إلى العمل الهادئ المتزن أكثر ما تحتاج إلى الإثارة والخطب ، فوق أنه كان بطبيعته عالما مفكرا يميل إلى ما يميل إليه المفكرون من هدوء وبعد عن الضوضاء ، لولا أن السياسة وحركة التحرر جذبته إليها ، فلما انتهت عاد إلى طبيعته التي تغلب عليه .

ويرسم «نهرو» هذه الصورة الجانبية من حياته فيقول في كلمته التي أبنه بها :

« كان ذا حياء شديد ، وضمير حي يميل إلى الخلوة والانفراد ، ومع أنه كان خطيبا ساحرا مؤثرا إلا أنه كان يهرب من الضوضاء والاجتماعات الصاخبة ، ولم يكن من السهل أن تحمله على الخطابة في الجماهير ، ذلك لأن طباعه الأصيلة في الحقيقة كانت طباع العالم الفيلسوف ، أكثر من طباع الرجل السياسي ، ولكنه اندفع إلى السياسة للظروف السيئة التي كان الوطن يعانيها » .

ونهرو يصور بذلك فترة ما بعد الاستقلال ، وإلا فقد كان خطيبا قبله في كل مكان . وكان كلما تقدمت به السن ، وناوشه المرض ، اشتدت حاجته إلى العزلة والهدوء ، ولكن بعض الأحداث المهمة كانت تشده وتخرجه من هدوئه ليلقى بجماهيره التي أحبته وتعشق لقاءه والاستماع إليه .

اتجهت نوايا العاملين على إنصاف اللغة الأوردية ورد اعتبارها ، إلى إقامة مؤتمر عام من أجل هذه اللغة ، ردا على الجهود واللوائح التي وضعت للقضاء عليها بعد الاستقلال مع أنها تعتبر لغة الثقافة .

كانت له وللمسلمين في [كلكتا] عادة سنوية هي : أن يؤمهم في صلاة العيدين، ويلقي فيهم الخطبة بعد الصلاة . وفي أحد الأعياد كره زعماء الرابطة الإسلامية في كلكتا ، أن يؤمهم - وكانوا على خلاف سياسي معه - فعملوا على تنحيته عن الإمامة وافترق المسلمون ، وكانت الأغلبية تؤيد أن يؤمهم آزاد كعادته ، ورأى جماعة منهم

أن يحلوا هذا الخلاف بإقامة الصلاة في مكانين . ومن عادة مسلمي الهند أن يجتمعوا في مكان فسيح لإقامة صلاة العيد اتباعا للسنة .. ولكن مولانا آزاد لم يرض أن يثور الخلاف بين المسلمين بهذه الصورة حول من يؤمهم ، وأن يكون للسياسة دخل في مثل هذا الأمر الديني ، فأعلن أنه لا يريد أن يؤم الناس متى كانت هناك قلة من المسلمين لا تريد إمامته ، وأمكنه بهذا أن يقضي على هذا النزاع ، وتجنب مثل هذه الصورة الكريهة .

يضاف إلى ما سبق : صورة أخرى لشخصية يرسمها له زملاؤه في حركة التحرير والجهاد من أجل الاستقلال .. الذين عملوا معه واحتكوا به عشرات السنين . قال الدكتور «راجندر برساد» رئيس الجمهورية الهندية عن آزاد حين توفي إلى رحمة الله:

« كان يمتاز بجمعه بين الحكمة والزعامة ، النبوغ في الإدارة ، والتضحية في سبيل الوطن ، وبين علم غزير وسعة اطلاع وتضلع في الفنون والآداب ، وبما أنه رحمه الله قد جمع في حياته كل ما جاء به الشرق من تقاليد وحكم وعلوم مع أحسن ما تحويه الثقافة الغربية في هذا المضمار ، كان يعتبره كثير منا ملتقى الشرق والغرب ، ثم إنه كان كبحر عميق ينبض قلبه الكبير بالعطف والحنان ، فإن واجهته أزمات تبدو عويصة الحل أضاءت له طريقته الإنسانية في معالجة المشاكل وصلاحيته الخارقة في التوفيق بين النزعات طريقا لتحقيق التفاهم بين المختلفين المعارضين» .

ويضيف نهرو إلى هذه الصورة ، صورة أخرى يرسمها في كلمات قصار فيقول:

«كان مولانا آزاد مجموعة من عظمة الماضي وعظمة الحاضر ، وكان يتسم بكل الصفات الأخلاقية الحميدة التي يندر وجودهما في هذا الزمان ، إن الإنسان الآن يحاول الصعود إلى القمر ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى القيم الإسلامية والتراث الديني للمسلمين » . واللغة الأوردية هي اللغة التي يتحدث بها أغلبية أهل الهند من مسلمين وغيرهم . وكانت قبل الاستقلال تعتبر لغة رسمية ثانية بعد الإنجليزية في

الولايات التي تنتشر فيها وهي أكثر الولايات ، ولكن بعد الاستقلال تقرر إبعادها وعدم اعتمادها في الدواوين والمصالح الحكومية .

ورأى المسلمون أن هذا مقدمة للقضاء على هذه اللغة ، وبالتالي القضاء على التراث الإسلامي في الهند ، وقطع ينابيعه عن الجيل الجديد المسلم فتقدموا إلى الحكومة يطلبون منها الاعتراف بها واعتمادها في دوائر الحكومة ، وتعليمها لأبناء المسلمين في المدارس حتى يظلوا على صلة بتراثهم وتعاليم دينهم ، وجاهدوا في سبيل ذلك جهادا مريرا ، وكثير من المتعصبين الرسميين وغير الرسميين يقف في طريقهم ، حتى رأوا في أوائل سنة 1958 أن يعقدوا لهذا الغرض مؤتمرا عاما في [دلهي] ليرفعوا الصوت الجماعي الموحد إلى المسئولين .

وما كان لمولانا آزاد أمام هذه القضية الحيوية بالنسبة للإسلام والمسلمين أن يبقى في هدوئه ، أو أن يغلبه مرضه فيظل بعيدا عن هذا الميدان .

وهنا وجدناه يخرج من عزلته ، ويتغلب على نوازع الهدوء ومخاوف مضاعفات المرض ، ويحضر المؤتمر ويخطب فيه ، واستمع الناس في شوق وحب إلى الصوت الحبيب ، واللسان الساحر والخطيب المفوه الذي طالما زلزل من قبل بنيان الاستعمار، وقض مضجعه ، استمعوا إليه يجلجل مجاهدا في سبيل لغته ولغة دينه وثقافته الإسلامية .

وسبحان الله ! فقد كان كأنه يودع الشعب في هذا الاجتماع ، ويتوج جهاده الطويل في سبيل دينه وبلاده بكلمة حق يقولها في سبيل لغته ، بعد ما أبلى مشكورا في سبيل حرية بلاده ، فبعد هذا الاجتماع بنحو أسبوع لقي ربه بعد مرض قصير في صباح السبت لليلة خلت من شعبان سنة 1377هـ 22 فبراير سنة 1958م بعد حياة مديدة بعد أن ولد عام 1293هـ .

ورأى صديقه الوفي «نهرو» أن أفضل مكان يضم جثمان هذا الزعيم المجاهد هو هذا المكان الذي وقف فيه من نحو أسبوع يخطب في الجماهير .

وفي هذا المكان في الرحبة الواسعة التي تقع بين أثرين إسلاميين يعتبران من أعظم الآثار في الهند ، بين المسجد الجامع وبين القلعة الحمراء في [دلهي] استقر جثمانه الأخير قريبا من المسجد ، وعلى بعد قليل من قبر المغفور له المجاهد المسلم مولانا «شوكت علي» .

يقول زعيم الهند «نهرو» معبرا عن مشاعره يوم وفاة مولانا آزاد : لم أستطع السفر للاشتراك في تشييع جنازته ، ولكنى جلست بجانب المذياع أتابع تشييع الجنازة ، وكنت أحس كأن الشعب كله قد التف بنفسه يودعه ، أوقفت الإذاعة كل برامجها في ذلك اليوم وخصصت الوقت كله لتشييع الجنازة والتحدث عن مآثره . ولم أكن حين استمعت إلى تشييع الجنازة أستمع إلى كلام يصعب على فهم الكثير منه بل كنت أستمع إلى اللغة المشتركة التي يفهمها كل إنسان ، كنت أستمع إلى بكاء ونشيج ، وكأن الشعب كله قد تجمع من حوله ليبكي وينتحب . كان يمثل قصة وفاء الشعب للرجل الذي أحبه وعاش طوال حياته ومن فجر شبابه وفيا له ، واهبا نفسه لتحقيق حريته واستقلاله .

وكانت دموعي وأنا بجانب المذياع مزيجا من التعبير عن مشاعر الحزن ومشاعر التقدير لهذا الشعب الوفي .

فما أجمل الوفاء ! وفاء الرجال لأوطانهم ، ووفاء الأوطان لرجالها ، وقد كان شعور المسلمين مزيجا من الحزن والخوف على مستقبلهم ، فقد كان آزاد تاجهم وملاذهم ومناط عزهم وفخرهم ، وحصنهم الذي يسندون ظهورهم له ، ويلتجئون إليه في حاجاتهم وملماتهم ، ففقدوه ولم يكن أمامهم من الزعماء المسلمين من يتطلعون إليه كآزاد .

وفي اليوم الثاني لوفاته ، أقام حزب المؤتمر اجتماعا عاما لتأبينه في أحد ميادين [دلهي] تحت رئاسة فخامة رئيس الجمهورية دكتور «راجندر برساد» جمع أحزاب الهند وطوائفها ، واشتركت فيه الجموع الحاشدة من أبناء الشعب ، وتحدث فيه رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء «نهرو» وزعماء الأحزاب المختلفة . وعبر المجتمعون وخطباؤهم عن تقديرهم للفقيد وجهاده وتضحياته وتأثرهم وتأثر البلاد كلها وإحساسهم بفداحة الخطب فيه .

ونذكر هنا بعض فقرات مما قاله رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في تأبينه ، تعطينا صورة عن عظمة آزاد في نفوس العظماء ، حتى لو اختلفوا عنه دينيا حيث كانوا يدينون بغير الإسلام .

وقف رئيس الجمهورية فكان مما قاله : « إن تاريخ الهند خلال خمسين سنة مضت مقترن باسم الفقيد على وجه لا يمكن فصله عنه ..

« وإن القلم الذي ألهب الوطنية في الملايين من هذه البلاد قد وقف اليوم ، وإن الصوت الذي أثار ملايين الهنود وأيقظ في نفوسهم الحمية والحماس الوطني قد خفت اليوم ..

« إن الجماهير الغفيرة التي احتشدت اليوم في هذا الاجتماع قد كشفت عن أعمق التقدير والتكريم للزعيم الذي فارقنا فراقا أبديا يوم السبت الماضي ، وكفانا بهم شاهدا على ما كان للمغفور له من حب وثقة في قلوب الهنود ، إذ بادر الملايين بغض النظر عن دينهم وطبقتهم لتوديع الزعيم الجبار الذي اقترنت حياته خلال الخمسة والأربعين عاما الماضية بحركة استقلال الهند وتعميرها اقترانا غير منفصل» .

وخطب نهرو : « إن مولانا آزاد أثار الشعب بكتاباته البليغة البديعة ، وبث روح الكفاح لتحرير وطنهم ، وأرشدنا بأعماله الباهرة ، وتضحياته العظيمة إلى تذليل العقبات ، وإزاحة العراقيل والعوائق التي تعرقل سبيل الأمة ، وكان عبقريا

ومفكرا اكتنهته الغوامض ، وهو لم يبلغ بعد رشده ، واهتدى فكره إلى أنه لا مناص للهنود مسلمين وغيرهم من أن يتعايشوا في هذه البلاد مسالمين متصالحين ، حتى تكون حياتهم ملؤها الود والصداقة ، وما زال مؤمنا بهذا المبدأ إلى أن جاد بأنفاسه الأخيرة ، ولم يكترث لما اعتراه في هذا السبيل من عقبات وعراقيل ومحن وشدائد ..

« ولعل أحسن ما نزجيه لزعيمنا الراحل من آيات التقدير والوفاء : أن نجعل نصب أعيننا تلك المثل والمبادئ التي كافح عنها طوال حياته ، ونسترشد بها ، ونتخذها نبراسا للهداية ، وعلى الأخص وفاؤه وولاؤه وحبه العميق للبلاد ، واستنكاره للميول والنزعات الطائفية » .

وهكذا .. كان رأي أبناء الهند في مولانا آزاد . أقول : رأي أبناء الهند : مسلمين وغير مسلمين في هذا المجدد العظيم أبي الكلام آزاد ، مما يؤكد سموه وإخلاصه لكل أبناء وطنه .

* * *

الشيخ عبد الحليم محمود

يعتبر الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود إمام الأزهر الأسبق ، واحدا من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة فقد ولد عام 1328هـ وتوفي عام 1398هـ . يعد من كبار المجددين لما اتسم به فكره من العمق والاستنارة ، وما اتصف به حديثه من الصدق والموضوعية، وما حظي به خلقه من النزاهة والتواضع، وما حفلت به حياته من المواقف العظيمة والأعمال الجليلة ، سواء كان عميدا لكلية ، أو وزيرا للأوقاف ، أو شيخا للأزهر .

نشأ في رحاب الله ، وشب شبابا عفا طاهرا ، واهتدى في ناشئة حياته إلى طريق أهل الله ، ووضع يده في أيديهم حتى إنه وهو في فرنسا يتقدم برسالة الدكتوراه عن رجل من أهل الله، وواحد من أعلام التصوف ، اهتدى إلى اختياره ببصيرة متصوفة، وروح محبته . هذا الشيخ الجليل انتهت حياته عام 1398هـ ، 1978م وهو شيخ للأزهر الشريف ، حيث حفلت فترة توليه لهذا المنصب الرفيع والتى لم تزد عن الخمس سنوات بالأفكار والأعمال التى كان من شأنها تطوير الأزهر الذي يعود على هذه المؤسسة ورجالها بالخير والنفع ، بل وتعيد إلى الأزهر هيبته ودوره الذي كاد أن يكون مفقودا ، بعد رحيل شيوخ كبار في طول قامة الشيخ الإمام محمد عبده، والإمام مصطفى المراغى ، والإمام محمود شلتوت وغيرهم من العلماء الأزهريين الذين لم يند عن ذاكرتهم التطوير ، وجعل الأزهر أكثر قربا ومواكبة للحياة التي وجد فيها ، وفي الوقت نفسه حافظ على سمته العلمي المعروف .

هذا الشيخ المجدد بدأ حياته العلمية كأي من الأزهريين؛ حيث حفظ القرآن في كتاب القرية التي ولد ونشأ فيها وهي قرية السلام بمحافظة الشرقية ، ليمر بمرحلة

التعليم الأساسى ، من بعدها يلتحق بالأزهر الشريف ؛ ليقضى به الفترة التي تجعله ينال العالمية عام 1932 .. إلا أن هذه الشهادة التي يتمناها كل الذين اختاروا التعليم الديني لم تشبع طموحاته ، تلك التي ترنو إلى المزيد من العلم والثقافة ، بل والتبحر والاتساع فيهما إلى درجة أن هذه الطموحات جعلته يطلب العلم - وهو الأزهري - في بلد أوروبي (فرنسا) ، حتى ولو كان السفر إليها والإقامة بها على نفقته الشخصية ، وفي فرنسا يلتحق بجامعة السربون لدراسة العلوم التي يحبها ويهواها وفي مقدمتها علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان إلى جانب الفلسفة ، ويستمر في دراسته طالبا للعلم الذي أوصى به ديننا حيث نبه إلى طلب العلم ولو في الصين ، حتى ينال الليسانس من جامعة السربون ، من بعده ينال الدكتوراه بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف عام 1940 ، وذلك حينما كان ملحقا بالبعثة الأزهرية إلى فرنسا ، ويكون موضوع رسالته لهذه الدرجة العلمية في جانب أثير إلى نفسه هو المتصوف الإسلامى «أستاذ السائرين المحاسبى» كنموذج ليعود إلى مصر حيث يعين مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، ثم أستاذا للفلسفة بكلية أصول الدين التي تدرج بها حتى أصبح عميدا لها . ويتوالى بعد ذلك الارتقاء في المناصب من عميد لكلية ، إلى عضو بمجمع البحوث الإسلامية ، إلى أمين عام لمجمع البحوث الإسلامية ، إلى وكيل للأزهر ، إلى وزير للأوقاف وشئون الأزهر ، إلى شيخ للأزهر الشريف .

ونظرة واحدة إلى حياته العلمية ، ومناصبه العملية ، وما تضمن ذلك من مراحل وفترات ، شهادات علمية ومواقع سياسية جميعها تؤكد بأن هذا المجدد الجليل لم يكن من الأزهريين العاديين التقليديين ، بل إنه تجاوز هذا المعنى إلى ما هو أكثر اتساعا وأبعد مدى ، أو باختصار أن الجانب العلمي والعملي في حياته كان ينبئ عن سمة تميزه عن زملائه من خريجي الأزهر الشريف لتقترب من السمات التي يتمتع بها الرواد في العصر الحديث . فكما تشير لوحة حياته بأنه من خريجي الأزهر

الشريف ، هو في الوقت نفسه من خريجي جامعة السربون الفرنسية ، هذه السمة الخاصة به جعلت منه مزيجا من رجل الدين ورجل العلم في آن واحد .

أقول: إن شيخنا الجليل الدكتور عبد الحليم محمود كان مزيجا قويا من حضارتين متغايرتين هما : حضارة الشرق بروحانيتها وحضارة الغرب بماديتها ، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين هما : الأزهر الشريف وجامعة السربون ، وعلى هذا فإن أصوله ما برحت راسخة في حضارة الشرق تستخلص منها عناصر الغرب تتنسم منها الهواء وتستمد النور .

وقد تبدو لأول وهلة غرابة الجمع بين هذين المعهدين - الأزهر الشريف ، وجامعة السربون - أو حضارتين : الشرقية والغربية ، ولكن المتعمق المدقق يرى ويكتشف أنه ليس هناك أي تعارض بينهما ، وأن الجمع بينهما ليس بالمتعذر أو العسير ، فليسا هما على طرفي نقيض كما يظهران للوهلة الأولى ؛ لأنهما يرجعان إلى نبع واحد هو نبع المعرفة الإنسانية في مظانها الأولى ، والخلاف بينهما هو أن كلا منهما يتميز بما ليس في الآخر ، إنهما عنصران أساسيان لشخصية الشرقي الأصيل الذي يريد أن يصطحب أمجاد تاريخه التليد ، وميراث أجداده العظيم ، دون أن يعوقه ذلك عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة في جانبها الإنساني ، وهي في طريقها إلى الأمام والتطور .

وإذا كان الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود قد جمع في شخصه بين «الشيخ» و«الدكتور» فقصارى ما فعل أنه لاءم بين نشاطين من ضروب الأنشطة الذهنية للإنسان كان هو بهذه الملاءمة نموذجا حيا للأزهري المستنير، ورجل العلم المعاصر، وكلا الأمرين: الديني والعلمي ، يخدم كل منهما الآخر ، لتكون النتيجة أعمالا فكرية جادة لا تترك القديم لقدمه ، ولا تجري وراء الجديد لجدته ، أعمال يقرها العقل ويرحب بها القلب ، خاصة وهي في مجملها تناقش الشئون الإسلامية.

هذه الخاصية التي يتمتع بها الدكتور عبد الحليم محمود دون غيره أفادته في حياته العملية ، كما أفادته في حياته العلمية ؛ فهو ليس كغيره يغلب عليه جانب النقل على جانب العقل ، بل إنه يجعلهما يسيران متوازيين في طريق واحد له خطة وهدف ، وعلى هذا فهو يسير تبعا لتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة كمصدرين أساسيين ، وهو في الوقت نفسه لا يغفل دور العقل وإعماله وأحكامه وتفكيره في شئون الحياة المعاصرة ، خاصة وأنه يدرك تماما أن تفكير العقل فريضة يقرها الإسلام .

وتأسيسا على ذلك ، استطاع أن يختط لنفسه منهجا يقوم على توازن بين العقل والنقل معا ، ملامح هذا المنهج أعلنه في كتابه (منهج الإصلاح الإسلامى في المجتمع) وفيه التزام بالأصول الأساسية من : «قرآن وسنة» وفي الوقت نفسه احتفاء بما يقره العقل بعد إعماله وهو ما أمرنا به الله عز وجل في محكم آياته ، ولعله يحمل ذلك في ثلاث كلمات هم : « القرآن كتاب العقل » ومعنى ذلك أن القرآن بأكمله دعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله ، وأنه يدعونا بعبارات تختلف في أسلوبها ، وتتحد في معناها ، إلى استعمال العقل ووزن كل شيء بميزانه ، وأنه يترك لنا الحرية في أن نعتقد ما يرشد إليه عقلنا ، وأن نتبع السبيل الذي يثيره منطقنا أو يهدينا إليه تفكيرنا .. إلى آخر ما سجله بكتابه : (الإسلام والعقل) ، ليعرف الصلة بينهما في نقاط منها :

1- جاء الدين هاديا للعقل في مسائل معينة هي : **أولا** ما وراء الطبيعة أي : العقائد الخاصة بالله سبحانه ، ورسوله - ﷺ - وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهي على وجه العموم . **وثانيا** في مسائل التشريع الذي ينظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية ، يجيء الدين هاديا للعقل ؛ لأن هذا العقل إذا بحث في هذه الأمور مستقلا فإنه لا يصل إلى نتيجة يتفق عليها الجميع . **وثالثا** : في مسائل الأخلاق : أي : الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحا .

2- جاء القرآن يفهمه العقل في المحكم فيه ، ولا يناقض العقل في المتشابه ؛ ذلك لأن القرآن : ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1] .

وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك بالمحكمات من الآيات استمساكا تاما ، وأن يعتصم بها اعتصاما كاملا ، وفي الوقت نفسه أن يسلم الأمر لله في المتشابه.

3- جاء القرآن حاسما لا يتردد ، ولا يقر التردد لأنه جاء بالحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الحق الذي كل ما عداه باطل ، وعلى من أسلم أن يتبع هذه المبادئ أو هذا الحق اتباعا لا تردد فيه ، ولا انحراف عنه .

4- جاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء، وتعالى الله عن أن يستشير المخلوق، وهذا هو موقف الدين من العقل، وهو موقف يقرنا عليه كل من له شعور ديني سليم.

5- نزل القرآن «ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحي ، والإنسان إنسان بالجانب الروحي منه ، وكلما سما الإنسان روحيا كان أرقى وأعلى في معنى الإنسانية» إلى آخر ما سجله بكتابه : (الإسلام والعقل) حيث يعظم دور العقل إلى جانب الالتزام بتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة .

بعد ذلك .. ننتقل إلى جانب آخر من حياته هي : مواقفه من بعض القضايا والأحداث التي جمعها الأستاذ «محمد شلبي» في كتابه عن الدكتور عبد الحليم محمود، والتي كانت تستدعي موقفا واضحا منه كقيادة دينية ، فكان لا يتوانى عن إعلان موقفه ، ومنها على سبيل المثال ما سجلته (مجلة الاعتصام) من الكتب المشتركة ؛

(1) آل عمران : آية 7 .

حيث عرضت فكرة تأليف الكتب المشتركة في الدين والأخلاق .. يشترك في وضعها علماء المسلمين ورجال الدين من غير المسلمين ، وبعد أن عرضت هذه الفكرة بيومين أو ثلاثة توجه إليه أحد الوزراء ليدرس معه خطوات تنفيذ هذه الفكرة والبدء بها ، ولكنه- رضى الله عنه - قال للوزير : من أذنك بهذا وطلبه منك؟ إن مثل هذه الفكرة إذا طلبت ، فإنما توجه إلينا من كبار المسئولين مباشرة ، ويوم يطلب منا مثل هذه الكتب المشتركة فلن يكون ردي إلا تقديم استقالتي .

فاعتذر الوزير الفاضل وقال له : أنا ما جئت إلا لأستطلع رأي فضيلتكم وأعرف حكم الدين ، ويوم أن تقدم أنت استقالتك لهذا السبب ؛ فسأقدم أنا استقالتى إثرك مباشرة . وهكذا ماتت فكرة الكتب المشتركة بفضل هذا الموقف الكريم للإمام الأكبر .

وموقفه من سخرية الزعيم الراحل عبد الناصر بالعلماء حيث كان رضى الله عنه غيورا على الأزهر وعلى كرامة الأزهريين ، كان رضى الله عنه يلبس من قبل (البدلة) بعد أن عاد من فرنسا ، وظل مرتديا لها وهو مدرس بالأزهر الشريف ، وفي يوم من أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وقف الرئيس يعرض بعلماء الأزهر الذين يفتون الفتاوى من أجل ديك يأكلونه !

« وهنا » شعر بهذه المهانة ، وهذا التعريض الشائن ، فما كان من الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله إلا أن ارتدى الزي الأزهري ، ونادى زملاءه أن يعودوا إليه . تحديا للزعيم الراحل فيما قال ، واعتزازا بالأزهر والأزهريين .

من ذلك اليوم ظل فضيلته رحمه الله محافظا على هذا الزي .. مناشدا كل عالم وكل طالب أن يعودوا إلى هذا الزي ، وأن يحرصوا عليه .

وموقفه من قانون الأحوال الشخصية حين روج بعض المسئولين للدعوة إلى تعديل هذا القانون وتقييد الطلاق ، وتعدد الزوجات ، حتى تمسخ الأحوال الشخصية التي نزلت من عند الله ، فما كان من فضيلته إلا أن أصدر بيانا يوضح فيه

خطورة هذا الأمر ، وأرسله إلى جميع أعضاء مجلس الشعب والمسئولين وإلى الصحف . وقد جاء في آخر هذا البيان :

وبعد ، فإن مما يشبه اليقين عندنا : أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام : إنه لا قيود على الطلاق إلا من ضمير المسلم ، ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

ومنع البيان حينذاك من النشر ، واجتمع الوزراء لينظروا في أمره ، وما انتهى الموضوع إلا بعد أن تمت الزيارة بينهم وبين رئيس الوزراء في ذلك الوقت ، وأعلنت الحكومة أنه ليس هناك تفكير على الإطلاق في تعديل قوانين الأحوال الشخصية الآن ، وقال له رئيس الوزراء في ذلك الوقت : تأكد يا فضيلة الإمام الأكبر أننا لا نصدر قانونا للأحوال الشخصية إلا إذا عرض عليكم ووافقتم عليه فضيلتك بالذات .

كذلك نقرأ موقفه من المحكمة العسكرية في قضية الجماعة المعروفة بجماعة «التكفير والهجرة» .. فقد أرادت هذه المحكمة أن تجر الأزهر وعلماءه للشهادة في قضية ليست أمامهم جميع وقائعها . فرفض الأزهر وعلماؤه .. فما كان من المحكمة إلا أن نددت برجال الأزهر وعلماء المسلمين ومجمع البحوث الإسلامية ، وكالت لهم التهم جزافا ، وألصقت بهم ظلما أنهم تهربوا من أداء رسالتهم .

فما كان من الإمام الأكبر رضى الله عنه إلا أن أصدر بيانا يكشف فيه حقيقة الموقف وقال في بيانه : « كان من واجب المحكمة أن تتريث وأن تصمم على الحصول على هذا الرأي - أي رأي الأزهر - مهما يكلفها ذلك من وقت ، فذلك منطق العدالة الذي لا محيص عنه ، وقد كان يجب عليها على أقل تقدير أن تضم إليها قضاة شرعيين ، يقفون موقفها ويشاركونها المسئولية ويتمكنون مثلها من الاطلاع كقضاة على جميع ظروف القضية ونواحيها ، فيتمكنون بعد ذلك من إصدار الحكم الصحيح» .

وهذا للأسف الشديد هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكن منه علماء الأزهر، وإن بحث علماء الأزهر في هذه القضية الفكرية وغيرها لا يمكن أن يكون متسرعا مرتجلا على النحو الذي حاولت المحكمة أن تضطرهم إليه ، وليس من شأن العلماء أن يخضعوا لظروف العجلة التي من المحتمل أن تكون الهيئة القضائية واضعة إياها في الاعتبار ، فالحكم العلمي لا يمكن أن يخضع لغير البحث الدقيق الرصين مهما احتاج إلى زمن .

وهذا ولا شك ، موقف شجاع في قضية كانت موضع اهتمام الرأي العام على العموم والحكومة على وجه خاص .

وموقفه من قانون الخمر؛ حيث كان رضى الله عنه مهتما بأمر الشريعة الإسلامية اهتماما لم نلحظه في أكثر شيوخ الأزهر الذين تولوا هذا المنصب ، فهو لم يقتصر في منصبه على أن يكون شيخا للأزهر يكتفي بمجرد تصريف شئون الأزهر الإدارية ، ولكنه جعل من منصبه أن يكون شيخا للإسلام يهتم بشئون المسلمين وفي مقدمة ذلك العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية .

لقد ندد في المحافل الرسمية بموقف السلطة التشريعية التي تراجعت من مشروع قانون تحريم الخمر وإباحته في أماكن معينة ، وقال : إن الإسلام لا يعرف أن تكون الخمر حلالا مباحا في الأماكن السياحية محرمة في غيرها .

كذلك.. كان للدكتور عبد الحليم محمود موقف لا يلين من الشيوعية وأتباعها، فكان حربا على الشيوعيين والإلحاد ، وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدولة بالمنبر اليساري والحزب التقدمي أصدر فضيلته البيانات وكتب الكتب والمقالات التي حكمت بالكفر على الماركسية والماركسيين والشيوعية والشيوعيين .

ونجد للإمام الدكتور عبد الحليم محمود موقفا من اليهود لم يتغير طوال حياته، خلاصته أن هناك كتابا من الكتب التي يجب أن يقرأها ويتدبرها كل مسلم، بل وكل

مسيحي وهو كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» ، سنرى فيه أن اليهود في مواثيقهم التي تعاهدوا عليها أن يفسدوا الإنسانية بكل ما يفسد ، ومن ذلك غمر المجتمعات بالأنواع التي تستجيب لها الغرائز في سهولة ويسر .

فاليهود من وراء الملذات المنحرفة وأنواع الموضة المنحرفة ، ومن وراء الآراء المنحرفة يشيعونها ويذيعونها بكل ما يستطيعون من وسائل النشر والإذاعة ، وهم يتبنون كل شخصية تكون نتيجة آرائها إفسادا للمجتمعات ، فإن نشأ مثلا شخص ملحد لا يعترف بالأخلاق ولا يقر بالفضيلة مثل «نيتشه» ، فإنهم يتبنون آراءه التي لا تعترف بأخلاق ولا بفضيلة ، ويقولون في مواثيقهم : نحن الذين رتبنا نجاح «نيتشه» .

وإذا جاء شخص وأنكر المثل العليا والمبادئ السامية ، وأعلن أن سلوك الإنسان في حياته لا يتبع مثلا أعلى ، ولا يسير متخذا هدفه الفضيلة وإنما تسيره في كل تصرفاته الغريزة الجنسية ، وينزل هذا الشخص بالأفراد في المجتمعات إلى أسوأ ما يمكن أن يتصور من انحطاط مثل «فرويد» ، فإن اليهود يتبنون آراءه ويذيعونها ، وهم يقولون صراحة في مواثيقهم : نحن الذين رتبنا نجاح «فرويد» .. مثلما قالوا من قبل عن نيتشه .

وعلى هذا النسق رتبوا نجاح «كارل ماركس» باعترافهم في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) .

كارل ماركس هذا الذي ينكر الدين والألوهية ولا يعترف بما وراء الطبيعة. ولما قيل له ما هو البديل لعقيدة الألوهية ؟ إذ لابد للإنسان من عقيدة – قال : البديل لها هو المسرح ، ألهوهم بالمسرح ، فإن في ذلك غناء عن فكرة الألوهية .

واهتم اليهود بالمسرح وأدخلوا فيه المسرحيات المنحرفة على مختلف درجات الانحراف .

وعلى هذا النسق أيضا رتبوا نجاح «داروين» واعترفوا بذلك ، لأن نظرية «داروين» تفسد على أصحاب الأديان أديانهم ، وعلى أصحاب الأخلاق أخلاقهم ، وتنتهي بأن كل أمر إنما هو نسبي العقيدة والأخلاق والتشريع ، ونظام المجتمع ليس في كل ذلك حقيقة ثابتة أو حقيقة مطلقة . وكل شيء من ذلك قابل للتغيير أو التطور إلى ما لا نهاية .

واليهود في آمالهم الكاذبة في إفساد الإنسانية إنما يهدفون إلى السيطرة عليها ، فإن المجتمعات : مسلمة أو مسيحية أو بوذية ، أو غير ذلك إذا فسدت فإنه من السهولة بمكان السيطرة عليها .

واليهود إذا .. يعمدون بكل ما يستطيعون إلى توافر الملذات الحسية الجنسية ينشرونها في كل مكان يستطيعون نشرها فيه .

وللإمام الأكبر عبد الحليم محمود في رأي معاصريه له كل التقدير والاحترام ، فنجد ذلك في رأي الشيخ «جاد الحق على جاد الحق» شيخ الأزهر السابق حيث نقرأ: «فقد العالم الإسلامي عالما فاضلا صالحا ، قاد الأزهر فترة طيبة ، ونشط في الدعوة إلى الله داخل البلاد وخارجها ، وكان رحمه الله ورعا تقيا يعمل لصالح الإسلام وتصحيح مسار العقيدة وأحكامها وتنقيتها مما علق بها في فترة الركود العلمي التي مرت بالعالم الإسلامي ..

وقد ظل يعمل حتى لقي ربه ، في سبيل عودة الحكم بالشريعة الإسلامية وأحكامها ، وقاد مجمع البحوث الإسلامية شوطا طويلا في الوصول إلى هذا العصر..

لقد كان وإلى آخر لقاء بيننا ، يعمل على إصدار دستور إسلامي يكون نموذجا للحكم الإسلامي في الدول الإسلامية ، موحدا لها على هدف واحد ، كما عمل على إصدار نماذج للتقنين من أحكام المذاهب الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة تحت

يد المقننين في الدول الإسلامية ، تقنن منها الحاجات التي تلزم المسلمين في هذا العصر».

وللدكتور «الحسينى هاشم» الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الأسبق نقرأ ما يكتبه عن أستاذه وصهره الإمام الأكبر هذه الكلمة : «ظل الأزهر منارة للعلم والعرفان ، ينشر نور كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - في أرجاء الدنيا ، يرسل البعوث إلى العالم أجمع ، ويستقبل طلاب العلم ليكونوا مصابيح الهدى والرشاد ..

ومنذ أن بنى الأزهر «جوهر الصقلى» منذ أكثر من ألف عام ، وشيوخ الأزهر يبنون صروحا من المجد ، ويضيفون جديدا من المعاهد والكليات ، وكل شيخ قد وضع أسسا ، وشيد صروحا ، وأسدى فضلا مشكورا وتاريخا مجيدا ..

وجاء الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود ، فوجد المعاهد الأزهرية منذ «جوهر الصقلى» إلى عهده حوالي أربعين معهدا ، فرأى أن طريق الإصلاح الواضح الذي لا جدال فيه ليخرج الدعاة العلماء يدعون إلى الله على بصيرة في مساجد الله في جمهورية مصر العربية ، وفي ربوعها ، وفي العالم الإسلامي أجمع ، رأى أن طريق الإصلاح إنما هو كثرة المعاهد الدينية ، وكليات الأزهر ..

وإذا كانت المعاهد الأزهرية منذ عهد « جوهر الصقلى » إلى عهد الإمام عبد الحليم محمود تقترب من الأربعين، فقد جعلها - بفضل الله وعونه - عبد الحليم محمود أضعافا مضاعفة ، أكثر من الألف معهد يعطر أرجاءها كتاب الله ، وتشرق فيها سنة رسول الله - ﷺ - ، ووجد الكليات الأزهرية عشر كليات فضاعفها إلى اثنتين وثلاثين كلية ..

ومن رآه - رضى الله عنه وأرضاه - وهو يضع حجر أساس معهد أو كلية ، رأى صوت الصدق المنطلق من قلب مخلص طاهر وهو فرح مستبشر ، تدوي من لسانه الصادق «الله أكبر الله أكبر الله أكبر» ، وكان يدرك إدراكا يقينيا فرحا مستبشرا أنه ببناء معهد ديني أو كلية أزهرية أو مسجد لله ، إنما يبني لنفسه بيتا في الجنة ..

من أجل ذلك .. اكتفى بهذه الثروة الطائلة المدخرة له في آخرته ، وهذا المجد الجليل عن أي بناء خاص له في الدنيا ، ولقي ربه طاهرا مطهرا ، وله أحباؤه وعشاقه المحبون للصدق والفضل والفضيلة ، والإيمان والزهد والنبل » .

والإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود في رأي الكاتب المجدد «خالد محمد خالد» نقرأ : « بالأمس رحل عن الدنيا رجل من الأخيار ، رجل اتقى الله وآمن برسوله فأتاه الله كفلين من رحمته ، وجعل له نورا يمشي به ..

كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة ، والسمات الوادعة في صمته ، وصوته وجميع سمته ، كان عظيم الصدق مع ربه ، ومع نفسه ..

وكان شجاعا في اختيار طريقه وفي السير على هذا الطريق غير ملق باله لنقد الناقدين ولوم اللائمين ، لم تكن له شخصيتان ، بل شخصية واحدة اتسقت اتساقا باهرا مع نور الشريعة والحقيقة معا ، وكان يذكر كلما ذكر الإخلاص ، والطهر ، والتقى ، ذلكم هو الإمام الأكبر عبد الحليم محمود .

عاش حياته متبتلا مخبتا أوابا ، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروادا ، وكان للمتقين إماما » .

وفي رأي المجدد والعالم الهندي «أبو الحسن الندوي» نقرأ : « تلقيت نبأ وفاة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر بغاية من الأسف والأسى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد كان الفقيد من كبار علماء الإسلام ، ومن المهتمين بالقضايا الإسلامية في كل مكان ، وقد عرفته عن كثب ورأيته من قريب فوجدت فيه عالما كبيرا ، وداعية مخلصا ومؤمنا تقيا واعيا ، ومسلما غيورا على دينه وإيمانه ، وكان واسع الاطلاع على ما يجري في العالم من تحركات ضد الإسلام ومؤتمرات للقضاء على شخصيته ، وهو بحكم ثقافته الواسعة ودراساته العميقة كان شديد الحرص على الإسهام في كل ما ينفع المسلمين ، وينهض بهم في جميع المجالات

الحيوية ، فكان لا يكل ولا يتعب بمتابعة الأسفار ومواصلة الجهود والنشاط في هذا السبيل ..

حضر فضيلته - رحمه الله - قبل ثلاث سنوات في المهرجان التعليمي الذي أقامته ندوة العلماء وترأسه ، فعشنا معه أياما عديدة في جو الحب والثقة والتعاون ، وكان المغفور له على جانب كبير من الورع والإخلاص والصلاح ، وذلك بجانب ما كان يتمتع به من تجارب واسعة في مجال التعليم والتربية ، فقد أفاد بوجوده الأزهر بوجه خاص ومصر بوجه عام في النواحي الدينية والعلمية ..

كانت لي به علاقة شخصية ، فكنت أحبه لصفاته المؤمنة ، ولغيرته القوية على الدين ، وإنني لا أعتبر وفاته خسارة للأزهر ومصر فقط ، بل إنها خسارة للعالم الإسلامى كله ، وأدعو الله تعالى أن يعوض عنه خيرا ، ويسد - بفضله - هذا الفراغ الذي نشأ بوفاته ، فإنه على كل شيء قدير » .

ونقرأ للكاتب الصحفى الكبير « محمد فهمى عبد اللطيف » : « تلقيت نعى الإمام الشيخ عبد الحليم محمود ، وكنت أقرأ أثرا من آثار قلمه ، فطويت صفحة الكتاب وقلت : لقد حان حين الرجل ، ومن الخير أن نقرأ صفحات حياته ، وهي صفحات حافلة بما يفيد وينفع ويهدي إلى الخير ..

وكذلك حياة المفكرين من أصحاب الإيمان والأذهان المطمئنة ، الذين يتركون حياتهم ثروة للفكر الإنساني وتراثا نافعا للناس ..

وحياة المغفور له الإمام عبد الحليم محمود كانت بالنسبة لي كتابا مفتوحا قرأته من الصفحة الأولى ، فقد كانت تربطني به رابطة الإقليم ، فهو من [بلبيس] تلك المدينة التاريخية التي تقع على تخوم الصحراء ، وهو من أصل عربي نقي ، وقد كان لهذا أثر واضح في سلامة فطرته ، وصفاء ذهنه ، ونفور طبعه من التعقيد في التفكير وفي أمور الحياة ، ثم جمعنا طلب العلم في معهد الزقازيق ، وكان هو في نهاية الدراسة

الثانوية وكنت ما أزال في الدراسة الابتدائية ، وكان يبدو طالبا متميزا في تفكيره وفي اتجاهه الثقافي ، فكان يقرأ الصحف والمجلات الأدبية ، وكان يتحرر من النطاق المدرسي ، فيقرأ الكتب الأدبية والمؤلفات الحديثة ، وكان بالنسبة لنا قدوة نتطلع إليها وكنا نخبة من الأذهان الشابة نقبل عليه ، ونسمع منه ، ونناقشه فيما نسمع ، وبهذا تأكدت بيننا وبينه المحبة والمودة والصلة التي لم تنقطع أبدا ، وكان هو ونحن في تقدير إخواننا الأزهريين طائفة خارجة من جادة الحياة الأزهرية في الثقافة والتفكير..

وفي التعليم العالي بالأزهر أكمل أستاذنا وصديقنا تعليمه الديني ، ولكنه لم يقنع بهذا ، ولم يجد فيه ما يكفي في تثقيف عقل مفكر ، فسافر إلى فرنسا للدراسة ، والحق أنه لم يذهب إليها بعقل الشيخ الأزهري ، ولكنه ذهب إليها بعقل مفتوح الفهم إلى معرفة كل شيء لم يقصر دراسته على الكتب المدرسية وسماع محاضرات المستشرقين ، ولكنه درس أوروبا بكل ما يضطرب فيها من مذاهب فكرية واجتماعية، وبكل ما يضطرم فيها من مذاهب فكرية واجتماعية ، وبكل ما يضطرم فيها من نعرات مادية وإلحادية ، وكان يدرس كل هذا دراسة فكر ورأي ، وبقي في فرنسا حتى نال الدكتوراه وعاد إلى مصر ..

عاد الدكتور عبد الحليم محمود إلى مصر وزارني في بيتي ، وكنت أعيش وحدي مع كتبي ، وكان يلبس هذا اللباس الذي نسميه بالبدلة ، ولكنه كان حاسر الرأس حتى إنني لم أعرفه عندما رأيته لأول وهلة ، وكأنه لاحظ هذا فقدم نفسه إلي قائلا وهو يبتسم: الشيخ عبد الحليم محمود ، وقال : إنني كنت أقرأ مقالاتك في «الرسالة» وأنا في فرنسا فكنت أذكرك دائما ، وجلسنا نتحدث ، وأدهشني أن الرجل الذي كان بالأمس أستاذا أجلس منه مجلس التلميذ ، وإنه حريص على أن يسمع مني لا أن يقول لي ، وأبديت له هذه الملاحظة فابتسم وقال لي : اطلب العلم من المهد إلى اللحد، وكلما أوغلنا في المعرفة ازددنا نهما إلى المعرفة ، ولن يقنع الإنسان أو يشبع

حتى يطمئن ، وكذلك أخذ الشيخ يواصل الدراسة والبحث سنوات في مصر حتى اطمأن ..

اطمأن الشيخ بالمعرفة ، وآمن بالمعرفة وكان إيمانه إيمان القلب والعقل ، حتى كان يتلقى الحياة بقلبه وعقله ، وكذلك كان تفكيره تفكير القلب والعقل ، وكان يعالج قضايا الفكر : المعاصرة وغير المعاصرة بالقلب والعقل معا ، وبهذا كانت براهينه تنبعث من القلب والعقل معا ، وكان في استطاعته أن يصل بالقارئ إلى الحقيقة من أقرب طريق ، وهذا هو السر في شدة التقبل لكل ما كان يكتبه عند الخاصة والعامة على السواء ..

إن الأسى على فقد المغفور له الإمام الشيخ عبد الحليم محمود ليس لأنه رجل صاحب منصب وجاه بهذا المنصب ، بل لأنه مجدد إسلامى كبير ، كانت به شخصيته الفكرية المستنيرة ، وكان له مذهبه الفكري المؤمن بتكريم الإنسان ، وقد استطاع بهذا المذهب أن يقدم للفكر عطاء سيبقى حيا في تاريخ الفكر الدينى والإنساني ، وليس موقف الأسى مما يسمح بالإفاضة في شرح هذا العطاء الفكري العظيم ، ولكنها كلمة تحمل طابع المناسبة ، دلالة على وفاء للإمام العالم ، وعلامة تقدير للمفكر الإسلامي الذي عاش مؤمنا مطمئنا ، ولقي ربه وهو مؤمن مطمئن » .

هذه الآراء وغيرها تؤكد دور العالم الصوفي الراحل الشيخ عبد الحليم محمود في تجديد الفكر الإسلامي .

* * *

الشيخ محمود شلتوت

إمام التقريب بين السنة والشيعة ، إمام الأزهر الأسبق : الشيخ محمود شلتوت من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة . وقد ولد عام 1311هـ وتوفى عام 1383هـ ، في إحدى قرى محافظة البحيرة ، وحصل على إجازة الأزهر الدراسية عام 1918م ، وأيد الزعيم الوطنى «سعد زغلول» في المطالبة بالاستقلال عام 1919م ، وفي هذا العام نفسه عين مدرسا بالمعهد الدينى بالإسكندرية ، فكان من المنادين بتطوير الأزهر الشريف ، وأخذ على عاتقه هذه المسئولية ، وظهر ذلك في مقالاته الفكرية ، وفي عام 1927 تولى منصب مدرس بالقسم العالي بالأزهر .

وحين تولى الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الأزهر ، ونادى بتطوير الأزهر كان الشيخ شلتوت أول المؤيدين لخطته ، ولما تولى «الشيخ الظواهري» مشيخة الأزهر عزل الشيخ شلتوت حيث لم يتنازل عن آرائه في تطوير الأزهر ، فعمل في المحاماة الشرعية إلى جانب عمله في نشر المقالات التي عبرت تعبيرا صريحا عن وجهات نظره في تطوير الأزهر .

واستمر على هذا الحال إلى أن عاد أستاذه وشيخه الإمام المراغي إلى مشيخة الأزهر مرة ثانية ، وهنا عينه وكيلا لكلية الشريعة عام 1935 .

وقد شارك الشيخ شلتوت في العديد من المؤتمرات العالمية كان أهمها : (مؤتمر لاهاي) حيث ألقى بحثا عن طبيعة القانون الإسلامى ، والتي كانت بمثابة نقطة التحول في الرجوع إلى الشريعة الإسلامية كمصدر للقانون .

وللشيخ شلتوت موقف مشهور من الملك فاروق ، وذلك عندما اقترح الشيخ عبد المجيد سليم بعد تعيينه شيخا للأزهر ، تعيين محمود شلتوت وكيلا للأزهر ،

وافق الملك ولكن على شرط أن يكف عن إلقاء الخطب والأحاديث بمسجد الأمير محمد علي بقصر المنيل ؛ وذلك بسبب الخلافات التي كانت بين الملك فاروق والأمير محمد علي ، وكان رد الشيخ شلتوت على هذا الشرط الاعتذار والثورة ؛ حيث قال : «أفضل أن أطرد من الأزهر مرة ثانية ، وأعاني من الجوع والفقر أنا وأولادي عن التنازل عن مبدئي وأطيع جلالة الملك» .

ونظرا لهذه المواقف العظيمة قبل الثورة كان الشيخ شلتوت من العلماء المقربين لهذه الثورة حيث عين وكيلا للأزهر عام 1957 ، ثم شيخا للأزهر عام 1958 ، وظل في هذا المنصب حتى كانت وفاته عام 1963 ، ليكون آخر الأئمة المجددين في القرن الرابع عشر الهجري .

وكان للإمام الشيخ محمود شلتوت العديد من الاجتهادات التى كانت تصدر تباعا في صورة توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت إبان توليه لمشيخة الأزهر ، ومنها موقف الإسلام من التفكير فيقول :

« كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السماوات والأرض ، برهانا واضحا على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام ، إذ العقل آلة التفكير ، والعلم ثمرته . إذا ، يكون كل ما ورد في القرآن هنا على التفكير ، هو إعلان عن فضل العقل ، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته ، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم ، وإيحاء بتحصيله ، فيقف الإنسان على الحقائق ، وتزول عنه غشاوة الجهل ، ويحرر من رق الأوهام والخرافات :

وبذلك .. كان الإسلام دين الفكر ، ودين العقل ، ودين العلم ، وحسبنا أن رسوله- ﷺ- لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر، والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ

مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وهكذا كان العقل ، وكان العلم والبرهان في نظر القرآن الكريم » .

وعن قيمة العلم في الإسلام .. يقول :

« وقد أدرك المسلمون الأولون إيحاء القرآن في كل ذلك ، فأدركوا قيمة العلم ، ومنزلته ، وضرورته في سعادة الأمم والأفراد : كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، فجدوا في محو أميتهم بكل الوسائل ، حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علم عددا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وجعلوا تعليم القرآن مهرا في الزواج ، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات ، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة ، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمر الله ..

رفعوا بالعلم مكانة الخامل ، وكان فيما بينهم نسب الوضيع ، وغنى الفقير ، وقوة الضعيف . وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية من المؤلفات والمترجمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة ما يشهد لهم بالتركيز العلمى ، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه ، التى وصل إليها بجهوده وتفكيره دون الوقوف عندما ترك السابقون بل نظروا وبحثوا ، واختاروا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة ، وكانوا حقا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله : ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾[2] تسلك إلى الخير طريقه ، وتسد دون الشر سبيله ..

وإني لأحس إحساسا قويا بأن النهضة العلمية آخذة بإخلاص القائمين بها ، المشرفين عليها، الفاهمين لها طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة،

(1) العنكبوت : 50 ، 51 .

(2) آل عمران : 110 .

ويرد آخرها إلى أولها ؛ فتنعم بما نعموا ، وتسعد بما سعدوا ، ونخلع ما نحن فيه من محن ، وتكون العزة كما يحب الله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ».

وعن جناية الجمود على الرأي في الإسلام .. يقول :

« إن الجمود في آراء المتقدمين ، وحظهم من العلم والمعرفة ، وأسلوبهم في البحث والنظر ، جناية على الفطرة البشرية ، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان ، وإهدار لحجة الله على عباده ، وتمسك بما لا وزن له عند الله ..

هذا ، وقد نشأ المسلمون في ظل ما قرره الإسلام ، ودعا إليه القرآن ؛ ففكروا ، وبحثوا ، وتعقلوا ، وطلبوا البرهان ، وأنكروا التقليد ، فسادوا وسادت بهم الأمم ، ثم لأمر ما انقلبوا على رؤوسهم ، وتولدت في أدمغتهم حمى التقليد ، فجهلوا أنفسهم ، وجهلوا الكون ، وجهلوا الحياة ، وتفرقوا في دين الله ، وكانوا شيعا ، فأبطلوا حجة الله على خلقه ، وصاروا حجة على دينه وشرعه ..

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر في أقوالهم ، وبذلك لبس الدين فيما بينهم أثوابا مختلفة الألوان ، مختلفة النسج ، وراجت عند الجميع البدع ، والخرافات، وعقدت على دين الله غبارا كثيفا ، فنفر الناس منه ، وأعرضوا عنه ، واتهموه بالاضطراب بين حلال وحرام ، صحيح وفاسد ، قوي وضعيف . وأخذوا يتأهبون للخلاص ، ناقمين على طوائف الدين مواقفهم ، من موروثاتهم التي جعلته في جانب وحياة الناس في جانب آخر ..

ألا فليعلم هؤلاء جميعا ، أن صدر الحياة الذي يتسع كل يوم ، وكل ساعة ، أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى ، فلينظروا في أي وضع يكونون ، وعلى أي منهم يسيرون حتى يحفظوا لله شرعه ويقيموا له دعوته » .

---

(1) المنافقون : 8 .

وعن موقف الإسلام من التقاليد .. يقول :

« والدين هو الحاكم على التقاليد . فما كان منها لا يخل بشيء من أحكامه ولا يترتب عليه ضرر يأباه الدين ، فإن الدين يقره ويسمح به ، وما كان منها يخل بشيء من أحكامه أو يستبيح ضررا أو فسادا يأباه الدين ، فإن الدين ينكره ويحاربه . ولقد جاء الإسلام وفي جميع البلاد التي دخلها تقاليد وصور عملية في نواحي الاجتماع ، فأقر الصالح منها وحارب الفاسد ، وحقق تلاؤما بين أهدافه وآثار التقاليد ، وكان الدين قوة للتقاليد الطيبة الصالحة ومطهرا من التقاليد الخبيثة الفاسدة ..

ومما يجب أن نعرفه هنا : أن الإسلام أطلق لأتباعه حق اختيار ما يرونه ، محققا لنهوضهم العلمي والاقتصادي والخلقي والاجتماعي ، ولم يقيدهم فيما وراء العقائد والعبادات والحلال والحرام بشيء مما يمنعهم من التقدم والنهوض ..

وليس من شك في أن جماعتنا وهي إسلامية قبل كل شيء ، نزعت في كثير من عصورها الماضية إلى كثير من التقاليد التي أنشأها العرف ، أو التي جرها إليهم تقليد الأمم المختلفة التي حكمتها واستغلت عقليتها وحياتها ..

وليس من شك في أن كثيرا من هذه التقاليد لا يتفق وأحكام الإسلام .. فتقاليد الأفراح والمآتم والأعياد وتقاليد طرق التصوف وزيارة الأضرحة ، تقاليد يأباها الدين ، ولقد امتدت التقاليد إلى دائرة العقيدة والعبادة والحلال والحرام ..

إذا ، فلابد من تشخيص هذه التقاليد والنظر فيها من جهة موافقتها للدين إلى السبيل الذي يحفظ لها شخصيتها الإسلامية أولا والذي ينهض بمستواها الاجتماعي نهوضا يحفظ عليها كيانها وأخلاقها ، ويمهد لها سبيل السير في الكمال ..

والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في رأي قادة الفكر الإسلامي المعاصرين يعتبر من المجددين المستنيرين ، فيقول عنه الإمام الأكبر الشيخ الدكتور «محمد سيد طنطاوي» شيخ الأزهر : وبعد انتهاء دراسته في الأزهر عين سنة 1919 مدرسا

بمعهد الإسكندرية الديني ، وفي هذه السنة اندلعت الثورة في مصر ضد الاستعمار الإنجليزي ، فشارك فيها فضيلته بقلمه ولسانه وجرأته المعهودة ، وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر للتحريض على محاربة الاستعمار ، ثم أخذ بعد ذلك يتدرج في المناصب المهمة بالأزهر ، حيث عين مدرسا بالقسم العالي بالأزهر ، ثم مفتشا بالمعاهد الدينية، ثم وكيلا لكلية الشريعة ، ثم مراقبا عاما لإدارة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر ، ثم وكيلا للأزهر ، ثم شيخا للأزهر في الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة 1958م ..

ولقد كان - رحمه الله - شعلة من النشاط الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي ، منذ مطلع شبابه ، فهو الفقيه الكبير ، والمصلح الاجتماعي ، والكاتب البارز ، والخطيب الممتاز ، والمدافع عن دينه وأمته بأسلوب بليغ ، وبحجة مقنعة ، وبعقل حكيم راجح . ولعل من أبرز الدلائل على أن فضيلته كان شخصية لامعة بالأزهر منذ تقلده للمناصب الهامة به ، أنه في سنة 1937 اختاره المجلس الأعلى للأزهر عضوا في الوفد المشارك في مؤتمر القانون الدولي المقارن ، الذي انعقد بمدينة «لاهاي» بهولندا .

وقد ألقى فضيلته في هذا المؤتمر المهم بحثا موضوعه «المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية» ، ونال هذا البحث استحسان أعضاء المؤتمر وإعجابهم ، فأصدروا قرارا بصلاحية الشريعة الإسلامية لمسايرة التطور المحمود ، وأنها مصدر من مصادر التشريع الحديث ، وأنها أصيلة وليست مقتبسة من غيرها من الشرائع الوضعية ، كما أصدر المؤتمر قرارا بأن تكون اللغة العربية- لغة هذه الشريعة- إحدى لغات هذا المؤتمر في دوراته المقبلة ، وأن يدعى إليه أكبر عدد ممكن من علماء الشريعة الإسلامية على اختلاف المذاهب والأقاليم .

ومن مناقب فضيلته - رحمه الله - أنه لم يمنعه نشاطه الديني والاجتماعي في مختلف الميادين ، من أن يؤلف المؤلفات الدينية .

أما الأستاذ الدكتور «محمود حمدي زقزوق» وزير الأوقاف فيقول :

« كان الشيخ شلتوت صاحب نشاط ملحوظ في الحياة الثقافية الدينية عن طريق العديد من المحاضرات التى كان يلقيها في المنتديات العامة ، والأحاديث الإذاعية والمقالات الكثيرة في الصحف والمجالات ..

لقد كان عالما مجددا واسع الأفق ، يدعو إلى الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام ، وكان يرفض العصبية الضيقة والتعصب الأعمى لمذاهب فقهية معينة . وكان يتطلع إلى تحقيق الوحدة الإسلامية بنبذ الخلافات الطائفية . فبدأ جهاده في «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» وقد كان متحمسا أشد التحمس لدعوة التقريب التي قال عنها :

[إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام. لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة]. ومن هنا أصدر فتواه الشهيرة - عندما كان شيخا للأزهر- بجواز التعبد على المذهب الفقهى للشيعة الإمامية، وهو المذهب الجعفري، كسائر مذاهب أهل السنة وقال : [ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب . فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات] ..

وقد كان الشيخ شلتوت في طليعة المنادين بالتجديد والإصلاح في الأزهر ، ويعد من ألمع الناشئين في مدرسة الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ عبد المجيد سليم ، فقد حمل راية الإصلاح والتجديد من بعدهم ، وطالب «بأن يعاد النظر في مناهج الأزهر وكتبه على الوجه الذي تعبر به تلك الكتب والمناهج عن النهضة الحديثة . وقال إن الذي نريده يعد انقلابا ، ولكنه انقلاب محبب إلى النفوس

الغيورة على ماضيها المتطلعة إلى مستقبلها . وقد وجدت دعوته آذانا صاغية من قادة الثورة حينذاك ، فصدر قانون تطوير الأزهر عام 1961 في عهد مشيخته للأزهر ..

وقد دعا الشيخ شلتوت في تفسيره للقرآن الكريم إلى ضرورة تجنب أمرين في التفسير وقع فيهما الكثيرون ، وكان ينبغي أن يظل القرآن بعيدا عنهما : **الأمر الأول** هو استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب في المجتمع الإسلامي ، والتنافس في العصبيات السياسية والمذهبية ، حيث امتدت أيدي أصحاب الفرق المختلفة إلى القرآن الكريم يؤولون آياته لتتوافق مع مذاهبهم أو يخرجونها عن بيانها الوضاح لكيلا تصلح لمذاهب خصومهم ، وبذلك جعلوا القرآن تابعا بعد أن كان متبوعا ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما . أما **الأمر الثاني** فهو استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة من القرآن . ويرى الشيخ شلتوت أن هذا اتجاه خاطئ في تفسير القرآن لعدة أسباب : أولها أن القرآن أنزله الله ليكون كتاب هداية للناس . وليس كتابا يتحدث إليهم عن نظريات العلوم ودقائق الفنون ..

وقد كان الشيخ شلتوت فقيها مجتهدا صاحب رأي ، وله فتاوى جريئة في المعاملات المالية التي لم تكن معروفة لدى الفقهاء السابقين ، فقد أفتى بجواز الأرباح المحددة بنسب للأسهم في الشركات التعاونية » .

ويقول العالم الجليل الدكتور « أحمد عبد المنعم البهى » عضو هيئة كبار العلماء المعاصرين : « لم يكن الشيخ شلتوت عالما إسلاميا فحسب ، وإنما كان زعيما من زعماء الإسلام يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولم شملهم والقضاء على الخلافات التي ورثوها من عهود بعيدة انتهت وتركت وراءها المسلمين يعيشون على ذكراها ، فلما أسندت إليه مشيخة الأزهر سارع إلى القضاء على هذه الخلافات بطريق عملى فأدخل دراسة المذاهب الإسلامية الأخرى في الأزهر ، وكان لهذا الإجراء صداه في نفوس المسلمين جميعا إذ اعتبروه خطوة كبيرة للتقريب والتوحيد ، وشكروا للشيخ شلتوت سعيه الحميد في هذا الصدد ..

ولقد كان شلتوت فقيها مجددا لم يرض لنفسه أن يمضى في ركب التعصب لمذهب فقهي معين ، بل كان يرى أن أصل التشريع ومنبعه الكتاب والسنة ، وأن الفقهاء استمدوا من هذا النبع الصافي فكان يرجع إلى مصدر التشريع ويأخذ منه ويؤيد الرأي الذي يراه متمشيا مع ما تهدف إليه نصوص الشريعة ..

ولقد ترك الشيخ شلتوت في الفقه الإسلامي مؤلفات ضخمة كانت المكتبة الفقهية في حاجة إليها ، ترك كتابه : (الإسلام عقيدة وشريعة) سار فيه على نهج جديد في تبويب الفقه مع توضيح العقيدة الإسلامية ، وترك كتابه من (ترجمات الإسلام) ، وكتاب (الفتاوى) ، وكتاب (الإسلام والعلاقات الدولية) ، و(القتال في الإسلام) ، و(القرآن والمرأة) ، وذلك عدا مئات الأحاديث الموجهة والندوات والمحاضرات والآراء التى كانت آية واضحة على غزير علمه وسمو تفكيره وحرصه على أن يفهم الناس الإسلام فهما واعيا ويأخذوا الفقه صافيا لا عسر فيه ولا تعقيد ..

وكما ترك شلتوت هذه الموسوعات ترك مدرسة تحمل هذا اللواء وتؤمن به ، وتمضي على نهجه في الدرس والتوجيه ..

وإذا كان العالم الإسلامى قد فقد بموته رائدا من رواده الأعلام ، فإن الإسلام قد فقد فيه عالما ومجددا وإماما من أئمته المخلصين الصادقين » .

ولعل أصدق الآراء حول إمامنا الأكبر الشيخ محمود شلتوت هى : ما يقرها ويعترف بها غير المسلمين ، خاصة الأوروبيين . وفي ذلك نقرأ رسالة الدكتوراه المقدمة لجامعة لندن عام 1988 من الباحثة «كاترين ذبيري» ، وموضوعها : « الشيخ محمود شلتوت مفكرا إسلاميا » ، والتى صدرت فيما بعد في كتاب تناولته بعض الصحف ، ولعلنا نجتزئ من ذلك بعض آراء الباحثة ، تلك التي أوردتها في رسالة حول موضوعات تشغل الفكر الإسلامي حتى اليوم ، ومنها :

المرأة في الإسلام حيث كانت الحاجة ملحة للفتوى في أمور متعلقة بالحياة الاجتماعية ، وخاصة خلال مرحلة انتقالية لتطور العصر والمجتمع ، ورحب الشيخ شلتوت بأخذ المهمة على عاتقه ، وكانت المرأة هي أول الموضوعات التي أفتى فيها.

وأهمية هذا الموضوع ترجع إلى ما وجه إلى الإسلام من نقد حول وضع المرأة ، فقد شعر الشيخ بأن النقد الذي وجه إلى الإسلام بصفة عامة يمثل وجهة نظر صارمة ، فقد تناسى النقاد الناحيتين : الإنسانية ، والروحية في الإسلام ، فجاءت ردوده توضح وجهة نظره واعتقاداته المثقلة بدراسته للإسلام وبفكره التقدمي .

وفي تناوله للعلاقة الزوجية وحقوق الطرفين : جاء رده على ناقدي العلاقة بين الزوج والزوجة ، بأن الزواج لا يعطي لأحد الطرفين الحق في المطالبة بحقوقه من الطرف الآخر ، بل غايته الوصول إلى التوافق الروحاني والانسجام بين كليهما وإحسان العشرة ، لا يعني : أن الزوجة تلبي نداء زوجها على الفور أو أن مسئولية الزوج تجاه الزوجة هي توفير الطعام ، بل هو شيء مصطلح عليه ، وباستطاعة كل فرد العمل به . إن الأسلوب يجمع بين المعاملة والتحدث ، بل وصل حد شرحه إلى تعريفه «بالحب الروحاني الذي يخرج من قلب الرجل ليملأ قلب المرأة ثم يعود ويترنح بين قلبيهما » وبذا يخلقان جوا من الأمان والهدوء .

وأقام الإسلام بهذا تنظيما غير مباشر لحقوق الرجل على المرأة وحقوق المرأة على الرجل ، ومن الضروري أن يساعد كل منهما الآخر في أداء وظيفته الأولى . والنص واضح في الأخذ برأي الآخر عند البت في أمور تتعلق بهما .

وفي موضوع إكراه الرجال للنساء ظهرت عدة وجهات نظر أمام النص القرآني حول : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1] ، وهنا تتمثل سلطة الرجل وتفضيله على المرأة في الإسلام .

(1) النساء : 34 .

والسلطة عند شلتوت لا تعطي الحق للزوج بإكراه زوجته ، ولكنها تمثل ما أسماه بنوع من الرياسة البيئية التي تعني بالضرورة قيادة الرجل وحمايته للزوجة أولا ثم للعائلة . وفي اعتقاد الشيخ شلتوت أن قوة الرجل وتفضيله على المرأة يرجع إلى قوة طبيعية لتكوينه الجسدي وعزمه .

وفي التأديب والهجر الذي يقره الإسلام فيقول :

وعن حق الرجل في تأديب زوجته سواء بالضرب أو الهجر لهذا الموضوع ، أن في اعتقاده أنه الوضع الطبيعي الذي يتطلبه الأمر في بعض الحالات .

ولكن أشار إلى أن التأديب الجسماني هو الملجأ الأخير بعد توجيه الموعظة باللسان ثم الهجر ، والهدف من هذه الخطوات هو الوصول إلى توافق في النزاع العائلي والمساعدة على حله في إطار الزواج ، وأن على الزوجة أن تستجيب لأي من هذه الخطوات حتى تساهم في استمرار حساسيتها الزوجية .

وفي نطاق قضية تعدد الزوجات وإتاحة حق الزوج بأربع ، وهي مسألة حساسة للغاية ومرفوضة رفضا تاما وخاصة من النقاد الغربيين ؛ ولذا فقد احتلت هذه القضية مكانة كبيرة في المناقشات بالرغم من أنها غير شائعة اليوم في المجتمعات الحديثة.

قامت بعض البلدان بإعادة تشريعها القانوني .. فحدد البعض عدد الزيجات التي يمكن للرجل زواجها ، والبعض الآخر من البلدان ألغى حق تعدد الزوجات كما حدث في تونس عام 1956 .

وراود الشك الشيخ شلتوت مما دعاه إلى القول بأن «تعدد الزوجات أحد الموضوعات التي ركز الصوت المتطرف الأوروبي الغربي ودعايته السامة على مهاجمتها التي جعلت من البشر ناقدين لها ، إلى الدرجة التي جعلت من المسلمين أنفسهم يمضون في خلق قانون يضع قيودا على الزواج من أكثر من امرأة ، والحق يقال : أن تكون فكرته عن تعدد الزوجات لا تعني كل فرد ، ولكن بعض الحالات فقط » .

لا تتعارض وجهة نظر الشيخ شلتوت إلى المرأة مع نص القرآن ، بل مثلتها تمثيلا واضحا .. وانحصر اهتمامه في تصريحه بحق المرأة ، ورغبته الجامحة في إنهاء طرق إهدار حقوقها والاعتداء على هذه الحقوق .

هذا إلى جانب أن وجهة نظره في ذلك أفصحت عن اهتمامه أيضا بمسألة الفسق ، فاعتبر تعدد الزواج حماية من فسق الرجال .

وقد صرح في إحدى المقابلات التى جرت معه حول تحديد سن الزواج الخاص بالمرأة بصفة عامة بأنه : ما هو إلا حماية لحقوق الرجل والمرأة على السواء . وفي ختامه أعلن وجهة نظره التقدمية في : أن المرأة لها حق العمل : في أي ميدان تختاره حتى ولو أرادت أن تكون واعظة .

وعن العلاقة بغير المسلمين وموقف الإسلام منهم ، فالتعريف بغير المسلمين يقسمهم إلى فئتين : الكافرين أو المشركين ، وأهل الكتاب .

وأهل الكتاب لهم مكانتهم الروحية لانتمائهم الاجتماعى إلى فئة انتماء دينى وروحاني ، ولذلك فهم منفصلون عن الكافرين . ويمتد تحليل الشيخ شلتوت إلى تعريف الكافرين بأنهم : لا يمكن أن يطلق عليهم كافرون لمجرد أنهم لا ينتمون إلى دين معلن ومعين ، بل يطلق عليهم كافرون إذا عرض عليهم الدين الإسلامى بفهم ووعى واضح وأعرضوا عنه ، أي عدم وجود العقيدة لديهم فقط لا يمثل الكفر ، ونص القرآن لا يعني أن رحمة الله لا تسع الكافرين والمشركين ولا تعني الخلاص منهم.

وذكر الشيخ شلتوت أن الحياة التى تعم عليها أشكال الهدوء والسلام بين البشر في الإسلام لا يمكن تحقيقها إلا بتوحيد المسلمين وغيرهم ولا يفضل في ذلك المشركين عن أهل الكتاب .

وفي إيضاح حق الزواج من أهل الكتاب وإعطائهم فرصة التعرف على جوانب الإسلام في جو يسوده المحبة والصداقة . وجاءت وجهة نظر الشيخ شلتوت صارمة الرد بعد أن ظهر أن بعض الزيجات ما هي إلا تشكيل أوروبي للرجل ، وحينذاك

تقام نشأة وتربية الأطفال على تعاليم غير إسلامية ، فوقف مؤيدا للرأي الذي ينادي الحكومات بإبعاد هؤلاء ، وأبعد من هذا طالب بوضع القيود على من يتزوج من أهل الكتاب .

ويعطى الشيخ رأيه في موقف غير المسلمين الشرعى ويوضح أن الأخذ بشهادة غير مسلم في المحكمة الشرعية شرعى ، وله ثقله بناء على أن وضع المسلم وغير المسلم في المجتمعات الحديثة متساو ، ففكرته في موضوع غير المسلمين كانت واضحة تمام الوضوح ، وكثيرا ما أعلن أن بناء مجتمع حديث يتطلب تكافؤا وعدلا بين أطراف هذا المجتمع .

أما في رده على المدعين بأن انتشار الإسلام يتطلب دائما استخدام السيف ، اعترض اعتراضا شديدا بقوله « إنهم المسئولون في الحروب في العصر الحديث » .

ويعني بذلك : الاستعمار الأوروبي والقوى الأجنبية .

وفي مواجهة ما شاع عن أن (حتى يتم تحقيق أمر الله في إقامة مجتمع مسلم ، لابد لهذا المجتمع من أن تحكمه سلطة أو حكومة مسلمة) وقد ذهب إلى أبعد من ذلك الرأي بعض المتطرفين في القول بأنه لا يمكن إقامة دولة إسلامية إلا تحت نظام وحكم بفكر إسلامي خالص .

ورد عليهم الشيخ شلتوت بالتعبير عن اعتقاده في النموذج الإسلامى الأول ، وأن الدولة هى التى تضم رعاياها ليس فقط المسلمين ، بل أيضا أصحاب الميول والاتجاهات الأخرى .

واستشهد بذلك على مثل من حكم الرسول ، حين طلب منه أن يحكم في نزاع بين اثنين وقد أنصف اليهودي بالحق على المسلم .

وختم شلتوت رأيه في هذا بقوله : « أسود أم أبيض ، قوي أم ضعيف ، مسلم أم غير مسلم ، الحاكم والمحكوم ، جميعهم يتساوون أمام الله وقانونه وعدله » .

* * *

عباس محمود العقاد

مثل معاصره طه حسين من مجددي القرن الرابع عشر الهجري الأستاذ «عباس محمود العقاد» . حيث ولد في العام نفسه الذي ولد فيه طه حسين أي عام 1307هـ وتوفي عام 1384هـ ، وحين نرصد جهوده في الإسلام ، نقول إنه ليس صدفة أن يعد العقاد - في تاريخنا الثقافي الحديث- من أكبر المدافعين عن الإسلام بالحجة والدليل، وأن يضع حقائق هذا الدين الحنيف في مواجهة أباطيل خصومه ، وأن يلتقي حول كتاباته الإسلامية عدد كبير من نقاده ومؤرخي حياته حتى وإن اختلفوا فيما بينهم أو اختلفوا معه ، وأن يتفق حول أمانة كتاباته الإسلامية عدد كبير من المتخصصين في الدين ، فيرى - على سبيل المثال لا الحصر - الشيخ «أحمد حسن الباقوري» أحد مجددي القرن الخامس عشر « أن العقاد كان خير لسان للعروبة والإسلام بما كتب من دراسات ، وأذاع من أحاديث تدافع عن العربية أوهام المبطلين وعن الإسلام شبهات المغرضين» .

كما يراه مجدد آخر في القرن الخامس عشر الهجري : داعية الإسلام الشيخ «محمد الغزالي» خير من كتب عن العقيدة والدين بوعي وإيمان من غير الأزهريين ، وأن يكون العقاد بين أفراد جيله من الأفذاذ صاحب أكبر عدد من المؤلفات الإسلامية يزيد على الثلاثين مؤلفا .

ليس صدفة إذا ، أن يصبح عباس محمود العقاد كل ذلك وأكثر ، إذ كانت كرامته قد تفتحت وهو صبي صغير على بيت يقدس الدين ، وأساتذة يحترمون الدين ، وبيئة تحافظ على الماضي محافظتها على الحاضر .

بيت يقدس الدين .. فها هو العقاد يحدثنا في سيرته الذاتية « أنا » عن أبيه وكيف تمثل صورته التي رآها ألفي مرة بل أكثر من ألفين ، حيث كان يراها كل يوم منذ أن فتح عينيه على الدنيا إلى أن فارق بلده أسوان بعد اشتغاله بالوظائف الحكومية ، فيقول عن أبيه : « تلك هي صورته على مصلاه يؤدي صلاة الفجر ، ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر ، إلى ما قبل الإفطار، ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ، ويعقبها بتلاوة الدعوات » .

ويعترف العقاد في سيرته الذاتية « أنا » بهذه المشادة المبكرة التي حدثت بينه وبين أبيه بسبب الصلاة ، فالأب يريد لابنه الذي لم يتم العاشرة أن يواظب على الصلاة في أوقاتها ، وكان أثقل ما يعانيه هو يقظة الفجر في الشتاء ، والطفل شأنه كبقية الأطفال يزين لهم النوم في هذا الوقت المبكر فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف .. هنا حدثت مشادة ليس سببها أن الطفل ينفر من الصلاة ، وإنما السبب هو شدة الأب في تكليف الابن بما لا يطيق قبل الأوان . وعلى الرغم من هذا كان العقاد يخف إلى المسجد لأداء الصلاة، في مواعيدها. وينشد- وهو طفل- على المئذنة أناشيد الجمعة ، وظل ينشدها وينظمها ، ولا يذكر للمؤذن أنه ناظمها حتى لا يستصغرها ويمنعه من إنشادها .

ونفس ما لاحظه العقاد في أبيه لاحظه أيضا في أمه ، فيحدثنا في صفحات طوال عن إيمان هذه الأم واعتكافها ، فيقول : « ورثت عن أمي تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها ، ففتحت عينى أراها وهي تصلي وتؤدي الصلاة في مواقيتها، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلي في شبابها » .

وفي المدرسة وفي الحياة ، التقى العقاد برجال كانوا بمثابة أساتذة في المدرسة ، التقى بالشيخ «محمد فخر الدين» مدرس اللغة العربية ، ومن قبله الشيخ «أحمد الجداوي» الذي حضر العلم في الأزهر، وزامل الإمام «محمد عبده» أيام السيد

«جمال الدين الأفغاني». وفي سيرته الذاتية يذكر العقاد أنه كان يتردد على مجالس الشيخ الجداوي ويستفيد من علمه . وفي المدرسة رأى العقاد وهو تلميذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الذي صادف أن قام بزيارة لهذه المدرسة ، ويومها أعجبت ثقافة العقاد وهو طفل الشيخ الإمام إلى درجة أنه تنبأ له بالمستقبل في الكتابة . ويحدثنا العقاد في سيرته عن الشيخ الإمام وتأثيره ، فيقول : «والشيخ محمد عبده في اعتقادي أعظم رجل ظهر في مصر وما جاورها منذ خمسة قرون ، وأثره في نفسي من أقوى الآثار».

ويخرج العقاد إلى ميدان الحياة فيلتقي بالكثيرين ، إلا أن التقاءه - خاصة - بالشيخ «محمد فريد وجدي» ، هذا الكاتب الإسلامي ، كان له عظيم الأثر في حياة العقاد .

وفي البيئة ، يفتح العقاد عينيه على بلدته أسوان ، فرأى التقاء الماضي بالحاضر ، وعلى حد قوله : «في أسوان : التاريخ حي يرزق ويتنفس الهواء ، لأنه ماثل شاخص في الأحياء» ، وفي هذه المدينة العريقة ، أدرك العقاد وهو طفل صغير قيمة المناسبات الدينية من اهتمام أبنائها .

وهكذا ، نرى أن الفكرة الإسلامية عند العقاد نبتت في الوسط الاجتماعي المناسب على نحو رأيناه فيما بعد في هذه المؤلفات التي زادت عن الثلاثين ، والتي قدمت زادا ثقافيا للقارئ أفضل مما تقدمه هيئة علمية أو معهد متخصص ، لاستيعابها جوانب كبيرة من التفكير الإسلامي .

ومن هنا ، من تعدد هذه المؤلفات ، ومن تنوع اهتماماتها ، أصبح من الضروري تبويبها وتنسيقها حسب موضوعاتها . فالعقاد حين يكتب العبقريات ، غيره حين يترجم للشخصيات الفذة في تاريخ الإسلام ، غيره حين ينشئ الدراسات والأبحاث حول أهم القضايا الإسلامية ، ولعل ما يربط بين عبقرياته وشخصياته ودراساته وأبحاثه في الإسلام هي صفته كأديب مؤرخ ، وأدبه في التاريخ هو كأدبه بوجه عام : أدب الفكرة الواعية .

ولهذا .. رأينا في مجال آخر : أن البحث فيما كتبه العقاد عن الإسلام يقتضى التمييز بين تناوله للعبقريات والشخصيات والأبحاث والدراسات ، وهذا يقتضى أيضا تأمل كل واحدة على حدة ، حتى يمكن الاقتراب من المنهج الذي اتبعه العقاد في تناوله للمادة الإسلامية التي أمامه .

مثلا في محاولة للكشف عن المنهج الذي اتبعه العقاد في العبقريات ، رأيناه يهتم بإيجاد مفتاح للعبقري الذي يتعرض له ، حتى يستطيع فتح مغاليق شخصية هذا العبقري ، ليعرف مدى عظمته وحدود هذه العظمة ، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات ، وقيمة هذه الأعمال والأقوال بالنسبة للإنسانية عامة .

ولكى يفي العقاد بهذا المطلب ، كان عليه أن يتفهم معنى مفتاح هذا العبقري ، الأمر الذي جعله يقوم بالتحليل النفسى الدقيق لهذه الشخصية التي يراها عبقرية ، ثم الإحاطة الشاملة لملابسات العصر الذي عاشت فيه .

وقد يحدث أن يتشابه مفتاح إحدى شخصياته مع مفتاح شخصية أخرى . وهنا يبحث العقاد عن ثمة اختلافات في السلوك الإنساني لهاتين العبقريتين المتشابهتين إلى أن يعثر على ما يميز بينهما .

فمثلا : عند البحث عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجده في طبيعته كجندي ، ونفس هذا المفتاح - طبيعة الجندية - وجده لعبقرية خالد ابن الوليد . وهنا يوضح العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر (رضى الله عنه) تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحيتها «الروحية» ، في حين تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحيتها «الحيوية» ، أو بعبارة أخرى كانت جندية ابن الخطاب - عند العقاد - متزنة حكيمة ، في حين جندية ابن الوليد مدفوعة هاجمة .

لكن من هو العبقري عند العقاد ؟ العبقري : يقيس الأشياء بمقياسه الخاص ، العبقري : إنسان لم يخلق لخدمة نفسه أو أسرته أو عشيرته وكفى ، بل هو خلق لخير

إنساني عام ، وأوتي من القوة ما يخدم به غيره ، ولو اتخذ هذا الخير الإنساني العام صورة عالمية أو قومية أو وطنية أو قبلية .

العبقرية عند العقاد : تنمو على البذل والعطاء ، ولا تتورم بالنهب أو السلب أو الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر . باختصار ، عظمة العبقري عند العقاد هي التي تقول : «نحن» ولا تقول «أنا« مبتورة الجذور والفروع عما حولها ، وحتى لو سمعت منها «أنا» فلا تفهم من معناها إلا «نحن» .

والعقاد حين يكتب عبقرياته ، لا يكتفي بالعرض الفوضوي أو المنظم تنظيما آليا أو شبه آلي ، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة ، وينفخ فيها من روحه ، وروح العبقري موضوع الدراسة ، فيحييها في نفوس قرائه حتى يتعاطفوا مع عبقريته ، فيجدوا في نفوسهم بعض فضل من أفضالها ، ويلموا ببعض جمل من لغتها. ومن ثم يشعر القارئ بالغبطة ؛ لأنه يدرك بأنه ارتفع فوق نفسه .

والعقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتاب المآسي أبطالهم فيستسلمون إليهم ، ومن هذا التشيع لبطل المأساة ، تتطهر النفوس من أدرانها ، وهذا الجانب هو الذي يحركه العقاد في نفوس قراء عبقرياته ، فيشيعون معه إلى جانب العبقرية التي يكتب عنها بالقدر الذي يمضي بهم إليه ، وكثيرا ما يذهبون في تشيع لهذا العبقري إلى أبعد مما كان يريد العقاد ، والسبب في هذا أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره - كما يتفق أغلب نقاد العقاد - ومؤرخيه ، فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهي قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير الذي يكاد يدفع الإنسان إلى التغني بها .

والعقاد لا يكتب حياة العبقري أو يصور صورته إلا وهو داخل معه في إهابه ، متلبس به ، يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، فيقف على أسرار العبقري من داخل نفسه هو ، لا من مجرد ما ينسب إليه من أخبار وأعمال وأقوال ،

سواء كانت صحيحة أو منحولة . لذا ، ترى شخصية العقاد أمامك في كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معا .

وهناك ملحوظة أخيرة ، أشار إليها مؤرخو العقاد ونقاده ، مؤداها : أن العقاد لا يتحفظ في الثناء على «العبقري» أو أعماله . ولماذا يتحفظ مادام يجد في هذه العبقرية الإسلامية ما تستحق عليه ثناء ؟! والسؤال : هل روح الثناء هذه تعطل ملكة التقييم عند العقاد وتضعفها ؟ والإجابة بالنفي ؟ فهذه الملكة ناشطة عند العقاد ، وروحها جياشة في كل ما يصدر من كتابات .

وبهذا المنهج الذي توصلنا به إلى فهم عبقريات العقاد المعروفة ، وهي : «عبقرية محمد» ، و«عبقرية الصديق» ، و«عبقرية عمر» ، و«عبقرية الإمام» و«عبقرية خالد» .

لكن العقاد - كما قلنا - حين يكتب العبقريات، غيره حين يكتب الشخصيات، وربما نلمح هذا الفرق عندما نقرأ تقديمه «لمعاوية بن أبي سفيان» كشخصية ... فالعقاد في تناوله لهذه الشخصية فرق بين القدرة والعظمة ، والشخصية والعبقرية حيث قال : « أما حين وصفت الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده ، واحتجان منافعه والإضرار بغيره ، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه . ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم . فنحن نقدر الإنسان بمقداره ، عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ، ولم تكن من وراء العمل نية ، ولكننا إذا عظمنا الإنسان ، فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية بأسرها ، وتعود عليها في منافعها وخبراتها . فكل عظيم قدير ، ولكن ليس كل قدير عظيم » .

وبهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقريات العظيمة .

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن قارئ عبقريات العقاد وشخصياته الإسلامية ، لماذا جعل عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان من الشخصيات ، ولم يجعلها من العبقريات ، مثل : الإمام علي ، والفاروق عمر ، والصديق أبي بكر؟

أجاب العقاد مرتين عن هذا السؤال : أولهما حين سأله نفس السؤال تقريبا المفكر والمجدد الإسلامي «محمد كرد علي» قائلا : لماذا لم تكتب لنا كتابا عن معاوية كما كتبت عن على ، وكان رد العقاد : « إن صاحبك معاوية أراد الدنيا وأراد منها أن يكون ملكا فكان . ثم مات فماذا يريد بعد هذا ؟ الذي يطمع أن يكون ملكا أو وزيرا أو نائبا ، ثم ينتهك كل الحرمات ليصل إلى ما يرغب ويطلب ماذا نفعل له؟! .. أتريد بعد أن نخر له ساجدين في حياته وبعد موته ؟! » .

وأجاب العقاد مرة ثانية حين قدم شخصية عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فأكد بأن سيرته لا تبرز لنا عبقرية ، مثل : عبقرية الصديق ، أو عمر ، أو على ، أو خالد بن الوليد . ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث العقيدة والإيمان . لذلك ، فهو لا يؤمن بالعبقرية لضمان رضا الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو النورين : نور اليقين ونور الخلق الأمين .

والشخصيات التي قدمها العقاد ، ليست صور أعلام ذوي حظ واحد في القدرة والكفاية ، ولو أنها كانت كذلك لما غض هذا من شأنها . فمن كان يعرف حرفا واحدا من أبجدية الكفايات الإنسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الإنسانية ، ولكن لا شك أقل وعيا ممن يعرف جملة حروف منها . وشخصيات العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الإنسانية ، لعلها في العلم والإدارة والسياسة والحرب .

يغلب على شخصيات العقاد الإسلامية أنها تنفذ إلى حقيقة القدرة الإنسانية معللة ، واختلاف نمطها عن أنماط الكفايات الأخرى . فلا نخلط بين هذا وغيره من ذوي المواهب والملكات التي ترفع صاحبها أو لا ترفعه .

في شخصيات العقاد الإسلامية يكمن سر ، لعله في : سهولة الأداء عن كل ذي قدرة ، أيا كان نوع قدرته وحظه منها ، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة عن غيرها . ولهذا ، تبدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها، فتسلمتها براعته دفعة واحدة ، شأنها شأن بدء الحياة في خروجها من الأرحام إلى أيادي القوابل .

إن العقاد كان يندمج مع شخصيته أثناء كتابتها ، حتى إنه يذكر أنه كان يكتب الفصل الواحد من «الحسين أبو الشهداء» وعيناه مغرورقتان بالدموع ، مع أنه يفترض فيه كمؤرخ أن يكون محايدا ولكن ما العمل ، وهو أديب فنان يحس ويشعر ويحلل الحدث ، قبل أن يكون شاهدا ومؤرخا يسجل ويدون ؟!

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الأدبية ، أسلوب لم يبتدعه العقاد ، فقد سبق أن استخدمه كتاب أجانب ، مثل : «بلوتارك» و«كارليل» و«أندريه موروا» و«إميل لودفيج» . وكتاب عرب في مقدمتهم : الدكتور « طه حسين » ، والدكتور « محمد حسين هيكل » ، والأستاذ « أحمد أمين » .

هذا المنهج الذي توصلنا به إلى معرفة التمييز بين العبقرية والشخصية .. بين العظمة والقدرة ، استطعنا التعرف على شخصيات العقاد الإسلامية ، وفي مقدمتها «فاطمة الزهراء والفاطميون» و«الصديقة بنت الصديق» و«أبو الشهداء : الحسين ابن علي» و«ذو النورين : عثمان بن عفان» و«بلال بن رباح» و«عمرو بن العاص» و«معاوية بن أبي سفيان في الميزان» .

بعد محاولة الكشف عن منهج العقاد في العبقريات والشخصيات ، ننتقل إلى محاولة الكشف عن منهجه في الدراسات والأبحاث الإسلامية والتي أخرجت كتبا ،

في مقدمتها : (الله) ، و(الفلسفة القرآنية) ، و(حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) و(وما يقال عن الإسلام) ، و(التفكير فريضة إسلامية) ، و(الإنسان في القرآن) ، و(المرأة قي القرآن) ، و(الإسلام في القرن العشرين) ، و(الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) ، و(الديمقراطية في الإسلام) ، و(مطلع النور) .

إلى جانب بحثين في كتابين عنوانهما : (أبو الأنبياء إبراهيم الخليل) ، و(المسيح والكشوف الحديثة) ، وكتب أخرى عن فلاسفة المسلمين ومفكريهم ، وفي مقدمتها : كتاب عن (ابن رشد) ، وآخر عن (الغزالي) ، وثالث عن (ابن سينا) ، ورابع عن (الكواكبي) ، وخامس عن (عبقري الإصلاح والتعليم : الإمام محمد عبده) ، إلى آخر هذه الأبحاث التي تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية .

والسؤال الآن : ما النهج أو الأسلوب الذي اتبعه العقاد في كتابته لهذه الدراسات والأبحاث ؟

بادئ ذي بدء ، يتراءى لنا العقاد من قراءته أنه يكتب وفي ذهنه فكرة يؤمن بها منذ الثلاثينيات وما قبلها ، وهي : أن الإسلام دين قامت على مبادئه وقيمه حضارة. فالحضارة العربية التى شهد لها أعداؤها من المتعصبين لغير الإسلام ما قامت إلا بعد الإسلام . ولعل هذه الفكرة التى كانت محور تفكير العقاد في أبحاثه ودراساته الإسلامية يعلنها المستشرقون اليوم والمفكرون الأجانب ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الفرنسى «جارودي» ، الذي يعلن أن التبرير الوحيد لإسلامه هو أنه اكتشف في الإسلام - بعد طول تفكير وتأمل ودراسة وبحث - أنه الدين الوحيد الذي تقوم على أكتافه حضارة أنارت أوروبا في عصور الظلام .

الإسلام دين تقوم عليه حضارة ، هى فكرة العقاد . فهو حين يحدثنا عن الإسلام .. يقدمه - عن فهم وعقيدة - على أنه نظام كامل تتحدد فيه الخطوط لإقامة مجتمع كبير متكامل ، في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ولهذا ،

نرى العقاد حين ينبري لكتابة هذه الأبحاث والدراسات يشغله أمران مهمان من منطلق مسئوليته كمفكر ، وعقيدته كمسلم .. هما :

1- الدفاع عن الإسلام ضد أباطيل خصومه .

2- تقديم الصورة الحقيقية للإسلام .

والأمران وجهان لعملة واحدة ، أو لحقيقة واحدة ، مؤداها : أنه حين يبحث عن الإسلام في معناه الصحيح ، فإنه في نفس الوقت يدافع ضمنيا عن الإسلام .

والحق .. أن أصول المنهج مستمدة من فكر الشيخ الإمام محمد عبده ، فقد مضى العقاد في أثره ، يؤمن بأن الإسلام دين عالمى صالح لكل الشعوب ، إذ قرر للإنسانية مبادئ لا يمكن صلاحها بغيرها ، مفوضا للعقل الإنساني أن يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الأطوار الاجتماعية التى تتغير فتلعب النظرية دورا كبيرا . وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة في تقديمه لكتاب : (الفلسفة القرآنية) ، حيث يقول «موضوع هذا الكتاب هو إصلاح العقيدة الإسلامية» ، ووفقا لهذا المنهج ، نرى العقاد يقدم لنا معظم دراساته وأبحاثه .

وفكرة ثانية بثها الإمام محمد عبده في كتبه ، وتأثر بها العقاد في كتاباته ، وهى أن الإسلام يفرض على الناس التفكير ، والاحتكام إلى العقل في إثبات عقائده وتعاليمه الأساسية ، وأنه لا بأس من الانتفاع بالإسلام في العلم وجميع شئون الحياة . إننا نجد العقاد يتأثر بهذه الفكرة ويفرد لشرحها كتابا بأكمله هو «التفكير فريضة إسلامية» الذي يستهله مسجلا بأن من مزايا القرآن الكثيرة .. مزية واضحة هى : التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف ، ويقول: « إنه لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه .. » . وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الإنشائية الوازعة عن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للأحكام الراشدة المستبصرة . وبذلك يعم الخطاب في

القرآن العقل بكل صوره وخصائصه ووظائفه ، ولا يذكره عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان السماوية الأخرى .

ومعروف ، أن الإمام محمد عبده عني عناية خاصة بالرد على خصوم الإسلام ، وعلى ضوء هذه العناية كتب العقاد مؤلفيه : (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) و(ما يقال عن الإسلام) ، وقد حاول كثيرا أن يدلل على : أن الإسلام وضع للإنسانية صورة رائعة من الإصلاح الاجتماعي ، وهو دائم الحديث عن ذلك في بقية كتبه ، فالإسلام كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطي سليم ، سجله العقاد في كتابه : (الديمقراطية في الإسلام) ، كما عني في كتابه : (مطلع النور) ببيان أن الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها ، بحيث غيرت من لوازم الإنسانية وحاجتها ودواعيها . وسوف نراه في كتابه : (الإسلام والقرن العشرون) يتحدث عن قوة الإسلام الغالبة الصامدة على مر التاريخ ، كما تحدث عن الدعوات التي انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر وأطوارها مع نهضات الإصلاح . وهو دائما إذا تحدث عن مستقبل الإسلام ملأته الثقة والأمل .

يضاف إلى ذلك : تأثير الإمام محمد عبده في العقاد . فضلا عن إمكانية العقاد نفسه على الإقناع والدفاع ، والرد بالحجة والدليل ، وهي أمور عرف بها العقاد .

على ضوء هذا المنهج ، أمكننا تمييز أبحاث العقاد ودراساته بين عشرات الكتب. وعلى ضوئها مع غيرها من الأنشطة الثقافية المتميزة .

* * *

أمين الخولي

عميد جماعة الأمناء بمصر والعالم العربي : الراحل «أمين الخولي» من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1374هـ ، كان إلى جانب منهجه في النقد والدراسات الأدبية ، وأستاذيته للغة العربية وأدائها بالجامعة. كان صاحب عدد من الكتب والدراسات الإسلامية التي تناولها بمنهج ، خلاصته : التجديد والتطور الذي هو في الوقت نفسه دعوة كانت تنسب إليه .

إن دعوة أمين الخولي للتجديد والتطور والإصلاح التى عرفناها فيما بعد كانت مبكرة ، لعلها نشأت معه وهو بين جدران مدرسة القضاء الشرعي ، في لحظات إصراره على دراسة تجمع بين أصالة الماضي وتطور الحاضر .

من المؤكد أن هذه النزعة التجديدية في التفكير الإسلامى التى ظهرت عند أمين الخولي ، في صورة مذاهب جديدة لتناول المادة الإسلامية لم تنشأ بعد تخرجه عام 1920م، ليكون ضمن هيئة التدريس بمدرسة القضاء الشرعى، أو في عام 1923م حين ركب البحر متوجها إلى أوروبا ليعمل هناك إماما للمفوضية المصرية [بروما] ، ثم للمفوضية المصرية [ببرلين] ، وفي عام 1927م عاد إلى وطنه بفكر جديد ليواصل تدريسه لطلاب القضاء الشرعى ، أو في العام التالي حيث ينقل إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) كمدرس ثم أستاذ مساعد ، ثم أستاذ ، ثم رئيس قسم اللغة العربية حتى عام 1953م ، حيث ينقل ليعمل مستشارا فنيا بدار الكتب عام 1953م ، ومديرا لإدارة الثقافة بوزارة التربية عام 1955م .

كما أن هذه النزعة التجديدية عند أمين الخولي لم تظهر مع هذه الإنجازات الضخمة التي تحققت له في حياته . فلم تظهر مثلا سنة 1943م حيث كون مدرسة

هي الأمناء : مدرسة الفن والحياة ، تلك التي تعمل لتحقيق أهداف فنية نظرية عملية . وتتلمذ عليها كثيرون من أساتذة اليوم والتي أصدرت عام 1956م مجلة «الأدب» لتحقيق هذه الأهداف ، كذلك لم تظهر هذه الروح بعد أن عين بمجمع اللغة العربية سنة 1961م .

بالقطع ، لم تظهر هذه الروح التى قوامها «التجديد - التطور - الإصلاح» في أي مرحلة من هذه المراحل التى هى بمثابة علامات في حياة أمين الخولي ، وإنما كان ظهورها مبكرا ، بين جدران مدرسة القضاء الشرعى ، لتستمر كمنهج حياة في أقوال وأعمال وكتابات أمين الخولي ، حتى آخر يوم في حياته ، الذي عاجلته المنية يوم رفض - كما تعبر عن ذلك قرينته الدكتورة بنت الشاطئ - قائلة : « وأبى أن يستجيب لضراعتى ، وأنا أشهده ساهرا في فراشه ليلة بعد ليلة ، يعد مواد العدد الجديد - من مجلة الأدب - ويدبر ورقه ونفقاته ، وينسق فهارسه ، ويصحح تجاربه..

وظهر العدد في موعده ، صباح اليوم السابع من شهر مارس ختاما لسنة الأدب العاشرة عام 1966م ..

وفي اليوم نفسه ، عاودته الأزمة ، ولاح على أفقنا ظل نذير جزع له من جزع من الأهل والأحباب ، وتشبثت بالرجاء في أن يجتازها من رصيد عزيمته ، والمدخر من طاقة حيويته ..

وغرني الأمل (الحديث للدكتورة بنت الشاطئ) وأنا أراه على عهدي به متوهج الحيوية ناضر الفتوة متألق الملامح ، إلى أن لمحته عصر الأربعاء المشئوم ، التاسع من مارس سنة 1966م ، يغمض عينيه بعد أن استوعب وجودنا كله بنظرة ثاقبة ، وبدأ المشهد الفاجع لرحلة الإياب .. » .

هذه الروح التجديدية ، والتي أصبحت بالنسبة لصاحبها أمين الخولي رسالة استمر يضطلع بها منذ كان بمدرسة القضاء الشرعي ، حتى فارق الحياة كما رأينا ،

هي نفسها التي (همس بها) رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور «إبراهيم مدكور» لتلاميذ أمين الخولي المعروفين بالأمناء مناشدا إياهم أن يواصلوا رسالة أستاذهم حيث قال : « إن أستاذكم كان صاحب رسالة ولا شك في أنه لقنكم إياها ، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح ، كان ينشد تجديدا شاملا في المظهر والمخبر . وأذكر أن مشكلة توحيد الزي شغلتنا معا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة ، كان يؤمن بالإصلاح إيمانا جازما ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها فينصب على العادات والتقاليد ، ويشمل الأنظمة والقوانين ، والفكر واللغة فنادى بإصلاح الأسرة ، وكتب في إصلاح الأزهر ، ورسم سبلا في إصلاح النحو وتطوير اللغة ، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الأعمى ، ويرى أن الدين متين ، وأن الشريعة سمحة وقد قبلا ، ويقبلان كل تجديد وإصلاح ، لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة ، التي ظهرت في آخر مؤلفاته : (المجددون في الإسلام) . أما مجرد محاكاة الغرب ، والافتنان ببدعه ومستحدثاته ، فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التي تؤدي إلى الفناء . كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، ويربط حاضرنا بماضينا ، ويبقي على معالم الحضارة الإسلامية التي تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية .. » .

لكن .. كيف كان يهدف أمين الخولي إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، إصلاح يربط حاضرنا بماضينا ، إصلاح يبقي على معالم حضارتنا الإسلامية التي تعتمد على أصول تختلف عن الحضارة الغربية ؟ كيف صنع هذا في حياته ، وأصبح استمراره وتطويره أمانة في أعناق الأمناء بعد مماته ، هذا بعينه السؤال عن منهج التجديد والإصلاح في تفكيره الإسلامي .

وقبل أن نسجل لملامح وخطوات منهج أمين الخولي في التفكير ، لنا أن نذكر ملاحظة مؤداها أنه بسبب هذا المنهج استهدف صاحبه للعديد من الهجمات ، سواء كانت من أبناء جيله أو حتى من هم في مثل تلاميذه .

ومن هنا ، وجب على الشيخ أمين الخولي ، وقد خرج علينا بمنهج جديد في التفكير الإسلامي ، أن يدرك كل هذه الجوانب . ولعل هذا الإدراك من الشيخ أمين الخولي ، جعل نقاده يقفون طويلا عند توصيفه .. هل هو من المجددين حقا أم أنه من غلاة المحافظين ؟ ولعل الحيرة التي تكمن في هذا السؤال يجسدها الدكتور «شكري محمد عياد» في تقديمه لكتاب : (مناهج تجديد) للشيخ أمين الخولي . وقد شاء مؤلف الكتاب أن يجعل أحد تلاميذه يكتب مقدمة واحد من كتبه ، فاختار الدكتور «شكري محمد عياد» . ولذلك فهذه المقدمة التى كتبت في حياة أمين الخولي وبرغبته وتحت نظره وثيقة مهمة لا تقل عما في الكتاب من مضمون ، فيقول : «وكان أشد ما يحيرنا أول ما بدأنا نختلف إلى دروس الأستاذ ، هو ذلك السؤال الذي كنا نردده بيننا وبين أنفسنا : من أي الفريقين هو ؟ أمحافظ أم مجدد ؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانا محافظا صلبا في محافظته ، وأحيانا أخرى مجددا متطرفا في تجديده ، كان يعلمنا (وإن أول التجديد قتل القديم فهما) ، فنفهم من ذلك أنه يعتز بالتراث القديم، ويتهم المجددين بالمسارعة إلى نبذه على غير بصيرة ، ثم كنا نسمعه يتحدث عن مطالب الحياة المتجددة ، وارتباط اللغة بالحياة ، ومكان الفن القولي من الحياة ومن اللغة ، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل إلى آراء نحسبه لأجلها من غلاة المجددين ، بل من الثائرين ، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان في مزاج الأستاذ وتفكيره ويتلازمان . كما يلتقي الواقع والمثال ويتلازمان » .

وبهذا الفهم ، قضى الدكتور شكري محمد عياد .. على جانب كبير من الحيرة ؛ حيث جعل تلازم التجديد والمحافظة عند أمين الخولي تلازم تكامل وانسجام ؟ فاحترامه للعقل البشري هو الذي يدعوه إلى احترام آثار هذا العقل التي خلفها على

مدى العصور ، واحترامه للعقل البشري أيضا هو الذي يدعوه إلى مطالبة هذا العقل أن يقوم بمسئولياته في إنارة السبيل أمام كل جيل .

ولكن معاني التجديد والمحافظة لا يمكن أن ينسجما أو يتلازما أو يتكاملا إلا في نطاق منهج دقيق ، يحدد لكل من الطرفين دوره في الحياة . ولهذا ، فقد كان أمين الخولي منهجيا في كل ما كتب ، أو كما يقول الدكتور شكري محمد عياد : أن حياته العلمية – توشك أن تكون كلها سلسلة منهجية مترابطة الحلقات » .

ومن هنا ، نجد أن اشتغال أمين الخولي بتفسير القرآن كان اشتغالا منهجيا مرتبطا ارتباطا منهجيا باشتغاله بالبلاغة ، والارتباط قديم يعرفه كل من له إلمام بتاريخ الثقافة العربية . فأهم كتب البلاغة العربية كانت مرتبطة ببيان إعجاز القرآن، والزمخشري المعتزلي صاحب الكشاف كان تفسيره كإمام من أئمة البلاغة . ذلك أن البلاغة إذا كانت تتبعا لخواص الأساليب الجيدة أو كشفا عن أصول الحكم بالجودة لكلام ما ، فلا مفر لها من أن تستقرئ أحكامها من القرآن الكريم . ولعل هذه الصلة الوثيقة – كما يقول الدكتور شكري محمد عياد – هي التي هدت أمين الخولي إلى النظر في مناهج المفسرين فرآها في معظم الأمر انحرافا عما ينبغي القصد إليه من إظهار بلاغة القرآن . ولذلك ، أوجب العناية بالتفسير الأدبي للقرآن على أنه المقصد الأول والأساس ، يتبعه مقاصد وأهداف .

ونستطيع أن نتبين خطوات المنهج الأدبي في تفسير القرآن الكريم للشيخ أمين الخولي في الجزء الخاص بذلك من كتابه : (مناهج تجديد) والذي نراه يستهله بالقول: « إذا ما كان وجه الرأي هو : «أن التفسير الأدبي لكتاب العربية هو أول ما يجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية أدبية سواء أكانوا عربا أم غير عرب .

وإذا ما كان وجه الرأي أن هذا التفسير الأدبي ينبغى أن يتناول القرآن موضوعا موضوعا ، لا قطعة قطعة .. فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبي إذا ..

صنفين من الدراسة ، كما هي الخطة المثلى في درس النص الأدبي . وهذان الصنفان هما :

(أ) دراسة ما حول القرآن .

(ب) دراسة في القرآن نفسه .

ولتفصيل ذلك يرى أمين الخولي :

دراسة ما حول القرآن ، والتي تنقسم إلى قسمين : دراسة خاصة قريبة إلى القرآن. وهي ما لابد من معرفته مما حول القرآن ، ذلك الكتاب الذي ظهر في زهاء عشرين عاما ، ثم ظل مفرقا سنين حتى جمع في أدوار مختلفة أو أحوال مختلفة . وكان جمعه وكتابته عملا ساير الزمن طويلا ، وناله من ذلك ما ناله . ثم هناك قراءته ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية ، بفعل النهضة الجادة التي أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية فقد كانت هذه القراءات عملا ذا أثر واضح في حياة هذا الكتاب الجليل وفهمه .

فتلك الأبحاث ، من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما إليها هي التي عرفت اصطلاحيا منذ حوالي القرن السادس الهجري باسم : علوم القرآن . بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل والبيان المتفاوت في الاستيفاء ، حسب عناية المفسر واهتمامه . ومثل تلك الأبحاث جد لازمة في نظر دارسي الآثار الأدبية ، ولابد منها لفهم النصوص المدروسة ، والاتصال بها إيصالا مجديا . وكان أكثر المفسرين يلمون في مقدمة تفاسيرهم بشيء من القول في النزول والجمع والقراءات .

وأما دراسة ما حول القرآن دراسة عامة .. فيراها أمين الخولي في كل ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن ، وعاش فيها ، وجمع فيها ، وكتب فيها وقرأ وحفظ وخاطب أهلها ، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بها ، وإبلاغها شعوب

الدنيا فروح القرآن عربية ، ومزاجه عربي ، وأسلوبه عربي ، قرآنا عربيا غير ذي عوج. والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثيل الكامل ، والاستشفاف التام لهذه الروح العربية ، وذلك المزاج العربي والذوق العربي . ومن هنا لزمت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية : أرضها وجبالها ، وحرارتها وصحاريها ، وفيضانها ، وسماؤها بسحبها ونجومها وأنواؤها ، وجوها بحره وبرده وعواصفه ، وأنسامها وطبيعتها بجدبها وخصبها ونخلها ، ونباتها وشجرها .. إلخ .

ويؤكد أمين الخولي أن كل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية ، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين . وكذلك كل ما يتصل بالبيئة المعنوية ، بكل ما تتسع هذه الكلمة من ماض سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة أو حكومة في أي درجة كانت ، أو عقيدة بأي لون تلونت ، وفنون مهما تتنوع ، وأعمال مهما تختلف وتتشعب . فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة ، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين .

الخطوة الثانية أو الصنف الثاني من خطوات المنهج الأدبي في تفسير القرآن للأستاذ أمين الخولي، وهي دراسة القرآن نفسه . وتبدأ بالنظر في المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر ذلك : تدرج دلالة الألفاظ ، وأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ، في تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة .

ويشير أمين الخولي إلى حقيقة عامة : هي أنه وقد تداولت اللغة العربية في تلك النهضات أفواه لأمم مختلفة الألوان والدماء ، والماضي والحاضر ، فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية ، حتى أصبح من الخطأ المبين أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل ، فهما

لا يقوم على التقدير التام لهذا التدرج والتغير ، الذي مس حياة الألفاظ ودلالتها ، وعلى التنبيه إلى أنه يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت الذي ظهرت فيه ، وتليت أول ما تليت ، على تاليها الأول (عليه الصلاة والسلام) . وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التي تقف في وجه التفسير العلمي للقرآن .

بعد ذلك يشير أمين الخولي في منهجه الأدبي لتفسير القرآن إلى مراعاة التفسير وعلم النفس ، والتفسير وعلم الاجتماع .

ويختم أمين الخولي منهجه الأدبي في تفسير القرآن بالقول : لقد وصفت الذي وصفت من منهج التفسير الأدبي ، ومطالبه الجليلة ، وأنا ذاكر ما لا أنساه أبدا ، كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها . فأقول للمستكثرين : مهما تكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا ، ويؤخر ثمار دراستنا ، ويشعرنا بالنقص ، ويعود علينا باللائمة .. فإن هذه هي الحقيقة ، ولن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال ، فنزعم الكفاية الكاملة ، والقدرة ، ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص ، فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف .

وليس الذي نبغيه من هذا المنهج مستحيلا ولا بعيد التحقيق ، فقد شعر أسلافنا بجملته ، وقاموا ببعضه للقرآن ، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية ، ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين .

وننتقل بعد عرض خطوات التفسير الأدبي للقرآن الكريم .. للأستاذ أمين الخولي إلى منهجه في تناول المادة الإسلامية . وعلى وجه الخصوص منهجه في الكتابة عن الشخصيات الإسلامية في الإسلام ، وفيه نقرأ ملامح هذا المنهج ، حيث يقدم مخطوطة من مخطوطات المفكرين المسلمين ، ويكملها من كتاب أحد المفكرين بعد ذلك ، ويدون قول القدماء بعبارتهم في فكرة تجديد الدين . ثم يكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة من اعتبروهم من المجددين .. ترجمة تقصد إلى بيان أعمالهم وأفكارهم في التجديد .

ويقصد من وراء ذلك سببين .

أولهما : أن يدع أصحاب هذا التراث المؤمن بالتجديد يتحدثون عن أنفسهم عن التجديد الديني ، يصنفونه ويسلسلون روايته .

فإذا حدث أصحاب القديم عن التجديد حديثهم الذي نرى نصوصه ، وبدأ حديثهم هذا مبكرا منذ حوالي القرن الثالث الهجري - مثلا - لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ، ولا اعتراض لمعترض . ولم تعد فكرة التجديد بدعا من الأمر يختلف الناس حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأوقات ، مما ينبغي أن تدخره هذه الحياة لتفيد منه في ميادين نشاطها .

ثانيهما : الذي يشير إليه أمين الخولي ، فإنه بإحياء نص من التراث وفاء له وبرا به، وعرضا للون من تفكير أصابهم ، وتناولهم للقضايا الحيوية ، وتعبيرهم عنها.

وينبه أمين الخولي إلى أن هناك فرقا في التناول المنهجي بالنسبة للترجمات العادية للشخصيات الإسلامية ، وشخصيات هؤلاء المجددين .

فالترجمات العادية ترسم شخصيات المترجم لها رسما عاما تخطيطيا ؛ لأن هذا الصنف من الترجمة تستقل به الفصول الطوال أو الكتب المفردة ، يجمع فيها كل ما يتصل بحياة المترجم ، وينقد ويحلل ، ويستنتج منه إلى آخر هذه الخطوات للمنهج الدقيق ، والذي يلحظه القارئ لأعمال أمين الخولي في كتاب : (مالك بن أنس) : ترجمة محررة .

أما ترجمة هؤلاء المجددين ، فيمكن وصفها بأنها ترجمة تجديدية تتبع الأعمال التجديدية للشخصية موضوع الدراسة ، فإذا كان المجدد حاكما كعمر بن عبد العزيز (مثلا) .. كانت العناية في ترجمته بالأعمال التى فهم بها الإسلام وفسره ، وهى اليوم مما يصحح فهمنا للدين ، ويسدد خطانا في العمل . وإذا كان المجدد عالما كالشافعى أو الغزالي أو البقلاني (مثلا) ، كانت العناية في ترجمته بالأفكار والآراء التي أبداها في

الإسلام وتفسيره ، وهي اليوم مما يصحح فهمنا للدين ويسدد خطانا في التطور الحيوي . ويقرر أمين الخولي في توصيفه لمعنى المجدد في أن تصرفات المجددين وتفكيرهم ما لم تصل إليه الحياة اليوم ، أو قل ما لم تجرؤ عليه ؛ لأن المقلدين قد ألقوا بجمودهم في الفهم والتصرف جنبا أو ظلاما أخفى حقيقته وحجبه عن الأنظار فلم يعرف ، لكنه في عمل الحاكم المجدد ، وفي فكر العالم المجدد لا يمكن أن يلقاه أحد بشيء من هذا الاستغراب أو ما يشبهه .

ومن هنا .. يبدو التباين واضحا تمام الوضوح بين التجديد والتطور في التفكير الإسلامي الذي يطلبه أمين الخولي وهو مرتبط بأصالتنا وثقافتنا الإسلامية ، والتجديد الديني الذي يطلبه والمرتبط بثقافته وحضارتنا .

وهكذا .. يستقر الأمر – كما يقول أمين الخولي – في فهم التجديد وما فيه من تطور في التفكير الإسلامي بأقوال القدماء أنفسهم ، وبتقرير العصريين بضرورة هذا التطور ، وتحقيقه في كل شيء ، وبذلك يمكن القول باطمئنان : « أن التجديد الذي يقرر القدماء اطراده في حياة الدين ، ووقوعه في كل نقلة من انتقالات الحياة التي تمتلئ بالقرون ، إنما هو التطور مآلا » .

* * *

علي عبد الرازق

مجددنا في هذا القرن الرابع عشر هو الشيخ علي عبد الرازق فقد ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1386هـ .. سليل أسرة معروفة بالصعيد ، كانت ذات جاه وسلطان ، فأبوه عبد الرازق باشا نائب رئيس حزب الأمة عام 1907 وشقيقه «حسن باشا عبد الرازق» الصغير : أحد مؤسسي حزب الأحرار الدستوريين ، وشقيقه الثاني «محمود باشا عبد الرازق» أحد الموجهين لسياسة حزب الأحرار الدستوريين ، وشقيقه الكبير الشيخ الإمام «مصطفى باشا عبد الرازق» شيخ الأزهر الذي كان موضع تقدير الكثيرين لعلمه وفضله .

ولقد حصل علي عبد الرازق على الشهادة العالمية عام 1911 ، وسافر في العام التالي إلى إنجلترا ليدرس السياسة والاقتصاد وعاد عام 1914 بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى . فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية وتدرج في الوظائف حتى عين وزيرا للأوقاف ، وأنعم عليه بلقب الباشوية ، واختير عضوا بالمجمع اللغوي . وكان كتابه: (الإسلام وأصول الحكم) الذي عكف على تأليفه - كما يقول في مقدمته - بضع سنين ، بدأت منذ عام أهم حدث في حياته . فلم يكد يظهر حتى لقي معارضة صحفية ، تحولت إلى معركة حزبية ، تلتها إجراءات قضائية ، ثم أزمات وتطورات سياسية ؛ لما فيه من أفكار جريئة حول الخلافة الإسلامية .

ويرجع الاهتمام بهذا الكتاب فور صدوره - كما يذكر الدكتور « محمد ضياء الدين الريس» في كتابه المميز : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) إلى المناخ العام الذي سبق نشره بعام ، حيث تناول هذا الكتاب قضية شغلت الرأي العام والأمة الإسلامية وهي قضية الخلافة بعد أن ألغاها «أتاتورك» رئيس دولة تركيا عام

1924. مستفزا أي : أتاتورك بذلك الإجراء مشاعر أبناء العالم الإسلامي حيث كانت الخلافة جزءا من تراثهم وتاريخهم ، وكان لها وقع أليم بالنسبة لمصر ، خاصة التي تعتبر في مكان الزعامة للعالم الإسلامي . وهنا فكرت بعض الأوساط الدينية والأخرى السياسية في إعادة الخلافة من جديد ، وأن يكون مكانها مصر ، والخليفة هو «الملك فؤاد» ، خاصة بعد إعلان الملك «حسين بن علي» ملك الحجاز نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور . وانتهى الأمر إلى ضرورة عقد مؤتمر إسلامي بالقاهرة يحضره ممثلون عن الدول الإسلامية لبحث مسألة الخلافة والوصول إلى قرار بشأنها .

أثناء هذا الوقت صدر الكتاب ، فكان من الطبيعى أن يلقى رد فعل عنيف ، خاصة وأن الكتاب تضمن من الأفكار ما فسرها البعض بأنها غريبة وجريئة ؛ حيث لم يقل مثلا أن الخلافة ليست ركنا أو واجبا في الإسلام ، أو يقول إنه لا ضرورة لها في هذا الزمان ، أو إن لها شروطا يجب أن تتوافر ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث حاول أن يثبت أن الخلافة الإسلامية التى قامت في التاريخ كانت ملكا دنيويا ، وأنها كانت شرا ونكبة على المسلمين ، ونحو ذلك من الأفكار الجريئة .

ولكون صاحب هذه الأفكار كان عالما من علماء الأزهر ، وقاضيا شرعيا ، ومن أسرة لها نفوذها السياسى ؛ حيث كانت دعامة من دعامات حزب الأحرار الدستوريين المتحالف مع الملك فؤاد ، والمشترك مع الوزارة القائمة ، إلى جانب أن هذه الآراء تعارض الجهود التى تبذل لترشيح الملك فؤاد نفسه لمقام الخلافة ، كما يتردد فهى ليست نقدا للخلافة التاريخية ، بل هدم للمشروع السياسى كله من أساسه.. كل هذه العوامل مجتمعة أزمت الموقف وأدت إلى اتساع المعركة . حيث تحولت المسألة من خلاف في الرأي إلى أزمة سياسية وتطورات دستورية .

وهكذا أصبحت فكرة (الإسلام وأصول الحكم) التي تضمنها كتاب علي عبد الرازق قضية تطرح للمناقشة بين آونة وأخرى ، ولها أطراف كثيرون ، وكل

طرف له موقفه . فالمؤلف ومن خلفه حزب الأحرار الدستوريين لهم موقف ، والعلماء بالأزهر الشريف لهم موقف ، وللملك فؤاد ومعاونوه من السياسيين لهم موقف ، والإنجليز وعملاؤهم لهم موقف ، والمفكرون الأحرار المحايدون لهم موقف، مما جعل الحديث عن أفكار هذا الكتاب لا يقتصر على العام الذي صدر فيه، وإنما يتجدد حتى أيامنا هذه !

ومهما يكن الأمر ، فإن الكتاب حمل الكثير من وجهات النظر الجديدة حول نظرية الحكم في الإسلام ، تلك التي نالت النصيب الأكبر من الاهتمام ، وربما لم تستغل كأفكار جديدة من حقها أن تناقش بطريقة هادئة . لا أن تفهم على أنها مخالفة للنظام الحاكم وقتئذ للمشروع السياسي الذي كان ينوي إقراره الملك فؤاد ومؤداه : أن يكون خليفة للمسلمين ، وربما يكون هذا المشروع هو الذي استفز المشاعر الإسلامية التي ترفض هذا المشروع شكلا ومضمونا ؛ إذ كيف يقبل المصريون أن يكون الملك فؤاد خليفة رغم ما يتضمنه تاريخه من صفحات لا تتسق مع هذه المكانة الإسلامية الخالدة .

طبيعي أن يكون هناك اعتراض من أصحاب الفكر المستقل الحر على هذه الفكرة ؛ ولذلك كانت المناقشات والمعارك التي دارت حول هذا الكتاب والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم .

ولمزيد من التعرف على هذا الكتاب الذي أثار ضجة كبرى نقرأ بعض ما يتناوله هذا الكتاب .

نقول : إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكتاب ، وما أحدثه من ضجة ، وما أثاره من مناقشات لا تزال مستمرة حتى الآن ، فلنقرأ معا ما كتبه الأستاذ « أحمد بهاء الدين» عام 1954 وهو ما أعاد نشره في فصل من فصول كتابه : (أيام لها تاريخ) وذلك حيث وصف الكتاب في جملة موجزة ولكنها دالة قائلا : « ... كتاب صغير لا تزيد صفحاته على المائة إلا قليلا ، اسمه : (الإسلام وأصول الحكم) .. فيكون له

دوي القنبلة ، ويكون من شأنه أن يسقط وزارة ويفض ائتلافا ، ويحول في السياسة المصرية تيارا خطيرا » هذا بالفعل ما أحدثه كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق .

وقصة تأليف هذا الكتاب مرتبطة بالظروف الاجتماعية والفكرية التي كانت تجتازها مصر ، وما يحيط بها من ظروف عالمية . ففي خارج مصر كان هناك حدث شغل العالم الإسلامي بأسره وهو : إعلان أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية بتركيا عام 1924 . وبالطبع .. كان لهذا الحدث رد فعل في العالم الإسلامي ؛ حيث بدأ التفكير في إعادة هذه الخلافة في عدد من دول العالم الإسلامي . وفي مصر دعا بعض العلماء إلى عقد مؤتمر لبحث مسألة الخلافة . وبلغ اهتمام علماء الدين في مصر بهذا المؤتمر أنه صدرت في نوفمبر 1924 مجلة عنوانها : (المؤتمر الإسلامى العام للخلافة بمصر) خصصت كل صفحاتها للحديث عن الخلافة الإسلامية بمصر .

وفيما كانت هذه الأحداث تشغل الرأي العام الإسلامى ، وتجد صداها في الصحف الأجنبية ، كانت هناك تيارات خفية تجري خلف واجهات الأحزاب السياسية بمصر . فمنها : ما يعارض مشروع الخلافة ويهاجمه ، ومنها : ما يجد أن الوقت مناسب لتنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين .

وأخذ تيار معارضة مشروع الخلافة صورته العلمية حين قام الشيخ علي عبد الرازق قاضى محكمة المنصورة الشرعية بإصدار كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) في منتصف عام 1925 الذي يحوي أفكارا في مقدمتها : أن رسالة النبي - ﷺ - كانت روحية أو بتعبير المؤلف : « ما كان محمد - ﷺ - إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة وأن الإسلام وحدة دينية . والنبي - ﷺ - دعا إلى تلك الوحدة وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وفي سبيل هذه الوحدة الإسلامية ناضل عليه الصلاة والسلام بلسانه وسنانه ، وجاء نصر الله

والفتح » . ويقول المؤلف : « وإذا كان الرسول الكريم لم يكن إلا رسولا صاحب رسالة أو دعوة دينية فحسب ، فإنه يجب ألا يفوتنا أن الدعوة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من الزعامة في قومه والسلطان عليهم . ولكن ذلك ليس في شيء من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم ، فلا نخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك » . ويقول أيضا : « وقد رأيت – أي على عبد الرازق – أن زعامة موسى وعيسى عليهما السلام في أتباعهما لم تكن زعامة ملوكية ولا كانت كذلك زعامة أكثر المرسلين » ثم يحدثنا في بداية كتابه عن الخلافة معناها وطبيعتها وكيف أن القرآن لم يذكرها وكذلك السنة ، ويشير إلى أن : «التاريخ يبين لنا أن الخلافة كانت نكبة على الإسلام وعلى المسلمين وينبوع شر وفساد» وغيرها من الأفكار التي أدت إلى قيام معركة كبيرة تدخلت عوامل حزبية لإشعال نيرانها ، خاصة بعد حكم هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ «علي عبد الرازق» من زمرتها ، وبنت حكمها الذي أصدرته في أغسطس 1925 على عدد من الحيثيات رد عليها الشيخ على عبد الرازق . من جملة ردوده قوله : « إن فكرة الكتاب الأساسية التي حكم على من أجلها هي : أن الإسلام لم يقرر نظاما معينا للحكومة ، ولم يفرض على المسلمين نظاما خاصا يجب أن يحكموه بمقتضاه ، بل ترك لنا مطلق الحرية في أن ننظم الدولة طبقا للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي نوجد فيها ، مع مراعاة تطورنا الاجتماعي ومراعاة مقتضيات الزمن » .

وهكذا : قامت معركة حول الكتاب وصاحبه ، فهناك (صحيفة السياسة) وكتابها ومن خلفهم حزب الأحرار الدستوريين كطرف ، وهناك (صحيفة الاتحاد) وكتابها وبعض علماء الأزهر كمعارضين ، وهناك من اتخذ الموقف المعتدل كصحيفة (البلاغ) وكاتبها الأول «العقاد» الذي ندد بروح الاستبداد في الآراء ، وبأنه قد مضى الزمن الذي تتصدر فيه جماعة من الناس بأي صفة لإكراه الأفكار على النزول عند رأيها . بل وتجاوزت المعركة الحدود ؛ حيث طارت أنباؤها إلى خارج مصر في

صحيفة (البورص إجيبسيان) ، وكذلك الصحف البريطانية التي أخذت جانب الكتاب .

وهدأت المعركة بعد حكم هيئة كبار العلماء ، وإقالة وزير الحقانية «عبد العزيز باشا فهمى» رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، والذي كان مشتركا مع حزب آخر في وزارة ائتلافية ، ولم تثر إلا بعد أن أعلن على عبد الرازق بأنه رغم كل ما حدث هو باق على موقفه ونظرته إلى الدين . الأمر الذي جعل الأمير «شكيب أرسلان» يرد عليه قائلا : «ضاق الصدر بكتابك ، وأنت من واحدة إلى أخرى تتحكم بهواك تارة في التاريخ ، وطورا في التوحيد ، وتوهم الناس أنك فهمت ما لا يفهم أحد » .

نقول : انتهت المعركة حول الكتاب ، ولكنها لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا ، فهناك من يراها معركة سياسية وفي مقدمتهم الأستاذ «أحمد بهاء الدين» في كتابه : (أيام لها تاريخ) والدكتور « محمد عمارة » في دراسته وبحثه لكتاب الإسلام وأصول الحكم ، ومنهم من يراها غير ذلك وفي مقدمتهم الدكتور «محمد ضياء الدين الريس» في كتابه : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) والدكتور «محمد البهى» في كتابه : (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) . ولذلك .. علينا أن نسجل وجهة النظر المخالفة تماما لما جاء في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) والذين كتبوا عنه وفي مقدمتهم الأستاذ « أحمد بهاء الدين » والأستاذ «فتحى رضوان» وآخرون ، عبر عنها كتاب آخر هو : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) للدكتور « محمد ضياء الدين الريس » أستاذ التاريخ الإسلامى في جامعة القاهرة ، ومدون على الغلاف أنه نقد لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق ولكن بعد القراءة الأولى دعنا نقل أنه نسف لهذا الكتاب !

وواضح أيضا أن كتاب الدكتور الريس قد طبع في لبنان ، ونشر في السعودية ولم ينتشر إلا بعد فترة في مصر . وأن الفكرة العامة ، التي يمكن أن نلمحها من النظرة الأولى للكتاب تؤكد : أنه يشتمل على قسمين : قسم يناقش التفسيرات

المعاصرة لكتاب : (الإسلام وأصول الحكم) ، وقسم يهتم بمناقشة الكتاب نفسه ويفند ما جاء فيه من آراء وأفكار .

وأهمية ظهور كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) - كما قلنا - مستمدة ، من أنه يناقش قضايا تتعلق بكتاب «الإسلام وأصول الحكم» وهو الكتاب الذي خرج به على الناس - منذ أكثر من ثمانين عاما - الشيخ على عبد الرازق.. ونال ظهوره شهرة كبيرة . ويكفى أن يقال عنه بعد ذلك ، أنه أسقط وزارة ، وفض ائتلافا ، وحول في السياسة المصرية تيارا خطيرا .

ومنذ أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه عام 1925 حتى الآن .. والمناقشات دائرة حوله .. الكل يشيدون به ، ويقولون إنه يحتوي على فكر جديد يمثل الحد الفاصل بين ماض مغرق في ظلام الجهالة والجمود ، وحاضر مشرق يتسم بنور الحرية واليقين .

لكن .. وهنا المفاجأة – يجيء الدكتور «الريس» في كتابه الجديد ، ويبحث عما تضمنه كتاب الشيخ عبد الرازق .. بالأدلة المنطقية والتاريخية ، ويعلن - بعد ذلك - أن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ليس إلا مجموعة من الأخطاء ، وأنه ليس كتابا علميا بالمعنى الحقيقى ، إنه أشبه بمقالة مكونة من ادعاءات ، أو هو موضوع إنشاء.. وأن الفكرة الأساسية فيه عن علاقة الإسلام بالمجتمع ، أو عن حقيقة الدولة والحكومة في الإسلام .. فكرة خاطئة تدل على عدم فهم لحقيقة الإسلام وعدم معرفة تاريخه .

غير أن الدكتور الريس .. قبل أن يناقش الموضوع رأى من الضروري أن يشرح الظروف التى صدر فيها هذا الكتاب ؛ ليبين - وذلك لأول مرة - حقيقة الأسباب التي دعت إلى تأليفه ، والأهداف التي قصد إليها المؤلف من نشر كتابه هذا .

ونندهش بعد قراءتنا لكتاب الدكتور الريس ؛ إذ يتضح أن كثيرا مما نشر حول كتاب الشيخ علي عبد الرازق ما هو إلا دعاوى لا أساس لها ، أشبه بالأساطير

والخرافات ، ومع ذلك فقد وجدت هذه الخرافات رواجا على أوسع نطاق ، وكان هذا جناية على من قرأوا هذه الأساطير وأخذوها على أنها حقائق مسلمة .

فمن تلك الدعاوى أو الخرافات كما وصفها الدكتور الريس .. ما نشره البعض من أن سبب إصدار الكتاب هو أن الشيخ علي عبد الرازق أراد أن يقاوم المشروع الذي أراد الإنجليز أن ينفذوه في مصر ، وهو إقامة الخلافة الإسلامية ، وأنهم كانوا يريدون أن ينصبوا الملك فؤاد خليفة ليكون أداة لهم أو عميلا ، ويذكر الدكتور الريس أن المسئول عن نشر هذه الفكرة هو الأستاذ «أحمد بهاء الدين» فقد ذكرها بالتفصيل في كتابه : (أيام لها تاريخ) مقررا أن الإنجليز بعد أن أعلن «كمال أتاتورك» منصب الخلافة من تركيا دبروا مؤامرة لإقامة الخلافة في مصر على يد أحد عملائهم، وهو الملك فؤاد .. ولكن الشيخ علي عبد الرازق .. هو الذي تقدم فتحدى الإنجليز وأحبط المشروع !

ويعكف الدكتور الريس على كل المراجع التاريخية الموجودة من كتب ومذكرات لـ « لرافعي وأحمد شفيق باشا والدكتور محمد حسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمي باشا» ، وحتى اللورد «لويد» الذي كان مندوبا ساميا في مصر ، فلا يجد في كل هذه الكتب والمذكرات أية إشارة على صدق هذه الدعوى ، التي ذكرها وكررها الأستاذ بهاء الدين ثم تبعه المقلدون فأخذوا يكررون ويرددون هذه الدعوى في مجلاتهم وكتبهم ويذيعونها على الناس ، وبذلك أمكن أن يدسوا - عن غير قصد - في تاريخ مصر الحديث دعوى وهمية لا أساس لها على الإطلاق .

الدكتور الريس يهدم هذه الدعوى ويجرد منها التاريخ ، بل إنه يثبت العكس تماما .. وهو أن هذه الآراء التي أوردها ودافع عنها الشيخ علي عبد الرازق ، وهي الآراء التى هاجم فيها الخلافة والخليفة العثماني .. كانت تتفق مع سياسة الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى ، وذلك أن الحرب كانت ناشبة بين تركيا وبريطانيا ،

وأعلن الخليفة العثماني الجهاد الديني ضد الإنجليز .. فكان من مصلحة الإنجليز إذ ذاك مهاجمة الخليفة العثماني ، وهدم الخلافة والادعاء بأن الإسلام ليس فيه خلافة ولا جهاد ولا قتال ؛ ليفصلوا بين مصر ودولة الخلافة في تركيا ، ويأمنوا من قيام ثورة عليهم من الشعب المصري الذي كان يدين للخليفة العثماني بالولاء ، ويميل إلى مناصرة إخوانه المسلمين في تركيا والعالم الإسلامي كافة .

وقد أثبت الدكتور الريس حقيقة مهمة لم يتنبه إليها أحد من قبل ، وهي : أن كتاب الشيخ علي عبد الرازق ألف أثناء الحرب العالمية الأولى في الفترة ما بين 1915- 1917 كما نص على ذلك الشيخ علي عبد الرازق نفسه في المقدمة وليس في عام 1925 كما يظن أكثر الناس وكما هو مشهور . فقد أثبت من نصوص الكتاب أن الشيخ علي عبد الرازق يذكر السلطان «محمد الخامس» .. الخليفة العثماني بالاسم ويهاجمه ، وكانت نهاية عهد هذا السلطان في عام 1918 .

إذا .. فلم يكن المقصود من هذا الكتاب والأمر كذلك هو : مهاجمة الملك فؤاد، كما هو شائع بين الناس ، وكما ذكره الأستاذ بهاء الدين ، فالملك فؤاد لم يعلن نفسه ملكا إلا منذ عام 1922 .

يتبع الأستاذ بهاء عدد من الكتاب اهتموا بالكتابة عن هذا الكتاب ، ويذكرهم الدكتور الريس ، ويطابق بين الفقرات جميعا فلا نلمس أي اختلاف .

والدكتور الريس نفسه ينفي بأن الشيخ علي عبد الرازق كان يقصد بكتابه الملك فؤاد ؛ لأن الكتاب ألف قبل عهده ، ولأن الملك كان متحالفا مع الحزب الذي ينتمي إليه الشيخ علي عبد الرازق وأسرته وهو : حزب الأحرار الدستوريين ؛ بل لأن الملك فؤاد نفسه لم يعلن أنه يريد الخلافة، بل قال في كتاب له إلى «سعد باشا زغلول»: « كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين ، مع أن حملي ثقيل بالنسبة لمصر وحدها» ؟!

كل ما حدث : أن العلماء دعوا إلى عقد مؤتمر عام بالقاهرة يمثل جميع البلاد الإسلامية لبحث مسألة الخلافة .. وأيدهم الملك في ذلك مجرد تأييد كما يحدث عادة كنوع من الرعاية ، لا أكثر ولا أقل .

بل إن الشيخ على عبد الرازق ينفي عن نفسه هذه التهمة ، ويكتب فيمدح الملك فؤاد وينشر ذلك في جريدة السياسة فيقول : «أولئك ملوك لم يراعوا للعلم حرمة ، ولا عرفوا للحرية قدرا .. وملك مصر » وهو يعني الملك فؤاد «أعز الله دولته هو أول ملك عرفه الإسلام في مصر ملكا دستوريا ، ينصر العلم والعلماء ويؤيد في بلده مبادئ الحرية .. إلخ » .

يقول الشيخ علي عبد الرازق هذا ويمدح الملك فؤاد حتى بما يخالف الحقيقة ، فالملك فؤاد - كما يذكر الدكتور الريس - لم يكن ملكا دستوريا ولم يكن يؤيد مبادئ الحرية .. بل على العكس كان ضد الدستور والحرية . ولكن الشيخ عبد الرازق يمدح الملك حليف حزبه ، والذي يعتمد عليه بقاء حكومة الأحرار الدستوريين وقتئذ .

ودليل آخر يسوقه الأستاذ بهاء الدين على أن الشيخ عبد الرازق كان يقصد فعلا الملك فؤاد ؛ حيث قال الشيخ في مقدمة كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) : «أشهد أن لا إله إلا الله ولا أخشى أحدا سواه» فاستنتج الأستاذ بهاء الدين وردد أيضا تابعوه : أن «أحدا» هنا تعني - حتما - : الملك فؤاد !!

ويعجب الدكتور الريس من هذا المنطق ويسخر قائلا : «كيف وبأي وجه! هكذا بالقوة والعافية .. ليت شعري كيف نحول النكرة إلى معرفة والعام إلى خاص بدون سبب ؟! » .

كذلك .. يستدل الكاتب «محمد عمارة» في دراسته لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) على أن الشيخ عبد الرازق كان يعني الملك فؤاد ، وذلك لاستخدامه أفعال

المضارعة في كتابه .. فيتهكم الدكتور الريس على هذا ويقول : « لست أدري أي نوع من الاستدلال هذا ؟ وما هو السر الباتع لأفعال المضارعة » !

والجميع يزعمون بأن الشيخ عبد الرازق كان يهاجم الملك فؤاد ؛ لأنه في الكتاب يهاجم الملوك فيقول : « ... ذلك الذي يسمى عرشا لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، وأن ذلك الذي يسمى تاجا لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر ».

ويعقب الدكتور الريس على ذلك قائلا : « إنهم لو قرأوا أول العبارة لوجدوا أن الشيخ إنما يتكلم عن الملوك في الماضي ؛ لأنه سمى الخلفاء ملوكا ، ويتكلم على الخلفاء العثمانيين بالذات وعلى السلطان محمد الخامس بالأمس .. ولم يكن الملك فؤاد ، أحد هؤلاء الخلفاء » .

فالاستنتاجات كلها إذن خاطئة ومن وحي الخيال .. هكذا يؤكد الدكتور الريس في كتابه : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) .

كذلك يدين الدكتور الريس هؤلاء الكتاب ؛ حيث رددوا ما زعمه الشيخ عبد الرازق من أن المسلمين لم يبحثوا ولم يؤلفوا في السياسة ؛ لأن الخلفاء كانوا يمنعونهم، أو لأنهم- حسبما يعبر الشيخ - كانوا خاضعين للضغط الملوكي .. ويقول إنه - أي الشيخ عبد الرازق : « لا يعرف لهم مؤلفا في السياسة ولا مترجما » .

ويرد الدكتور الريس على ذلك ، ويثبت أن هذه دعوى باطلة ، وأن المسلمين بحثوا وألفوا في السياسة ، ويورد أسماء عديدة من الكتب التي ألفها علماء الإسلام . فمنها كتب : «الماوردي» و«الغزالي» و«الرازي» و«نظام الملك» و«ابن أبي الربيع» و«الفارابي» و«ابن تيمية» وأخيرا «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة التي حوت بحوثا مطولة في السياسة .

وبين الدكتور الريس أيضا أن علماء المسلمين كانوا يبحثون في الإمامة - وهي الدولة الإسلامية - في كتب علم الفقه والكلام .

ويـذكر أن ابـن رشـد شرح كتـاب أرسـطو في الـسياسة ، وتـرجم كتـاب : (الجمهورية) لأفلاطون ثم شرحه في كتاب : (جوامع سياسة أفلاطون) الـذي ظـل يدرس في أوروبا مدة طويلة .

ويدعو إلى الرجوع إلى (مجلة المجمع العلمي العربي) في دمشق تلك التي نشرت بيانا شمل أكثر من خمسين كتابا ألفهـا علـماء العـرب في موضـوعات تتعلـق بعلـوم السياسة والإدارة .

وبعد أن يعرض الدكتور الريس التفسيرات المعاصرة ويناقشها فيما لا يقل عـن نصف الكتاب .. ينتقل إلى قسم جديد هو تقييم كتاب : (الإسلام وأصول الحكـم) تقييما علميا . فيثبت بالأدلة العلمية والتاريخية أن كتاب الـشيخ عبـد الـرازق مملـوء بالمزاعم والأباطيل ، ويكشف خطأ لغويا وقع فيه الشيخ في أول سطر مـن الكتـاب حيث قال : «الخلافة لغة مصدر تخلف فـلان فلانـا إذ تـأخر عنـه .. في حـين أن أي مبتدئ في اللغة يصرف هذا الفعل تصريفا صحيحا ويقول : « خلفه يخلفـه خلافـة » فالخلافة مصدر خلف لا تخلف كما يذكر علي عبد الرازق .

ويريد الشيخ عبد الرازق أن يظهر معرفتـه بـبعض النظريـات الأجنبيـة - كـما يذكر الدكتور الريس - فيقول إن نظرية «هـوبز» تؤكـد أن سـلطان الملـوك مقـدس وحقهم سماوي .. وهذا بالضبط عكس ما يقوله «هوبز» الذي ما عرض نظريته هذه إلا ليعارض الحق الإلهي للملوك . ونفس الخطأ حدث مع المفكر «لوك» حين عكس نظريته تماما . وادعى ادعاء عجيبا يستطيع أن يدرك بطلانه أي ناشئ إذ يقـول : « إن الإسلام لم يغير شيئا من أساليب الحكم عند العرب، ولا حاول أن يمـس الـصلات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية . ولم يسمع أن النبي - ﷺ - عزل واليـا أو عـين ولاة أو قضاة ، وكذلك الخلفاء بعده .

ويعلن الدكتور الريس أن الفكرة الأساسية في كتاب : (الإسلام وأصول الحكم) نفسها خطأ إذ تقول هذه الفكرة أن الإسلام دين فقط بمعنى أنه عبادة فردية فقط ، فلا شأن له بالدنيا وشئونها ولا بالمجتمع ولا بالسياسة . وذلك لأن الدين - كما يزعم الشيخ عبد الرازق - هو ضد الدنيا والضدان لا يجتمعان .

وهنا يعقد الدكتور الريس فصلا بعنوان : «الدين والدنيا» فيبين فيه أن الدين ليس ضد الدنيا ، ولكنه جاء لصلاحها وجاء لسعادة الناس ، وأثبت أن الدنيا ليست هينة عند الله ، إنما هي طريق إلى الله .

وهكذا .. يثبت الدكتور الريس في كتابه ذلك في فصول : (الإسلام والخلافة) و(الدين والدنيا) و(الخلافة في العهد الأول) إن فكرة الشيخ عبد الرازق خطأ محض، تخالف كل الحقائق التاريخية والدينية ، وهي مجرد دعوى تدل على عدم العلم بحقيقة الإسلام والتاريخ الإسلامي .

وإزاء هذه الأخطاء الفادحة .. التى تناقش كل ما يعتقده المسلمون .. يشك الدكتور الريس في أن مؤلف الكتاب الحقيقى هو الشيخ علي عبد الرازق .. وهذه مفاجأة كبيرة لكل من كتب عن هذا الموضوع .

فالدكتور الريس بدت له دلائل في الكتاب جعلت تثير وتقوي في نفسه الشك في أن الشيخ هو المؤلف الأصلي للكتاب . منها أنه لم يعرف عن الشيخ أبدا أنه كان باحثا أو مفكرا سياسيا أو حتى مشتغلا بالسياسة ، فهو قد تلقى ثقافته في الأزهر ولم ينتج غير مذكرة أو كتيب في علم البيان ، ومنها : أنه لم يعرف له مؤلف آخر أو بحث في السياسة بعد صدور الكتاب. فالكتاب كان شيئا شاذا بالنسبة لسيرة حياته، وهو كما يقال أشبه ببيضة الديك . ثم منها : أن الشيخ عبد الرازق لم ينهض ليؤلف كتابا يرد فيه على الذين انتقدوه أو هاجموه ، وهذا يدل على عجزه في هذا الموضوع من ناحية ، وتأكيد ما يقوله المهاجمون من ناحية ثانية .

ودليل آخر ، يسوقه الدكتور الريس حيث إنه من غير المعقول أن يكون هو الذي قصد أصلا- وهو مسلم وقاض شرعي ومن عائلة محافظة- الهجوم على الدين أو الإسلام أو أن ينكر الجهاد في الإسلام، بل إن الشيخ عبد الرازق- للغرابة - أنكر القضاء الشرعي الذي هو وظيفته ، فهل كان من الغفلة بحيث ينكر وجوده نفسه ، ويدعو إلى إلغاء عمله ووظيفته أي يفصل نفسه من منصبه قبل أن يفصله الآخرون!؟

ولاحظ الدكتور الريس أن (كتاب الإسلام وأصول الحكم) يتحدث عن «قيصر وعيسى» عليه السلام «ومتى والإصحاح والإنجيل» .. فتعجب أن يكون الشيخ قد تعلم هذا في الأزهر ، ويلاحظ أن الكتاب يتكلم عن المسلمين بضمير الغائب فيقول مثلا : « ذلك الزعم بين المسلمين » و« غير مألوف في لغة المسلمين » و«الخلافة في لسان المسلمين» ونحو ذلك كأنه ليس منهم .

ويتعجب الدكتور الريس من أن مسلما صحيح الإيمان، وشيخا من أبناء الأزهر.. يدافع عن المرتدين ويتعاطف معهم ، وينتقد الصديق أبا بكر المسلم الأول، ويقول عن المرتدين : « إنهم خرجوا على وحدة أبي بكر » . وهل وحدة أبي بكر إلا جماعة المسلمين ودولة الإسلام !

وأخيرا .. عثر الدكتور الريس على ما يؤيد شكه ، وذلك في الكتاب الذي ألفه مفتي الديار المصرية الشيخ «محمد بخيت المطيعي» الذي كان هو نفسه من الأحرار الدستوريين وهو من تلاميذ الإمام محمد عبده .. عثر في هذا الكتاب وفي صفحة 237 على شهادة تنقل الشك إلى ما يقرب اليقين حيث يقول المفتي : « .. لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس فيه إلا وضع اسمه عليه فقط.. فهو منسوب إليه فقط ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار » .

وبعد أن يستعرض الدكتور الريس الأدلة ، يقرر أنه يميل إلى ترجيح هذا الرأي، وأن مؤلف الكتاب الأصلي أي : كتاب (الإسلام وأصول الحكم) شخص غير مسلم ، ويرجح أن يكون المؤلف الأصلي هو أحد المستشرقين الإنجليز .

وعلى امتداد صفحات كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) يبين الدكتور الريس كل هذه الأخطار ، ويبدد الدعاوى الباطلة ، ويفند الخرافات .

هذا عرض سريع .. لما جاء في كتاب الدكتور الريس من قضايا .. وقد كنت - مؤخرا - واحدا من هؤلاء الصحفيين والكتاب .. الذين كتبوا عن : (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ عبد الرازق بنفس الطريقة التي يرفضها الدكتور الريس ويهاجمها .. لكنها الموضوعية ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة .. ولو على حساب النفس .

وبديهي إذا .. أن تكون لدي رغبة في تأمل ما كتبه الدكتور الريس الذي يهاجم نفرا من أساتذتي ونفرا آخر من أبناء «جيلي» ويتهمهم في كتابه بتهمة «النقل دون عقل» . لكن ما العمل ؟! خاصة وأن الأخطاء تشيع وتنتشر ، وتصبح مع مضي الزمن حقائق ، وهذه هي الكارثة !

فإذا كانت الأخطاء تتعلق بموضوع مهم مثل تصور الدولة أو طبيعة نظام الحكم في المجتمع الإسلامي أو نحو ذلك ، فإن الضرر سيكون فادحا ، ويكون مضاعفا في فداحته إذا ما اقتحم أسوار الجامعة ، ووجد مكانه هناك بين الحقائق العلمية الثابتة .. وهنا تصبح الجامعة في موقف لا تحسد عليه .. فهي بهذه الصورة تقنن وتلقن الأخطاء بدلا من أن تقنن وتلقن الحقائق ، ويكون هذا قلبا لرسالتها وتدميرا لمسئولياتها .

ولعلي أتساءل : إذا كان الدكتور الريس حقا قد اكتشف هذه الأخطاء - منذ زمن - فلماذا لم يواجه المؤلف بها ؟ لماذا لم يكتب هذا الكتاب في حياة الشيخ علي عبد الرازق وليس بعد وفاته ؟!

غير أنني أذكر : أنني قرأت في هذا الموضوع صفحات رد فيها الدكتور الريس على كتاب الشيخ عبد الرازق . بكتابه : (النظريات السياسية الإسلامية) عام 1952 تحت عنوان : « الرد على دعاوى بعض المعاصرين » . وأن هناك حقيقة أعلنها

المؤلف لأول مرة .. وهي أنه قصد الشيخ عبد الرازق ومعه كتاب (النظريات السياسية الإسلامية) وقدمه إليه قائلا له : « إن في هذا الكتاب تفنيدا لآرائك التي أعلنتها في كتاب : (الإسلام وأصول الحكم) ، ويسرني أن ترد عليه ليعرف الناس الحقيقة» ، وكان هذا قبل وفاته بسنوات . وظللت أنتظر رده ، ولكنه لم يكتب حرفا واحدا ، مع أن هذا الكتاب طبع في حياته ثلاث مرات .

ويتساءل الدكتور الريس بهذه المناسبة : لماذا لم يرد صاحب (الإسلام وأصول الحكم) على كتاب كتب من أجل تفنيد ادعاءاته وطبع ثلاث مرات في حياته ؟ ولماذا رفض أن يعيد طباعته حين عرضت عليه دار الهلال . كما نشر في آخر حديث له في المصور قبل وفاته بزمن قليل ؟ ألا يكون عدم التجاسر على الرد أو عدم التهافت على إعادة الطبع دليلا كافيا على أن الشيخ عبد الرازق اكتشف - ولو مؤخرا - أن هذا الكتاب لا يصلح لإعادة طبعه أو للدفاع عنه ؟

لكن كيف يقتنع القارئ بأن ما كتبه الدكتور الريس على حق ، وبقية الذين كتبوا في الطرف الآخر على غير حق ؟

هنا أقول : قد لا يختلف معي القارئ على : أن المقياس الذي ينبغي أن نقيس به الأمور لنفرق بين الحق والباطل هو العقل .. ذلك الذي يقودنا بالمنطق والبرهان إلى الحقيقة . والمؤلف عرض بحثه مدعما بما وصل إليه من أدلة وبراهين علمية .. وهذه الأدلة والبراهين إما أن تكشف الخطأ وتعلن الحقيقة ، أو لا تكشف أو لا تعلن عن أي شيء ، وكل من الكتابين : (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق و(الإسلام والخلافة في العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الريس متوافرين في المكتبات ، ومن حق القارئ أن يقرأ ويفكر ، قبل أن يصدق أو يقتنع .

* * *

محب الدين الخطيب

السيد محب الدين الخطيب ، من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1304هـ وتوفي عام 1389هـ ، لمواقفه الإسلامية الكثيرة ، وإيمانه بالعروبة والإسلام ، ولإنشائه بعض التجمعات الإسلامية ومنها : جمعية الشبان المسلمين ، ولإعداده الموسوعات ومنها موسوعة الحديقة ، ولابتكاره ما يسمى بالصحافة الإسلامية ومنها (مجلة الفتح) .

هذا إلى جانب معايشة فكر « محب الدين الخطيب » في كتبه التي تقترب من الخمسين ، ومقالاته التي تعد بالمئات ، وأوراقه ومخطوطاته التي تملأ عددا من الحقائب والصناديق .. والتي تجعلك تقول عن هذا المفكر « إنه صاحب مدرسة فكرية كبيرة خرج منها علماء وسياسيون ومفكرون في العالم العربي ، ولم يمتد مجال تأثيرها حتى الهند والصين فحسب ، بل إنه منهج متميز في التفكير يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعلمي ، وإنه أكبر متيقظ لحركات الاستشراق العالمية وأكبر متابع لتحركات التغريب المحلية ، وأكبر واع لعمليات التعصب الشعوبية ، وإنه أحد الرواد الذين أضاءوا تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة فيما ألفه وحققه من كتب ، وإنه مركز استقبال وإرسال وتجمع لعدد ضخم من الكتب التي تحفل بها مكتبته الخاصة ذات المائة ألف مجلد ، ولا تجعلك تقول عن مجددنا الخطيب أن دراسة حياته هى دراسة لسير النضال الشريف طوال ثلاثة أرباع قرون وأن دراسة فكره توافر سجلا حافلا بالوثائق في مرحلة الريادة للنضال العربي.. فهو رجل صامت زاهد متواضع كان شعاره : اعمل ليراك الله وحده .. وتوار عن أعين الناس » .

وإذا كانت سمات الصمت والتواضع والزهد هي أولى خصال مفكرنا الخطيب، فإن تاريخنا الثقافي والسياسي لن يتجاهله كواحد من الذين عملوا ، ولم يكن في حسابه - وهو يؤدي واجبه - أنه يصنع من نفسه رائدا ، ومن عمله مجدا ، ومن تاريخه سجلا ، وإنما كان يفعل هذا غير راغب في شيء ولا راهب من شيء . فكتب له خلود لم يسع إليه .

إن أولى خطوات تفكيره : الإصرار على أن أرض العروبة كلها موطنه ، وأن دمشق التي ولد فيها عام 1886 كانت مقرا لتصبح القاهرة التي مات بها عام 1969 مستقرا . واليمن ولبنان والعراق مسرحا لنضاله ، من أجل عروبة العالم العربي .. الذي كان وقتئذ ولاية من ولايات الدولة العثمانية وها هو يعبر عن ذلك قائلا : «إن الأتراك في الماضي كانوا حريصين على استئصال عروبتنا ، وفرض نفوذهم علينا ، فكانوا يحملون العربي على اعتناق الثقافة التركية ، ومن أجل هذا .. عمل مفكرنا على تداول الكلمة العربية في إحياء تركيا نفسها، وتنجح محاولته مما يشجعه على إنشاء جمعية عربية من الشبان العرب هدفها : استرجاع مجد العروبة تعرف فيما بعد (بجمعية النهضة العربية) . وأعلن مع رفاقه دستور العمل الثوري . لكن لم يخف هذا النشاط عن أعين الرقباء ، فهوجم مركز الجمعية في بيت الخطيب [باستنبول] وصودر كل ما فيه وأصبح هو زبونا دائما يطلبه رجال السلطان عبد الحميد . ففكر في مكان آخر ، وكانت اليمن ؛ وهنا بدأ يغرس الفكرة العربية في نفوس جيله من الشباب في صحيفة (جزيرة العرب) التي كانت خير معاون للتحركات العربية ضد سياسة التتريك ، فاكتشف أمره ، ففر إلى دمشق تاركا على أرض اليمن أول خلية ثورية . وفي دمشق أصدر مجلة (طار الخرج) التي كانت تندد بأساليب الحكم التركي ويكتشف أمره ، وقبل القبض عليه يغادرها إلى بيروت التي لم يلبث فيها طويلا ليعود إلى [استنبول] مواصلا الكفاح وطلبا للتعليم . وبالطبع يكتشف أمره ،

وتضيق به الدنيا خصوصا بعد أن أصبح مراقبا في اليمن وسوريا والعراق فلا يجد غير القاهرة مكانا يتوجه إليه ويستقر فيه ، مواصلا نضاله وإن تغير سلاحه فقد أصبح القلم هو سلاحه الكبير في المعركة . ولذلك ينشئ فيها «الدار السلفية للطبع» عام 1909 ويعمل كاتبا بجريدة (المؤيد) ثم محررا بجريدة الأهرام خمس سنوات إلا أن عمله بالصحافة لم يشبع رغبته في تكتيل الجهد العربي لخدمة قضية العروبة ، فاشترك في عدد من الهيئات السياسية كان بارزا بها : سكرتيرا عاما أو كاتما للسر في مقدمتها «حزب اللامركزية» و«جمعية العربية الفتاة» و«جماعة الوحدة العربية» ونسق جهده مع بعض حكام العرب كأمير نجد عبد العزيز آل سعود وزعيم العراق «طالب النقيب» ، وشريف مكة «حسين بن علي» ، ويقوم مع رفاقه بسلسلة طويلة من المعارك السياسية ، هدفها : عروبة العالم العربي ، وهي معارك تحتاج إلى كثير من الوقت والدراسة ، ثم ينشئ جمعية الشبان المسلمين من الشباب العربي المثقف ، من أجل فكرة القومية العربية والإسلامية الخاصة .

وجنبا إلى جنب: ممارساته السياسية والاجتماعية، كانت هناك ممارساته الفكرية، والمصادر فيها كتبه وأوراقه إلى جانب بحث منشور للدكتورة «سهيلة الريماوي» حول أوراقه ، وآخر مخطوط عبارة عن رسالة للدكتوراه نوقشت عام 1976 وكان قد قدمها الدكتور «محمود فوزي محمد» إلى جانب عدد من قصاصات الصحف وصفحات بعض الكتب .

وأول ما يستوقفنا في تفكير الخطيب هو : منهجه الذي يرتكز على جملة من الحقائق منها امتزاج العروبة بالإسلام ، والتنبه إلى فضائل وقيم الحضارة العربية الإسلامية ، والحفاظ على سلامة اللغة العربية ، وتتحدد ملامح شخصية الخطيب في كلمتين جرى بهما قلمه ، الأولى : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الإسلامي » والثانية : «فأنا عشت ما عشت للعروبة والإسلام» .

وبهذا المنهج الواضح ومن خلال هذه الشخصية النقية ، وبذلك التصميم الواعي للوصول إلى الهدف المنشود ، جرى قلم مفكرنا معبرا عن جوانب الإصلاح المختلفة التي أشار إليها الدكتور «محمود فوزي محمود» في رسالته باستفاضة نجملها في هذه الخطوط السريعة . ففي الإصلاح السياسي: تناول مفهوم الوطنية، وضرورة إحياء النظام الإسلامي في اختيار ممثلي الأمة . وحتمية أن يحكم المسلمون بشريعتهم، وفي الإصلاح الاجتماعي يتناول الخطيب الكثير من أمراضنا الاجتماعية وفي مقدمتها انعدام معنى الجماعة ، وإهدار قيمة المصلحة العامة ، وحب التقليد للأجانب ، وفساد الأخلاق ، وتراجع الفضيلة ، والتواكل والكسل . وفي الإصلاح الاقتصادي يتناول النظام الإسلامي في المال ، وبيان وظيفة هذا المال في المجتمع . وفي إصلاح التعليم يقرر أن جميع علل المسلمين راجعة إلى سوء نظام التعليم ؛ وللشفاء من هذه العلل يطالب بإصلاح التعليم الديني في الأزهر ، وإصلاح التعليم المدني العام .

ومن أجل ذلك .. قال عنه الدكتور «محمد محمد حسين» في كتابه : (الاتجاهات الوطنية) : «محب الدين الخطيب هو أحد السابقين من دعاة العروبة والمجاهدين في تحرير الفكر والجانب الصحافي والجانب الأدبي والجانب الديني والجانب السياسي».

ومفكر عربي بهذه المواصفات من الطبيعي أن يكون له موقف مع أو ضد حركات الاستشراق والتغريب والشعوبية ، مثلا في تصديه لحركة الاستشراق نراه وقد سجل كل ما يمت لأعضاء هذه الحركة بصلة إلى درجة أن القارئ لما نشره أو لما كتبه في هذه المخطوطة النادرة التي أطلعني عليها ابنه الأستاذ «قصي» يكاد يجزم أنه كان يتعقبهم إلى حجرات نومهم .

ويتابع حركات التغريب التي تهدف إلى القضاء على معالم الشخصية الإسلامية، وتشكك في ماضيها وتقضي على قيمها ومثلها ، وكذا الشعوبية التي ما جاء الإسلام إلا للقضاء عليها .

بعد هذا .. هل نحن في حاجة للتعرف على أفكاره في كتبه التي تقترب من الخمسين وفي مقدمتها كتاب : (الحديقة) في 14 جزءا ، و(توضيح الجامع الصحيح) في 10 أجزاء و(سلسلة الأوف والضماد) التي صدر منها 7 كتب ... وغيرها من الكتب التي تقدمه كمفكر موسوعي ، فمثلا نراه في كتاب : (الموجات البشرية في جزيرة العرب) ، يصحح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها المؤرخ العالمي «توينبي» وفي كتاب (تقويمنا الشمسي) يقدم عملا جغرافيا فكرته : أن للمسلمين تاريخا شمسيا يتميز عن جميع التواريخ بميزات ظاهرة يعددها . وفي كتاب (طاغور) يعطينا فكرة شاملة عن حياة وثقافة شاعر الهند العظيم ، وفي كتاب (منهج الثقافة الإسلامية) يميز بين العلم وهو عالمي والثقافة على اعتبار أنها قومية ويثير قضية مهمة تتعلق بالتربية .

وإلى جانب هذا الجهد التأليفي ، هناك جهده في مجال تحقيق التراث ، وفيه يلتزم بواجب الأمانة في نقل النص ولا يقتصر عمله فيه على الشرح والتوضيح ، بل يمتد عمله إلى التنبيه إلى الأخطاء .

ولمفكرنا أساتذة في مقدمتهم : جمال الدين الأفغاني في تجديد الفكر الديني ، والإمام محمد عبده في الإصلاح والتعليم ، والشيخ علي يوسف ، ومحمد كرد علي في الصحافة ، وله أيضا تلاميذ في مقدمتهم بمصر الشيخ حسن البنا والدكتور عمر الدسوقي ، وخارج مصر في الهند أبو الحسن الندوي ومسعود غانم الندوي وفي الصين بدر الدين الصيني ومحمد مكين الصيني ... وغيرهم .

وإلى جانب كتبه ، هناك أوراقه التي ينبه إلى أهميتها الدكتور « أحمد عزت عبد الكريم» ؛ حيث إنها تتيح للدارسين والباحثين معرفة جوانب قضية النضال العربي في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد حاول السيد محب الدين الخطيب أن يصور هدف (صحيفة الفتح) فكتب في العدد الأول من السنة التاسعة 1353هـ يقول :

« إن الفتح أنشئت لمماشاة الحركة الفكرية الإسلامية ، وتسجيل أطوارها ، ولسد الحاجة إلى حاج يترنم بحقائق الإسلام ، مستهدفا تثقيف النشء الإسلامي ، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة، يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته إلى هذا الجيل من الأجيال الإسلامية التي تقدمه » .

وعقيدته في ذلك : أن المسلمين أمة واحدة ، نفوسهم تتصل بآصرة واحدة ، وعقولهم تشترك في عقيدة واحدة ، وقلوبهم تتحرك بأمنية واحدة .

وكانت دعوته في الصحيفة إلى التشريع الإسلامي، « فهو أرحم وأعدل من كل تشريع تقدمه أو جاء بعده ، ومن الخير لحضارة الغرب والقائمة الآن أن تقوم إلى جانبها حضارة إسلامية ، تتذوق بها الإنسانية لونا آخر من ألوان التعاون الإنساني».

والواقع أن (الفتح) قد صدرت في خلال فترة عصيبة من تاريخ أمتنا السياسي والثقافي ، فإن سنوات الثلاثينيات والأربعينيات كانت أقسى السنوات على العالم الإسلامي والفكر الإسلامي ، من ناحية محاولات التدمير والتغريب الضخمة التي حمل لواءها النفوذ الغربي ؛ لتثبيت كيانه وهدم صرح القوة الفكرية والروحية في هذه الأمة .

وهذا هو العمل الحقيقي الذي تصدت له الفتح وحملت لواءه ، ومن هنا لم تكن الفتح «صحيفة» وإنما كانت «مدرسة» ، فإن محب الدين الخطيب الذي جمع إليه كتاب العالم الإسلامي حيث كانت صحيفته منبرا لهم ، لم يلبث أن جمع إليه قادة الفكر في مصر ليقيم جمعية «الشبان المسلمين» ؛لتقف في وجه الحملات الضخمة

الموجهة إلى الإسلام ، وقد سارت مجلة الفتح والشبان المسلمين في طريق واحد ، تستمد من إيمان هذا الرجل وحماسته وصدقه «القوة» ، وهو طاقة كبيرة لا تزال حية تعمل حتى الآن في مجال الفكر الإسلامي .

وقد واجهت الفتح قضايا التغريب والإلحاد ، وحملت على كل الفرق في الطوائف والمذاهب المنحرفة المضللة ، ولم تترك الفتح كلمة تنشر في الصحف المصرية أو العالم الإسلامي فيها اتهام للإسلام دون أن ترد عليها وتكشف زيفها ، كما قدم صاحبها كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) حيث كشف لأول مرة عن مؤامرات التبشير .

وكانت أمانته للشمال الإفريقي كبيرة ، فقد حمل لواء الجهاد مع هذه الأقطار على نحو باهر خلال حروب «محمد عبد الكريم الخطابي» في الريف المغربي ، ومقاومة الظهير البربري في المغرب ، ومؤامرات التجنيس في تونس ، وقد حفلت الفتح بكتابات المغاربة حتى يمكن أن تكون الفتح مرجعا مهما لكل باحث عن قضايا الفكر والثقافة في المغرب العربي في هذه الفترة .

أما بالنسبة للعالم الإسلامي ، فأنت تقرأ « لمحمد مكين الصيني ، وخالد شلدريك» رئيس الجمعية الإسلامية في لندن ، وأخبار المسلمين في البوسنة والهرسك ، ودراسة حالة المسلمين في [ميلبار] ، والإسلام في شرقي إفريقيا ، وقضية فلسطين ، وتعليم اللغة العربية في الهند ، ومشكلة المسلمين في الحبشة ، وعرب زنجبار ، والإسلام في أندونيسيا ، وعن مسلمي بولونيا ، وكتابات «أبو عبد الله الزنجابي» من إيران ، ومقالات مطولة عن حاضر مسلمي الهند وغابرهم ، وعن المعاهد في [طرابلس وبرقة] .

وبالجملة .. تجد موسوعة عامة لتطورات الفكر والسياسة في العالم الإسلامي كلها بأقلام : « شكيب أرسلان » الذي يكتب أسبوعيا تقريبا من [جنيف] ،

مستعرضا ما يكتب عن الإسلام في أوروبا ، و«إسماعيل الندوي وشلبي النعماني ومسعود غانم الندوي» في الهند ، كما تنشر شعر «بهجت الأثري» عالم العراق الكبير، وديوان مجد الإسلام للشاعر «أحمد محرم» الذي نشرت أول فصوله في الفتح ، و«محمد تقي الدين الهلالي ، والشاعر محمد النجمي ، والشيخ مصطفى الرفاعي ، وعمر الدسوقي»، ومن المغرب «أحمد بلافريج»، ومن القوقاز «عبد الرشيد إبراهيم» تلميذ جمال الدين الأفغاني ، والدكتور «علي مظهر» ، و«عجاج نويهض» من لبنان ، والمرحوم الدكتور «مصطفى السباعي» (دمشق) والدكتور «يحيى الدرديري ومحمد كامل القصاب ومحمد الهياوي» .

وآراء السيد محب الدين الخطيب واضحة صريحة ، وأسلوبه مشرق مضيء ، يقول : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الإسلامي ، وكنت ولا أزال أفهم من هذه الكلمة الاصطلاحية أن الإسلام الذي كان عليه محمد - ﷺ - وأصحابه كما فهمه منهم التابعون ، فالإصلاح الإسلامي هو تجديد الإسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه، ومن الإصلاح الإسلامي : بث روح النشاط بين المسلمين ، لإحياء مقاصد دينهم ، وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه من الدعوة إليه ، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه » إلى آخر ما قاله والذي يعتبر دعوة صريحة لتجديد الفكر الإسلامي حتى يجعل هذا الدين مواكبا للحياة الدائمة التغير .

كذلك يدعو المسلمين إلى العمل الإيجابي من أجل اللحاق بركب النهضة حتى لا يتخلفوا عنه ، داعيا إلى إعداد رجال يقتبسون الصناعات ويتخصصون في العلوم اللازمة لها ، والإكثار من أهل المعرفة في فنون القوة .

وعنده : « أن الإسلام ليس دين عقيدة ، وعبادة فحسب ، بل الإسلام ثقافة طبيعية لأرواح ألفته وعاشت به وكان مبعث قوتها وسبب اعتلائها » . والإسلام

فوق ذلك تاريخ أمجاد تحسدنا عليها جميع الأمم ، وأمجاد العروبة لا ينفك تاريخها من تاريخ الإسلام بحال، فإذا حيل بين الإسلام والعروبة كانت العروبة جسدا بلا روح، وكان الإسلام روحا بلا جسد ، وهذا تاريخنا العربي من بدايته إلى اليوم ، لا نراه ازدهر وانتعش وكان مظهر العزة والقوة ، إلا في الأدوار التي كان الإسلام يزدهر فيها وينتعش ، ويأخذ نصيبه من العزة والقوة ، ويكذب من يظن أن العرب تنمو عزتهم بروح أجنبية غير روح الإسلام » .

ولست أعرف كاتبا كان أوضح رأيا في ربط الإسلام بالعروبة على النحو الذي يحقق فلسفة اليقظة وبناء النهضة ، كما يفعل السيد محب الدين الخطيب منذ سنوات طويلة ، فهو مؤمن بامتزاجهما واستحالة انفصامهما ، وهذه عبارته : « إن العروبة ظئر الإسلام ، وإن العروبة والإسلام كلاهما من كنوز الإنسانية وينابيع سعادتها ، إذا عرف أهلها قيمتهما وإذا أتيحت لهما أسباب الظهور للناس على حقيقتهما . وإذا ذلت العرب ذل الإسلام » ويقول : « إننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، وهذا حق ، ولكن لم نكن شيئا قبل الإسلام » .

وكما يذكر الأستاذ «الجندي» أن محب الدين الخطيب عاش حياته يدعو الشباب إلى التخصص في دراسة الفكر الإسلامى وتخليصه من الكتب القديمة وعرضه على النحو العصري الحديث ، الذي يتيح للمثقفين الانتفاع به ، ويرد عنه عادية خصومه حين يتهمونه بالضعف أو الاضطراب ، يقول : « أنا منذ بضعة عشر عاما إلى الآن أدعو شبابنا المثقف إلى التخصص في دراسة نواحى هذا الميراث المجيد ، وتنظيمه على النحو الذي يفعله المستشرقون والمستغربون ، ولكن بنية غير نيتهم فهم ينظرون إليه بعين الأم إلى بناتها ، أما المستشرقون فيدرسونه ليستعينوا به على استعمار أوطاننا. ونحن ندعو شبابنا أن يدرسوه ليصلوا به آتينا بماضينا ، ويتخذوا من قوته حصنا يجمع شتاتنا ويحمي حمانا » . كما يدعو إلى إعادة النظر في علوم الإسلام وتاريخ أهله، بعرض الحوادث الخطيرة في تاريخنا على نحو جديد .

ويؤمن السيد محب الدين الخطيب بالتربية ، فالعلم وحده - عنده - لا ينهض بالأمم فلابد من «التربية» .

ويصور أزمة العالم الإسلامي في افتتاحية مجلة «الزهراء» عام 1924 وهي مجلة ممتازة استمرت حتى عام 1930 يقول :

« تأصل في نفسي منذ أعوام كثيرة أن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تكن قائمة على دعامتين :

1- المرونة في الاقتباس من حضارات الأمم الأجنبية في وسائل القوة .

2- الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا الأصيل . وقد قص علينا التاريخ أن الأقوام الذين جمدوا عند تقاليدهم ، فلم يدعموا كيانهم القومي بدعامة الارتقاء والتجديد، ضرب على قلوبهم بالانسداد فتصرف فيهم أهل القوة والحياة ، كما أنبأنا التاريخ أن الأقوام الذين استهواهم تقليد الأغيار من أهل القوة ، فيما ينافي كيانهم القومي فانسلخوا من سجاياهم وفرطوا في تقاليدهم وتركوا حدود لغتهم مباحة لاحتلال اللغات الأخرى ، لم ترحمهم الأمم الأجنبية التي ذابوا فيها فاهتضمتهم حتى لم يبق لكيانهم الاجتماعي من باقية » .

وهو يركز دعوته في الإصلاح على هدفين : «المدرسة والصحافة» فيقول : « إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة ، فهما اللتان كونتا رجالنا وجماهيرنا كما نرى ، ولن نتقى شر الاحتلال الذي نتوقع أن ينزل بنا ، ما لم تكن لنا مدارس وصحف مؤسسة على جلاميد من الإيمان بالهداية المحمدية ، لا تزعزعها الزلازل ، وعلى دعائم من الوفاء للتاريخ العربي يفني الزمان ولا يفنى » .

وفي حدود هذه المفاهيم الواضحة للإصلاح في مجال الثقافة والفكر مضى قلم السيد محب الدين الخطيب يكتب في خلال خمسين عاما ، وكانت أنصع فتراته «صحيفة الفتح» التي تكون الآن أكثر من 25 مجلدا تضم 30 ألف صفحة قوامها :

- الدفاع عن حقائق الإسلام .
- مقاومة تيار الإلحاد .
- حماية اللغة العربية .
- إحياء التراث الإسلامي .
- بعض الأمجاد والمفاخر الإسلامية.
- تصحيح التاريخ الإسلامي .
- امتزاج العروبة بالإسلام .
- العودة إلى منابع الإسلام الأولى .

وغير ذلك مما تضمنته مجلة الفتح خدمة للإسلام ودفاعا عنه ، وتحديدا للفكر المتجدد فيه حتى يكون مواكبا لتطور الحياة .. ولهذا ولغيره ، يعتبر محب الدين الخطيب واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

طـه حسـين

طه حسين : يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث ولـد في أوائـل سنواته. وتوفي في أواخره، أو بالتاريخ الميلادي ولد عام 1889، وتوفي عام 1973.

وفي الحديث عنه واعتباره مجددا على رأس المائة الرابعة عشرة ، أقول إن التاريخ لم يكن بجاحد لفضل الدكتور طه حسين حين سجل في صفحاته أن هذا المفكـر قـد أضاء تاريخ صدر الإسلام بنظرات نافذة ، ولوامع وضاءة ، مقـدما كنـوزا للـتراث الإسلامى ، محتها زمنا الأساليب المستعـصية القديمـة . أقـول : لـن يكـون التـاريخ بجاحـد لفضـل هذا المفـكر المسـلم ، مهما استهدف للاتهامـات والافـتراءات التـي لا تصمد أمام البحث العلمي الموضوعي النزيه .

لم يكن هذا التاريخ بجاحد لفضل عميد الأدب العربي .. حين سجل في صفحة من صفحاته . أنه قد دعا في ثلاثينيات هـذا القـرن إلى مـشروع مـن أسـمى وأجـل المشروعات الثقافية في تاريخنا الثقافي المعاصر .. وهو مشروع : إعادة كتابـة التـاريخ الإسلامى على نحو يتقبله الإنسان المعاصر الذي انصرف عن هذا التاريخ لأسـباب كثيرة نذكرها بعد قليل، ليقرأ مادة كتبها غـير العـرب وفـق سياسـات معينـة تخـدم أغراضا معينة ، كما رأينا في مدخل هذا الكتاب .

عندئذ اتفق الدكتور طه حسين مع اثنين من زملائه في هيئة التدريس بالجامعة ، وهما : الأستاذ «أحمد أمين» ، والأستاذ «عبد الحميد العبـادي» ، عـلى كتابـة تاريخنـا الإسلامى منذ فجره إلى أواخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل مـن الثلاثـة بدراسة جانب يجيده ويتقنـه . فيختص الدكتور طـه حـسين بكتابـة جانـب الحيـاة الأدبيـة في الإسلام ، ويخـتص الدكتـور أحمـد أمـين بكتابـة جانـب الحيـاة العقليـة

والفكرية في الإسلام، ويختص الأستاذ عبد الحميد العبادي بجانب الحياة السياسية في الإسلام .

والأمر الذي لا يستطيع أن ينكره حتى الجاحدون لفضل طه حسين ، أن هذا المشروع الذي كان هو صاحب فكرته لم يكتف بتقديم عشرات الكتب للثلاثة فحسب ، وإنما تجاوز هذا العدد إلى كتب أخرى قدمها أساتذة وعلماء من أفذاذ جيلهم ، وفتح الباب على مصراعيه حين اهتم بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي لأجيال متعاقبة إلى يومنا هذا ، مازالت تقدم للمكتبة الإسلامية عطاء وفيرا وبأساليب مختلفة ، كلها تقرب هذا التاريخ من القارئ وتجلو الكثير من صفحاته.

ومن هذه الزاوية .. من زاوية دعوة الدكتور طه حسين لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي بشكل مقبول، وبمنهج علمي من ناحية، واستمراره في الكتابة الإسلامية ذات الطابع المميز حتى السنوات الأخيرة في حياته من ناحية أخرى .. كانت أعمال الدكتور طه حسين الإسلامية تقفز في المقدمة بين الأعمال العظيمة ، عندما يتصدى أي باحث أو دارس لرصد هذا التاريخ ، ومن كتبوه في مصر ، أو خارجها .

وإذا كان الدكتور طه حسين وأصحابه قد اتفقوا فيما بينهم عند الشروع في كتابة التاريخ الإسلامى .. على طريقة أو أسلوب في تناول المادة الإسلامية التى تزخر بها المكتبة العربية والأجنبية على حد سواء .. وهو بعينه المنهج ، فإن الدكتور طه حسين لم يلوح بكيفية هذا المنهج الذي اتبعه في تناوله للمادة الإسلامية التى أمامه ، على عادة ما يفعل بعض المؤرخين في كتاباتهم .. ولا سيما إذا كانوا في الأصل أدباء أو مفكرين . ومن هنا .. أصبح القيام بعمليات من الاستنباط والاستدلال للتعرف على هذا المنهج من كتاباته الإسلامية والاستئناس في ذلك بما كتب عنه من دراسات، إلى جانب ما شرف به صاحب هذه السطور من اهتمام ومتابعة لفكر الدكتور طه حسين .

بادئ ذي بدء .. كلنا نعرف أن شخصية الدكتور طه حسين قد تميزت بسمتين بارزتين . هما : سمة الأدب والنقد ، فهو أديب فنان إلى جانب كونه ناقدا حساسا . ومعنى هذا : أن شخصيته جمعت بين فنية الأدب ، وحساسية النقد . وبالطبع فإن سمات كهذه لابد وأن تلقي بظلالها على أي عمل فكري يقوم به ، حتى وإن كان إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، لابد أن يتعامل مع هذا التاريخ بفنية الأديب الذي يتناغم مع الأحداث ، وبشخصية الناقد الذي يمايز بين حادثة وأخرى - دون أن يعتدي على سير الأحداث - حسب إحساسه بالأحداث التاريخية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية .. فإن التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح .. هو في مجموع علم من العلوم ، أو بالأحرى نوع من النقد والفن . فمن الواضح أن جانبا كبيرا لا يستهان به من إنتاج الدكتور طه حسين الفكري - بوجه عام - يدخل في نطاق التاريخ .

ولهذا .. فإن المتابع لمراحل فكر طه حسين يذهب إلى القول بأن ما كتبه أيام شبابه عن الشعر العربي ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، هو نوع من التاريخ ، وأن ما كتبه عن بلاد اليونان القديمة في مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية نوع من التاريخ ، وما كتبه بعد أن بلغ سن النضج الفكري وخصصه لأصول الأدب العربي القديم وتطوره هو نوع ثالث من التاريخ ، وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في مصر والعالم العربي يعد في جوهره نوعا رابعا من التاريخ. وهكذا .. نجد في كل كتابات الدكتور طه حسين الاستئناس بالتاريخ .

ولعلني أذكره بهذه المناسبة يوم أن استمع إلى واحدة من هذه الدراسات التي كتبت حول كتابه : (في الشعر الجاهلي) ، فنصبت رئيسا للوزراء في مصر على صفحاتها غير رئيس الوزراء الفعلي . وبنى الكاتب على تصوره هذا جانبا من دراسته. يومئذ علق الدكتور طه حسين قائلا : «كان حريا بهذا الكاتب أن يرجع إلى

التاريخ ليتأكد من صحة الأحداث .. قراءة التاريخ واجب يضاف إلى واجبات الناقد عندما يرصد الحركة الأدبية ، أو الأديب عندما يبدع فنا يقال عنه إنه أدب ..».

وعلى مستوى التطبيق ، نجد الدكتور طه حسين صادقا في هذا القول بالنسبة لإنتاجه الأدبي المحض ، فيما جادت به قريحته من إبداع في ذكرياته الحميمة والتي تضمنتها أجزاء رائعته : (الأيام) ، نستشعر نوعا من التاريخ - على الرغم من أن إبداعه الفني في كتابته - يجعل القارئ ينسى أنه أمام صفحات من تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي .

وفي تتبعنا للفكرة الإسلامية عند الدكتور طه حسين ، حيث إنه اختار الحياة الأدبية في الإسلام ، نجده مؤرخا .. حين نتناول بالدراسة السيرة النبوية الشريفة في كتاب : (على هامش السيرة) ، وكان مؤرخا في ترجمته للخلفاء الراشدين الأربعة : «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي» رضى الله عنهم ، وكان مؤرخا أيضا حين تناول بالدراسة المجتمع الإسلامي بعد الرسول الكريم في كل من: (مرآة الإسلام) و(الوعد الحق) .

وإذا كنا قد توصلنا إلى أن الدكتور طه حسين مؤرخ. فلا يبقى أمامنا إلا تفاصيل وسمات وملامح منهجه في التاريخ الإسلامي .

فالدكتور طه حسين حين اختار الحياة الأدبية في الإسلام ، فمعنى ذلك : أنه يريد أن ينظر إلى المادة التاريخية التى أمامه نظرة الأديب الفنان ، الذي تجذبه وتبهره وتؤثر فيه الصورة الجميلة . ولعل هذا ما أراد قوله صراحة وليس ضمنا . في تقدمته للجزء الأول من كتابه : (على هامش السيرة) حيث قال : « إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكرى العرب الأولين .. قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب ، ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب . فإني لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد

المؤلفون .. إنما دفعت إلى ذلك دفعا ، وأكرهت عليه إكراها ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي ، ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولا أخرى ، أرجو أن تنشر بعد حين » .

ويقول :

« فليس في هذا الكتاب إذا تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير . وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب ، التي لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن ، والتي لا أمل قراءتها والأنس إليها ، والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابي بها ، وحرصى على أن يقرأها الناس ، ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها، لأنهم لا يريدون ، أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة .. فأنا سعيد حقا ، موفق حقا لأحب الأشياء إلي وآثرها عندي .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذا إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما ، بل كذلك للإنتاج الإنشائي الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد . وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع ، وخلا من الفائدة .. فإن كان نافعا مفيدا ، فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد » .

وبهذه العبارات حدد الدكتور طه حسين منهجه في التاريخ .. فمن يقرأها ويقرأ غيرها في كتبه ، يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ .. يحس فيتصور مما يحس صورة ، هي جوهر من التاريخ لا من تفصيله ، وهي لب ما في التاريخ الذي نحب أن نتمثله جميعا ليكون لنا فيه الصورة المشتركة .

وقد نستشعر الدور العظيم الذي قام به الدكتور طه حسين وصحبه في استلهامهم تاريخنا الإسلامي من بطون الكتب القديمة من عبارته التالية : « .. فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة ، وفهمه أعسر ، وتذوقه أشد عسرا . وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التي يلتوي منها الاستطراد وتجود بها لغته القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء ؟!

ذلك.. أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى- كما هو- ثابتا مستقرا لا يتغير ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه ، يقرأونها ويعيدون قراءتها ، ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها ، إنما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرؤه ، لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك ، لأنه يوحي إليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصبا ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ، وينطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك أو يصور قلبك في صورته ، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم..».

في هذه العبارة .. يكمن الهدف الذي من ورائه دعا الدكتور طه حسين إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، كما يكمن منهجه في استلهام هذا التاريخ الذي يريد كتابته للقارئ المعاصر من الكتب القديمة ، ويكمن أيضا طريقته في التناول .

وحيث نقترب من فكر الدكتور طه حسين .. يتراءى لنا ملامح منهجه كأديب مؤرخ ، فهو في هذا الجانب من فكره لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب في العلم إغراقا من شأنه أن يصيب حوادثه التاريخية والأدبية بالجفاف . ولا يغرق في الفن إغراقا من شأنه أن يفني الشخصيات في ذاته وشخصيته ، بل هو يتخذ في تناوله للمادة الإسلامية طريقا وسطا بين العلم والفن .. بين التاريخ والأدب .. طريقا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبي في استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية ، مع ما ينبغي له من الحس الدقيق المرهف ، والذوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء ، وفيما يصور من مواطن الجمال الفني في الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة .

وتأسيسا على ذلك .. وضع الدكتور طه حسين لنفسه ، ولمدرسته من بعده ، الأصول التي ينبغي أن تبدو عليها دراساتهم ، وهي أصول ترد إلى جانبين :

- **جانب علمي** : يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالاتها ، مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ، ومعرفة الظروف التي أحاطت بها ، والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئيها ، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .
- **وجانب فني** : يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها ، وما تحدثه في نفس قارئيها من لذة ، وهو الجانب الذي يحيل التاريخ إلى عمل أدبي ممتع يلذ العقل والشعور ، إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي . فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ ، حيث ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته ، ويحمله بأسلوبه ، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلي .

إلى جانب فحص المادة التاريخية ، ثم نقدها ، تبدأ عملية صياغتها من جديد ، فهو حين يقوم بصياغتها يستخدم المنهج الاجتماعي في البحث ، وخاصة إذا كانت هذه المادة التاريخية حول أشخاص . ويمكن الاستدلال على هذا المنهج الاجتماعي عند الدكتور طه حسين من عبارة في تقديم كتابه : (قادة الفكر) ، حيث يقول : «الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء ، وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محوا . إنما السبيل أن تقدر الجماعة وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطاعت في تحديد الصلة بينهما ، وفي تعيين ما تطلبهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة .

بهذا المزج في شخص الدكتور طه حسين بين العلم والفن .. بين التاريخ والأدب ، وبهذه الرؤية الاجتماعية ، درس الدكتور طه حسين المادة الإسلامية وقدمها في قوالب جديدة .

وعلى ضوء هذا المنهج .. يقدم لنا الدكتور طه حسين المجتمع الإسلامي ، ويستهل تأريخه الفني لهذا المجتمع بهوامشه على السيرة المحمدية ، يتبعه بحديث عن الخليفتين : أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم بحديث آخر عن الخليفتين : عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهما ، ثم حديث عن هؤلاء الرجال الذين كانوا حول الرسول : الأغنياء منهم أو الفقراء ، ولا ينهي حديثا عن المجتمع الإسلامي بما فيه من أفذاذ الرجال دون أن يحدثنا عن الإسلام نفسه دين الحنفية السمحة والفطرة السليمة ، وكيف أنه ساد في الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، واستقر في القلوب التي أغلقت أمام كل عاطفة الإنسانية ، والأصول والمبادئ التي ارتكن إليها هذا الدين لينتشر وليبقى . فهل بعد هذه الاجتهادات ، ألا يعد الدكتور طه حسين مجددا ؟!

* * *

مالك بن نبـي

عندما يتجاوز الفتى الـصامت المرحلـة الثانويـة ، يغـادر الجزائـر إلى بـاريس ، ليلتحق بكلية الهندسة ويتخـرج مهندسـا كهربائيـا ، ويتقـدم للعمـل ليفاجـأ بكـل الأبواب مغلقة في وجهه ؛ فالاستعمار الفرنسى أدرك الخطر من فـتح الأبـواب أمـام هذا الفتى الذي لا يكف عن القراءة والتفكير والاتصال بالأحداث الجارية في العالم الإنساني ولا يجد أمامه إلا بابا واحدا مفتوحا على ميدان الفكر الإسلامى فيدخلـه . ولنعرفه فيما بعد بالمفكر «مالك بن نبى» . الذي ولد عام 1323هـ وتوفي عام 1393هـ كواحد من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

والحق أن مؤلفات مالك بن نبى الإسلامية تنقل لنا صورة حية للفكر الإسلامى، فيها حياة وقوة ، فيها خصب ونماء ، فيها عظمة وشـموخ ، فيهـا ثـورة وتمـرد ، الأمـر الذي يجعل العقل يهتز هذه الهزة القادرة وحدها على انتـشاله مـن الـشك إلى اليقـين ، ولذلك فالقارئ في مصر ، تواق للاطلاع على هذه المؤلفات لإحـساسه بـصلة الـرحم والقربى من ناحية ، ولإيمانه بتفتح واستنارة عقل صاحبها مـن ناحيـة أخـرى ، إلا أن هذا القارئ لا تجتمع لديه عن فكر مالك بن نبى ما يـصل بـه إلى هـذا الـرحم أو هـذه القربى أو ما يدعو إليه ذلك الإحساس أو هذا الإيمان لأسباب كثيرة أبرزهـا : قلـة مـا يصل لمالك بن نبى أو عنه من مؤلفات ، فالرجل وقد كـان مـن أبنـاء الـشمال العـربي الإفريقى . عاش في محنة ازدواجية : «العقل العربي» و«اللسان الفرنسى» .

ولنحلق الآن مع جوانب من فكره . ونتأمله وهو يضع الخطوط العريضة لفكر الأمة الإسلامية التى نكبت بالتخلف عن ركب الحضارة ، فـيرى أن سـبيل إنقاذهـا هو بتخليصها من الأفكار المريضة ، والتى في مقدمتها : قابليتها للاستعمار ، وإذا تـم ذلك أخذت هذه الأمة مكانها اللائق بها .

ومشكلة أخرى ، تتمثل في اتباعنا الأساليب الغربية ، حيث يسأل لماذا ندور في فلك الغرب وننتهج سلوكه ؟ ويجيب بأن دوافع الحياة هى التى ورطتنا في ذلك منذ استيقظنا على خطر الاستعمار . إن مثلنا في ذلك مثل نائم استيقظ فجأة فوجد النار في غرفته ، ودون أي تفكير ألقى بنفسه من النافذة . فالمجتمع الإسلامى ألقى بنفسه – من حيث لا يدري ولا يريد – في هوة التقليد للغرب واستعماره حتى يعصم نفسه منه.

ومعنى ذلك أيضا : أن روحانية الشرق الإسلامى تأخذ من مادية الغرب الاستعماري ما تظن أنه يشفى جسدها العليل . وترد مؤلفات مالك بن نبى ، فترى لذلك سبيلا هو أننا ونحن في طريقنا إلى النهضة نتبع سبيل الشيء ، حينما نرى أوروبا تخرج علينا بزينتها المادية البهيجة ، فيقع في نفوسنا شيء مما وقع في نفوس بنى إسرائيل حينما خرج عليهم قارون بزينته ، وهكذا عمدنا إلى تقليد هذه الحالة ، والأكثر نقلد – بجهالة – عثرة المقص في يد الخياط الأوروبي .

وإذا كان مالك بن نبى قد وضع أيدينا على جسم المأساة، فما هو طريق العلاج؟ ويجيبنا هو : طريق الفكر الذي يحدد الوسائل والنتائج ، الفكر الذي انتهى إليه التطور وارتضاه السير في القرن العشرين .

وحين يفكر بصوت عال في السياسة الرشيدة والفعالة لعالمنا الإسلامى ، يراها تقوم على مبدأين: أولهما أن نتبع سياسة تتفق ووسائلنا المادية، وثانيهما: أن نوحد بأنفسنا وسائل سياستنا ، وبهذا تنسجم السياسة مع طبيعة الأمة الإسلامية فتوجه إمكانياتها .

ونستمع إلى سؤاله عن مكان المجتمع الإسلامي في المجتمع العالمي ؟ ويجيب : مكان تافه ! ونسأله : ولماذا ؟ فيجيب : لأن هذا المجتمع الإسلامي لا يمثل مصلحة ذات أهمية عالية ، وكيف يمثل هذه المصلحة ؟ ويجيب : إذا ارتفعت أصواتنا داعية إلى الخير وتحقق في سلوكنا معنى الآية الكريمة : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ** ﴾[1] الخير إذا .. في رأي مالك – هو جواز مرورنا إلى العالمية .

(1) آل عمران : 104 .

ويتأمل طبيعة النفس الإنسانية وغريزة التدين في فطرة البشر وتاريخ المذاهب والعقائد وتاريخ الأنبياء والرسل ، ثم آيات هذا الكتاب الذي جاء بنفسه دليلا على صدق نفسه، ليقدم لنا الظاهرة القرآنية مهتديا إلى منهج يقبله غير المسلم قبل المسلم. فهو مثلا لا يكتفي بالقول أن إعجاز القرآن يقوم على سمو كلام الله فوق كلام البشر، ولكنه يلجأ إلى الدراسة الأسلوبية ؛ لكي يضع للإعجاز أساسا عقليا .

ويتأمل الأنظمة الاقتصادية التي تحكم العالم - وقتئذ - فيجد أنها جميعا تنتهي إلى نظامين : رأسمالي وشيوعي ، ويسأل ما موقفنا نحن في المجتمع الإسلامي ؟

ويجيب : أننا نضيق على أنفسنا مجالات التفكير والاجتهاد ، حيث لا تخرج عن مسلمتين - الأولى : أن الموجود من الأنظمة الاقتصادية ليس هناك أفضل منه . والثانية: أن النشاط الاقتصادي لا يمكن قيامه دون تدخل المال ، سواء عن طريق استثمارات في القطاعات الخاصة التي يوجهها الأفراد ، والعامة التي توجهها الدولة.

ومعنى هذا : أن الفكر الإسلامى يتعثر ، والسبب طبيعة موقفه من الأشياء وليس من طبيعة الأشياء ذاتها .. وهنا يتقدم بنظرية ثالثة جديدة مؤكدا أن العالم الإسلامى متى تكونت لديه إرادة واضحة للتخلص من التخلف ، سيجد أولا في المجال النظري أن اختياره ليس محدودا بالرأسمالية أو الشيوعية ، وأنه بالتالي يكون التعويض للاستثمار المالي المفقود لديه بالاستثمار الاجتماعي الموجود على أساس مسلمتين جديدتين : **الأولى** لقمة العيش لكل فم . **والثانية** واجب على كل ساعد .

وبعد .. فهذه إيماءة متواضعة أو إشارة سريعة إلى المفكر الجزائري : مالك ابن نبي ونظرته إلى الإسلام ، وفكره الذي جعل منه واحدا من المجددين .

* * *

عبد الحميد جودة السحار

عبد الحميد جودة السحار : من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1331هـ وتوفي عام 1394هـ لما قدمه من كتب وكتابات ذات تناول خاص هو بعينه التناول القصصى ؛ حيث جعل المادة الإسلامية الموجودة في بطون الكتب القديمة مادة يقبل عليها القارئ الشاب ، ولعل ذلك نوع من الدفاع عن الإسلام ضد خصومه ، إلى جانب أنه كان يقدم الصورة الحقيقية للإسلام بأسلوب يقبله الشاب المعاصر .

وفي متابعة مسار الفكرة الإسلامية عند هذا الكاتب الإسلامى الذي كتب ما يقرب من الأربعين كتابا في الإسلام ، أبرزها العشرون كتابا التى تضمنها مؤلفه الضخم «محمد رسول الله» ، ومؤلفات أخرى منها : «أبو ذر الغفاري» و«بلال مؤذن الرسول» و«سعد بن أبي وقاص» و«أبناء أبي بكر» و«أهل البيت» و«فجر الإسلام» و«عيسى بن مريم» و«حياة الحسين» ، وغيرها قد تأثر في أسلوب تناوله للمادة الإسلامية بمن سبقه في الكتابة الإسلامية وفي مقدمتهم : طه حسين وهيكل وأحمد أمين والعبادي والعقاد .

فهو يعلن أنه اعتمد على القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتوراة والإنجيل ، وكتب التاريخ كمصادر وأنه لم يدون أي حادثة إلا وكان لها سند ، وقد محص الروايات المختلفة واختبر أقربها إلى المنطق وروح الدعوة الإسلامية .

والسحار وقد كان أديبا وقصاصا لم يكن عسيرا عليه تحقيق أمنية طالما راودته وعبر عنها في كتاباته حين قال : « وكانت أمنيتى منذ حملت القلم أن يوفقنى الله إلى كتابة السيرة النبوية ؛ ذلك لأن السيرة قصة حياة إنسان عظيم ترك من الأثر في الحياة والناس ما جذب إليه التاريخ ، وهي بذلك أقرب إلى القصة من التاريخ بمعناه العام

حيث تحفل بالعواطف الجياشة والأحاسيس النابضة؛ لأنها تعرض من سيرة هذا الإنسان جوانب مختلفة في حياته تنجلي فيها سمات روحه ومعالم شخصيته وسر نبوغه .

وهكذا اعتمد السحار على أسلوبه القصصي في تناوله للمادة الإسلامية مع التأكيد على صحة الوقائع التاريخية ، واستفاد من كونه قصاصا أن يستخدم الخيال- غير الجامح - في سد الثغرات التي تقطع التسلسل الزمني .

والسيرة كما هو معروف قد تناولها بالكتابة الكثيرون منذ أن سجلها «ابن هشام» إلى اليوم . لكن السحار حين شرع في كتابتها أضاف جديدا حين خالف رأي «علماء المقارنة بين الأديان» الذين يرون أن الإنسان ابتدأ في طفولته الدينية بالوثنيات ، ثم ارتقى في الديانات إلى أن عرف التوحيد ، وهنا يرى السحار أن هذه النظرية خاطئة من أساسها لأن آدم كان على علم وكان يعرف التوحيد ، ولكن كلما يطول بالناس الزمن وتقسو قلوبهم ويتحول التوحيد إلى أساطير يرسل الله لهم رسولا ليعيد البشرية مرة أخرى إلى التوحيد ، وتتكرر هذه القصة إلى أن جاء محمد - ﷺ - ومعه نزل القرآن .

وكتابات السحار الإسلامية تمت بعد اكتشاف مدينة [أور] الكلدانية وهي مدينة إبراهيم عليه السلام ، والتي يسر اكتشافها تفسير كثير من آيات القرآن الكريم تلك التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام فذكرت أنه حين رأى كوكبا فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[1] ، ثم رأى القمر فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[2] ، ثم رأى الشمس فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾[3] ، وقد لجأ بعض العلماء إلى الاعتماد على أساطير اليهود لتدبير هذا التسلسل ولكن بعد اكتشاف مدينة «أور» ومعرفة أن كوكب المشتري كان رب الأرباب في ذلك الوقت ، وأن عبادة الكواكب كانت أرقى

(1) الأنعام : 76 .
(2) الأنعام : 77 .
(3) الأنعام : 78 .

العبادات تليها عبادة القمر تليها عبادة الشمس وعلى هذا فإن الترتيب الذي جاء به القرآن الكريم هو الترتيب المنطقي الذي يطابق واقع الحياة الذي كان موجودا في الزمن القديم .

وللسحار اجتهاداته المشكورة في مجال التفكير الإسلامى ، ومثال ذلك : ما كتبه عن الخلاف بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة حول إبراهيم عليه السلام ، فقد رأى من حقه كعربي مسلم أن يقبل من تراثه العربي ما يتفق وعقيدته الإسلامية ، فرفض مثلا أن يكون اسم والد إبراهيم عليه السلام «تارح» لأنه في القرآن الكريم «آزر» ، ورفض كذلك أن تكون «سارة» شقيقة لإبراهيم عليه السلام من أبيه تارح كما ذكرت التوراة ؛ لأنها عند المفسرين المسلمين هى ابنة عمه «هاران» وليست شقيقته ؛ حيث إن عادة زواج الأخت من أخيها لم تكن منتشرة بين العرب الذين خرجوا من جزيرتهم إلى بلاد تقر هذه العادة .

والسحار يبرر اجتهاده هذا بالقول : أن التوراة قد كتبها أحبار اليهود بعد أن انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون وانقضى على عهد إبراهيم عليه السلام أحد عشر قرنا ، وترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية في القرن الثاني الهجري فأخذ منها المؤرخون والأحباريون الكثيرون الذين ملأوا به التاريخ الإسلامى . وغيرها من الاجتهادات التى تؤكد أن السحار قد أضاف جديدا بكتاباته إلى الفكر الإسلامي الذي من أجله يمكن اعتباره واحدا من المجددين .

وعلى الرغم من أن السحار له إنتاج يزيد عن الخمسين كتابا - كما رأينا - كانت معظمها عن الإسلام وبأسلوب متميز .. على الرغم من ذلك فقد كان رحمه الله من المظلومين في الحياة الثقافية العربية ، سواء في حياته أو بعد مماته .

وكثيرا ما يتأمل المرء الأسباب التي تجعل المثقف مظلوما في حياتنا الثقافية ، وكثيرا أيضا ما تتراءى له هذه الأسباب فرادى وجماعات ، في مقدمتها بالنسبة للسحار أنه فيما كتب من إبداع أدبي اعتبره نقاد الأدب مفكرا إسلاميا ؛ لما له من

إنتاج غزير في هذا المجال ، يكفي أن نذكر منه المجلدات العشرين التي صدرت تحت عنوان (محمد رسول الله والذين معه) والتي تنتهي بعض أجزائها بتذييلات تعتبر منفصلة تصلح وحدها لأن تقيم أبحاثا في الأديان المقارنة ، يضاف إليها عدد آخر من الكتب الإسلامية المستنيرة التي تجعل ناقد الأدب لا يتردد كثيرا في القول : بأن أدب السحار يغلب عليه طابع التفكير .. وهو من شأن ناقد الفكر وليس ناقد الأدب .

ولا يقل موقف ناقد الفكر من السحار عن موقف ناقد الأدب ، إذ يعتبره أديبا مبدعا ، على زملائه من نقاد الأدب مسئولية تقييم أدبه من روايات طويلة أو قصص قصيرة ، وحتى عمله في الفكر الإسلامي يعتبره ناقد الفكر ذا صبغة أدبية . وعلى هذا .. يجد ناقد الفكر تبريرا للمرور مر الكرام على هذه الأعمال التي قدمها السحار في الفكر الإسلامي ... والتي تعتبر من أهم مراجع البحث .

وسبب آخر ، أنزل الظلم على إبداعات السحار الأدبية وأعماله الفكرية لعله في المعركة بين اليمين واليسار وما نشأ عنها من تعتيم . والحق أن هذه المعركة التي كانت بين اليمين واليسار في الستينيات شبيهة بالمعركة بين القديم والجديد في النصف الأول من الماضي أو بين الأصالة والمعاصرة .. وهي معارك تهدر قوى الأطراف المشتركة فيها ؛ لأنها تتيح لأصحاب السيادة الفكرية وقتئذ تجاهل إبداعات وأعمال الأطراف الأخرى . أو على الأقل تفرض عليها نوعا من التعتيم غير المبرر ، خاصة إذا كان كل طرف ينقسم إلى عدد من التصنيفات والتفريعات والتقسيمات الشبيهة بالبحار وما فيها من أصداف وأعشاب وطحالب ، وقد لا تكون هذه التقسيمات في مصلحة الثقافة والمثقفين في أحيان كثيرة ، وقد يتضاعف ضررها حين تتزايد من تصنيفاتها . فيقال إن في اليمين : يمين اليمين ، ويمين اليسار ، واليساري اليميني ، إلى آخر هذه التصنيفات التي تقابلها تصنيفات أخرى في اليسار ، وهي تقسيمات وتفريعات لا ينبغي بالضرورة أن تنطبق على الثقافة ، ناهيك عن الإخلاص أو

الزيف داخل كل منها، وهي معايير متغيرة ترتبط في الكثير من الأحيان بنظرة كل تيار إلى الآخر. هذه النظرة التي قد لا تكون موضوعية في أكثر الأحوال، كان من الطبيعي والأمر كذلك أن يفرض نوعا من التعتيم على إبداعات السحار وأعماله الفكرية ، إذ كان يمثل هذا الطرف أو ذاك ، ويتضاعف هذا التعتيم إذا كان المثقف محايدا مثل السحار لا ينتمي لأي من هذه الاتجاهات التي تقف بجانبه ظالما أو مظلوما .

يضاف إلى ذلك سبب ثالث لعله في ركود الحياة النقدية بوجه عام ، وهو أمر اتفق على الشكوى منه شيوخنا وأساتذتنا وعلماؤنا ومفكرونا . وأول نتائج هذا الركود هو : غيبة التقييم الحقيقي لكل إبداع أدبي أو عمل فكري ، وبالتالي ضياع الكثير من الحقوق .

ولولا وفرة من إنتاج السحار غطت مكانا فسيحا في المكتبة العربية ، واحتلت مكانة عظيمة لدى القراء لنسينا الرجل ، وكل ما قدم من إبداعات أدبية أو أعمال فكرية .

ولولا أن تنبه إلى إنتاجه عدد من الزملاء في مقدمتهم الأستاذ «مأمون غريب» الذي أفرد في عام 1975 له كتابه عنوانه (السحار والفكر الإسلامي) وعدد قليل جدا من المقالات النقدية الجادة في مقدمتها ما كتبه الأستاذ «فؤاد دوارة» ، أو الأستاذ «غالي شكري» .. لأضيف اسم السحار إلى أسماء غيره من أعلامنا المنسيين .

ولولا أن وضع أدب السحار وفكره في ميزان النقد الجامعي حيث نوقشت رسالة دكتوراه عنوانها (التيار الإسلامي في قصص السحار) كان قد قدمها الأستاذ/ «صفوت يوسف زيد» عام 1983 إلى كلية اللغة العربية بالمنصورة . متناولا بالبحث والدرس- مع العرض والتحليل- مجالات الإبداع التى تفرغ لها السحار في كتاباته، وتشمل القصص التاريخي بروافده المختلفة والقصص الاجتماعي بألوانه المتباينة.

ولعلنا نلمح هذا التأثر بالمنهج الإسلامي فيما كتبه الدكتور «صفوت أحمد زيد» في بحثه الذي نال عليه درجة الدكتوراه وعنوانه : (التيار الإسلامي في أدب عبد الحميد جودة السحار) حيث قدم السحار أكبر إنجاز فني يكفي قيامه وحده دليلا على صدق المنزع وسلامة الاتجاه ، وقد تمثل ذلك في السيرة النبوية التي ألفها في عشرين جزءا صدرت تباعا على مدى ما يقرب من ست سنوات ، وتناولت حقبة من التاريخ القديم ، تبدأ من حياة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ، وتستمر في تواصلها مرورا بإسماعيل وهاجر وأبناء إسماعيل فإذا وصل بها إلى مولد الرسول الكريم محمد - ﷺ - تناول حياته الشريفة بالكشف والإبانة في كل مرحلة من مراحلها ، على نمط خاص ومن منظور محدد ، ويظل في حركته الراصدة إلى وفاة الرسول - ﷺ - وما تبعها من خلافة أبي بكر رضي الله عنه وجهاده في حروب الردة ، مستعرضا من خلاف ذلك كله صور الكفاح الديني والبطولة الفذة في مواجهة زيف الشرك ، وفساد الطغيان ، ومبرزا دور الإسلام في تغيير المفاهيم الشركية ، وبث القيم الجديدة التي جاء بها من أجل رفعة البشر جميعا ، مستخدما نفس القالب القصصي الذي استخدمه قبل ذلك فيما عالج من سير الأعلام وقد أراد السحار من ذلك : (عرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ، ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد ، من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين) .

وفي قطاع ثالث من أعماله - كما يسجل صاحب الرسالة الدكتور صفوت - نجده ينتقل سريعا على جسر الزمان مشدودا إلى بعض المراحل التاريخية ذات الملامح الخاصة ليؤكد صدق نظرته التي انطلق منها في تفسيره للتاريخ على أساس ديني يرى من خلاله ازدهار الحياة والحضارة في ظل الدين .

ومن هنا توقف السحار عند آخر عهد العرب بالأندلس في (أميرة قرطبة 1949) كما توقف على مشارف مصر الحديثة في (قلعة الأبطال 1954) وفي حربها ضد العدوان الثلاثي في (السهول البيض 1965) والسحار في كل هذه الأعمال لا يقدم التاريخ مجردا مدعوما بالوثائق والأسانيد فليست هذه وظيفته بحال من الأحوال ، وإنما هي وظيفة المؤرخ الذي ينشد الحقيقة ، ومن ثم فهو يتسلح بمنهج التاريخ ذي الصفة الاستردادية ، مسترشدا بمصادره في محاولة إعادة تصوير الماضي بهدف كشف الحقيقة . والبحث عن الدوافع الخفية وراء أحداثه وصراعاته .

ولا شك أن وظيفة المؤرخ بهذا المفهوم تقوم أساسا على رصد الحقائق كما هي في إطارها الموضوعي ، وتحتاج في الوقت نفسه إلى قدر من الإحساس الفني يتمثل في إعادة صياغة الماضي من جديد على صورة لا يمكن تجريدها من الذاتية التي تنبع من رؤيته للحدث التاريخي بعينه الباصرة وتكوينه النفسي والمذهبي . على أن هذه الذاتية مهما تسللت إلى الصياغة التاريخية لا يمكن أن تلحق بالطبيعة الأدبية ، ولا يصح أن يتحول التاريخ معها إلى مجال الأدب والفن . أما الفنان الذي يستلهم التاريخ في إبداعه الفني فإنه وإن كان يعتمد على الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية كمادة أولية - يرى هذا الحدث ليس أكثر من ركيزة ينطلق منها إلى عالم من التصورات والرؤى ليستشرف آفاق الحياة الإنسانية في رحلة الإنسان عبر خطوطها وصراعاته .

كما أراد بهذه السيرة أن يفسر التاريخ روحيا وأن يطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن يعيد إليه رفاهته التي بلغت غايتها في ظل الدين ، وأن يعيد للإنسان كرامته التي تتألق وتذكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز ، وما تهفو إليه النفوس .

وعلى ضوء هذه الدوافع راح يستعرض الجوانب المختلفة من حياة صاحب السيرة في تفصيل دقيق وتحليل أمين وعرض شيق ، مأخوذا بجوانب العظمة في حياة

الرسول - ﷺ - الذي شغف به منذ طفولته وأعجب بشخصيته ، وكان كلما تعمق في تتبع مراحل حياته ازداد إعجابه وحبه له ، ولقد عبر عن ذلك الحب بقوله : «بهرتني منذ نعومة أظافري شخصية محمد - ﷺ - ، فعكفت على قراءة السيرة ، فكنت كلما تعمقت في دراستي ازداد إعجابي بشخصية الرسول الكريم ، فهو الإنسان الكامل والأسوة الحسنة للبشرية» .

ومما يتصل بالمضمون التاريخي رأيناه يتناول الحياة الدينية في مجموعات قصصية ذات مستوى خاص ، يتناسب مع مدارك الأطفال ودرجة نموهم ، هادفا إلى غاية تهذيبية ، وخطة تعليمية ، فقدم للأطفال قصص الأنبياء في ثمان عشرة قصة ، وقصص السيرة النبوية في أربع وعشرين قصة ، وقصص الخلفاء الراشدين في عشرين قصة ، والعرب في أوروبا في أربع وعشرين قصة ، تناول فيها جميعا بالعرض الواضح : جوانب مختلفة من حياة البشرية وتطورها وموقفها من دعوات الرسل والأنبياء ، وما تعرض الرسول - ﷺ - له في حياته من أذى المشركين في مكة ، وما قام من حروب في سبيل الدعوة إلى الله ، مبرزا شمائله وأخلاقه في المعاملات الإنسانية كما تناول بالبيان حياة الخلفاء الراشدين وجهادهم وما أخذوا أنفسهم به من حب للدين وإيثار لمصلحته على ذوات أنفسهم ، والعمل على إعلاء كلمة الله وتطبيق أحكامه : قولا وعملا . إلى غير ذلك مما تعرض له في أسلوب سهل ولفظ رشيق ، مستخدما وسائله الفنية في القصص والحكاية .

كذلك التأثر بالمنهج الإسلامي في التناول ليس فيما كتبه عبد الحميد جودة السحار من الأعمال الإسلامية وإنما أيضا نلمحه فيما كتب من أدب فنراه في حوار له بأهمية التراث الإسلامي وسر توجهه إليه في مرحلة مبكرة من حياته الأدبية بعد صدور (أحمس بطل الاستقلال) قال : «أحسست أن التراث الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية تمثلان شيئا مهما وجوهريا داخل حلقات التطور الفكري لمصر

عبر العصور ، وأنه لا يمكن تطوير الأدب وتطـور الثقافـة المـصرية دون العـودة إلى استلهام هذا التراث وتحقيقه على المستويين : الفكري والفني .

لذلك .. كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة التي لم تشارك فقط في تطوير ثقافة وفكر المنطقة ، بل كان لها آثارها البعيدة في تطوير الثقافة الإنسانية العالمية بشكل عام » .

إلى آخر ما سجله الدكتور «صفوت أحمد زيد» في رسالته عن (التيار الإسـلامي في أدب عبد الحميد جودة السحار) ، وهو ما يؤكد سيادة هذا التيار لـيس في كتاباتـه الإسلامية فحسب ، وإنما سيادته في كل ما كتب .

* * *

محمد أبو زهرة

الشيخ محمد أبو زهرة : من مجددي القرن الرابع عشر الهجري فقد ولد عام 1315هـ وتوفي عام 1394هـ . وكما يقرر أهل الفقه والعلم والتاريخ في الجامعة وخارج أسوارها : إمام لمع اسمه في سماء الفكر الإسلامي .. في أربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن الميلادي الماضي ، ولم يقتصر الاهتمام بكتبه ودراساته ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه على الجامعة ، وإنما زاد الاهتمام واتسع ، حيث شمل طلاب علم الفقه والشريعة ومعهم المثقفون وكل المهتمين بقضايا العقيدة والدين على وجه الخصوص ، والتفكير الاجتماعي على وجه العموم . كذلك لم ينته دور إمامنا الشيخ محمد أبو زهرة على التدريس الجامعي وتعليم الأجيال المتعاقبة التي نهلت من علمه وفضله ، وإنما تجاوز ذلك .. فكان له دوره العظيم خارج أسوار الجامعة . في بعض الإنجازات الإسلامية .. ومنها مجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .. إلى جانب ما كان يقدمه من إسهامات مشكورة للمؤتمرات الإسلامية ، أو ما كان يقدمه لخاصة تلاميذه ومريديه وأصدقائه من زاد ثقافي .. في ندوته الأسبوعية التي كان يعقدها في منزله حتى الأيام الأخيرة من حياته .. والتي شاء القدر أن تكون آخر إنجازاته العلمية في خدمة الإسلام والتجديد في فكره حين تحول الوافدون إليها للاستفادة إلى مشيعين للشيخ الإمام إلى مثواه الأخير ، وأن يكون موضوع الندوة في هذه المرة هو : تأبين الإمام محمد أبو زهرة نفسه .

وللإمام محمد أبو زهرة آراؤه وأفكاره في العقيدة والدين ، تلك التي تجعله بين صفوف المجددين ، مثلا في موضوع تعدد الزوجات ، وما ينجم عنه من مشكلات

اجتماعية يقول : « كان تعدد الزوجات في الشرائع القديمة ، سواء أكانت شرائع دينية ، أم كانت شرائع إنسانية وضعها الإنسان ، فالتوراة بنصوصها القديمة تبيح التعدد إلى غير عدد ، ومن غير شرط . ثم من بعد ذلك جاء الشراح في الديانة الإسرائيلية ، فأراد بعضهم تقييد العدد فقيدوه بثماني عشرة ، وجاء آخرون فقيدوه بالقدرة على الإنفاق ... » إلى أن يقول : « ولم يعرف أن أمة من الأمم القديمة منعت تعدد الزوجات إلا مصر الفرعونية ، فقد عرف عنها أنها كانت في القديم تمنع التعدد، ولا تبيح قوانينها إلا زوجة واحدة .. وعن مصر أخذ الرومان وحدة الزوجة ، ثم أخذ بعد ذلك أهل أوروبا » .

ويقول رحمه الله : « والعرب كان التعدد عندهم مباحا حتى إن الإسلام جاء ، ومنهم من تحت عصمته عشر من النساء أو أكثر . وأول شريعة سماوية حدت التعدد وقيدته هي الشريعة الإسلامية ، فقد حددت العدد بأربع ، وقيدته بشرطين هما : العدالة ، والقدرة على الإنفاق » .

والإمام أبو زهرة نظر إلى مشكلة التعدد بمنظورين : **أولهما** من منظور رجل الدين المقيد بشرع الله ، الذي يرى أن تعدد الحلائل خير من تعدد الخلائل ، وأن مشكلة المشردين في الشرق ربما تكون أرحم من مشكلة لقطاء الغرب ، **وثاني** المنظورين هو منظور رجل الفكر الاجتماعي الذي يرى أن الحل في مشكلة التعدد هو في رفعة مستوى الثقافة .

وعن الربا وتحريمه في الإسلام : وكيف كان هذا التحريم القصد منه رفع سيطرة رأس المال ، يتساءل الإمام أبو زهرة : « أكان التحريم للرحمة بالفقراء حتى لا يستغل فقر الفقير وضعف الضعيف ، أم كان التحريم لأن الإسلام يريد نظاما اقتصاديا لا يتحكم فيه رأس المال بحيث يكسب صاحب المال من ماله مع عدم التعرض للخسارة سواء كسب المدين أم خسر ؟ ويجيبنا في الوقت نفسه قائلا :

« إن الواضح الذي لا مجال للريب فيه أن التحريم كان لإيجاد نظام اقتصادي لا يتحكم فيه رأس المال ذلك التحكم .. » .

ويذكرنا الإمام أبو زهرة : أن الربا قد تضاعف سبيله في أوروبا بعمل اليهود . حيث أشاعوه ليتحكموا في رؤوس الأموال . ودخل فيه المسلمون مع من دخلوا ؛ فتحققت نبوءة سيدنا رسول الله - ﷺ - حيث قال : « **يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا . قيل : الناس كلهم يا رسول الله !! فقال الصادق الأمين : من لم يأكله ناله غباره** »[1] .

وعن موضوع آخر هو الحضانة وشرعيتها في الإسلام : يذكر الإمام أبو زهرة أن لصلاحيتها شروطا ثلاثة - **أولها** : ألا تكون الحاضنة متزوجة من أجنبي عن الطفل لأن ذلك الأجنبي في الغالب لا ينظر إليه نظرات عاطفية ، **وثانيها** : أن تكون الحاضنة قادرة على المحافظة على الطفل ، **وثالثها** : أن تكون الحاضنة أمينة على خلق الطفل ودينه «ويرى» أنه لا حاضن للطفل مثل أمه .

ولا شك أن في آراء الإمام أبي زهرة الفقهية تجديدا يواكب مسيرة المجتمع الإسلامي ، وعلاقاته بغيره من المجتمعات غير المسلمة ، حيث إن الاتصالات ونظمها جعلت العالم قرية صغيرة لابد من تعاون أفرادها ، هذا إلى جانب أن هناك تيارات وأفكارا تغدو وتجيء إلى هذا المجتمع الإسلامي من الخارج ، وعليه أن يتعامل معها ، وإلا عاش خارج الزمن .

ولعل الإمام «أبو زهرة» وهو يحاول التجديد في الفكر الإسلامي في أربعينيات أو خمسينيات وستينيات القرن الميلادي الماضي كان يرنو بنظره إلى ما يحدث في أوائل القرن الحالي (الحادي والعشرين) من نظام عالمي جديد أهمه العولمة

(1) النسائي : بيوع .

وما تفرضه من تشابك العلاقات والأفكار . ولا يستطيع أي مجتمع إسلامي كان أو غيره أن ينعزل عن النظام الكوني الجديد ، وإلا عاش هذا المجتمع خارج الزمن . ولهذا .. فإن أفكار أمثال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ، لا غنى عنها حيث تواكب الزمن في حركته .

يبقى أن نشير إلى ثلاثة جوانب واضحة في تفكير هذا المجدد الجليل ، تلك التي لا يستطيع أي باحث أو دارس لحياته الفكرية أن يتجاوز هذه الجوانب الثلاثة التي تتضح في مواقفه ، وأستاذيته ومؤلفاته !

فأما عن مواقفه ، فنجدها واحدة لا تتغير تجاه ما يتم من أحداث ، هي باختصار مواقف الإمام الذي يرى الموقف أرضا صلبة يقف عليها ، فلا يهتز مهما جرى حوله من عواصف أو أنواء حتى لو أصابته .. فلم تتغير هذه المواقف في العصر الملكي أو العصر الجمهوري . ولم يخضع لسلطان أو حاكم مهما كانت قوته وسطوته . فنراه يدلي بالآراء ويصدر الفتاوى، ويلقي المحاضرات التي يضمنها آراءه في شتى الأمور المتصلة بالشريعة الإسلامية ، هذه الآراء كانت - أحيانا - غير مريحة لأصحاب النفوذ والسلطان ، وساء في العصر الملكي حين عبر عن أمور كانت لها دخل مباشر بالعقيدة والدين ، كأن ينادي نفر من الانتهازيين والمنافقين بانتساب الملك فاروق إلى آل البيت عليهم رضوان الله . مع أن أصله لا يمكن أن يقرر هذا النسب النبوي الشريف .. إذ كيف يعقل أن يكون جد هذا الملك « محمد علي » المنحدر من أصول ألبانية لها علاقة قرابة بآل البيت في الجزيرة العربية؟! . لقد كان اعتراض الشيخ محمد أبو زهرة على ذلك واضحا وصريحا ، مما جعله مكروها للسراي وأتباعها وأشياعها من المنافقين والانتهازيين .

وفي العصر الجمهوري .. لم يكن يوافق على بعض الإجراءات والقرارات التي كان يتخذها الزعيم جمال عبد الناصر خاصة تلك التي لها علاقة بالملكية الخاصة

للمواطنين مثل : قوانين الإصلاح الزراعي والمواقف من بعض التيارات والاتجاهات الإسلامية المعتدلة ، واستشراء المد الشيوعي المغلف بكلمة الاشتراكية وغيرها ، الأمر الذي كانت نتيجته استبعاده طوال المرحلة الناصرية ، حتى كاد أن يكون معزولا في بيته بعين شمس .

كذلك لم تكن مواقفه منسجمة أو متماشية تماما مع فترة حكم الرئيس الراحل أنور السادات ، خاصة فيما يتعلق بقوانين الأحوال الشخصية وما تبعها من إجراءات ، وكان يعلن رأيه صريحا واضحا في ذلك ، إلى آخر أيام حياته .

وأما عن تأثيره المباشر من خلال أستاذيته فقد كان ذلك من خلال طلابه في كليات الحقوق بالجامعات المصرية وحدها، أو المعاهد العليا مثل معهدي: الدراسات الإسلامية والدراسات العربية ؛ حيث لم يتخرج طالب من أي من هذه المعاهد العليا والكليات الجامعية أو ينال رسالة من الدراسات العليا «ماجستير» أو «دكتوراه» إلا وكانت بصمات أستاذية الشيخ أبو زهرة واضحة جلية فيما يقول أو يكتب ، خاصة فيما يتعلق بالشريعة الإسلامية وعلاقتها بالقوانين الوضعية . ولا ينسى أي من رجال القانون محاضرات الشيخ أبو زهرة التي كانت ملتقى لكل طلاب الجامعة حتى طلاب الكليات غير القانونية حيث كانوا يسارعون إلى هذه المحاضرات حتى يتشبعوا من علم وفضل هذا العالم الجليل .. ولهذا ، يمكن القول باطمئنان بأن للشيخ محمد أبو زهرة تأثيرا كبيرا على كل من تخرج في كليات الحقوق ، سواء الذين يواجهون الحياة العلمية داخل الجامعة ، أو الذين يعملون في القانون خارج أسوار الجامعة .

بقى الحديث عن مؤلفاته وكتاباته وقيمتها العلمية التى لا يمكن أن يتجاهلها إلا جاحد أو مكابر . هذه المؤلفات والكتابات أشرنا إليها مجرد إشارات عابرة وسريعة ، بل ورجعنا إلى الكثير منها في تناولنا لبعض المجددين في الصفحات

السابقة ، حيث كان يفرد للحديث عن هذه الشخصيات التاريخية مقالات ودراسات، سواء في كتبه العلمية ، أو مقالاته السيارة في الصحف والمجلات والدوريات أو في محاضراته في الندوات والمؤتمرات العامة ، أو حتى في الأحاديث في أجهزة الاتصال المقروءة والمسموعة والمرئية ... هذه المؤلفات والكتابات والأحاديث كانت من الدقة و الموضوعية إلى درجة تجعل المتلقي لا يمكن أن يتجاهلها أو يمر عليها مرا سريعا لما فيها من أصالة علمية ، وآراء تجديدية تضيف الكثير إلى تفكيرنا الإسلامي . ولهذا ولغيره من أسباب .. كانت مؤلفات الشيخ محمد أبو زهرة من المصادر العلمية والفقهية التي لا يمكن أن يتجاوزها الباحث .

إلى آخر ذلك من مآثر ومناصب خاصة بالعالم الجليل ، والمجدد العظيم ، الشيخ محمد أبو زهرة .

* * *